كتاب
حملة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة

نحن الذين نعالج تاريخ القدس

جديرون بالتصديق حقا، لأننا أوردنا مارأيناه

ودوّنا بالقلم هذه الأعمال بينما ماتزال ذاكرتنا واعية لها. وإذا ما أراد قارىء متشدد اسلوباً

أكثر رشاقة، عليه أن يتذكر أننا كتبنا عندما كنا

بالمعسكر، ولم يسمح لنا ضجيج الحرب بالهدوء والتفكير العميق.

obeikandl.com

كيف هاجم صلاح الدين فلسطين

في سنة ١١٨٧ لتجسيد كلمة ربنا، عندما كان أوربان الثالث يرأس حكومة الكرسي الرسولي، وفردريك الأول امبراطورا لألمانيا، واسحق الثاني يحكم في القسطنطينية، وفيليب الثاني في فرنسا، وهنري الثاني في انكلترا، ووليم الثاني في صقلية، وقعت يد الرب بثقل فوق شعبه، إذا صح أن ندعو هؤلاء «شعبه»، لأن دنس حياتهم، وعاداتهم، وبشاعة شرورهم، قد أبعدتهم عن إحسانه، لقد غدت آثامهم واضحة إلى حد أنهم جميعاً (رموا جانبا برقع الحياء) وانغمسوا كلياً، في وضح النهار في حمأة ذنوبهم.

وسيكون عملاً طويلاً، لايتوافق مع هدفنا الحالي، أن نكشف مشاهد الدم، والسرقة والزنا التي لطختهم (إن عملي الحالي تاريخ وليس رسالة في الأخلاق)، ولكن عندما نشر عدونا القديم قرباً وبعداً، روح الفساد، استولى أكثر بشكل خاص على أراضي سورية وفلسطين، وهكذا أخذت الأمم الأخرى الآن تنهل الدنس من المنهل نفسه الذي زودهم من قبل بعناصر الديانة، فهذا ما جعل الرب، وقد رأى أرض ميلاده، وشهد مكان آلامه، قد سقط في حمأة الموبقات عامل باهمال ورثته، وجعل من صلاح الدين عصا عذابه، وصب غضبه في سبيل تدمير ذلك الشعب العنيد، لأنه بالحري كان يؤثر بأن تصبح أرضه خاضعة لوقت قصير للطقوس الدنسة للكفار على أن تبقى في حوزة أناس ليس لديهم تقدير لما هو صحيح ولما يحول دون الأخذ بالأشياء غير الشرعية.

وبناء عليه قام صلاح الدين بعدما حشد وحدات مقاتليه، بالهجوم بكل عنف على فلسطين، وبعث أمامه أمير الرها مع سبعة آلاف من الترك للقيام بالعيث فساداً في الأرض المقدسة، وبعد ما زحف هذا

الرجل بعيداً حتى الأماكن من حول طبرية اصطدم بجيرارد دي ردفورت، مقدم الداوية، وروجردي مولين مقدم الاسبتارية، وقد هزم هزيمة ساحقة واحداً منهما، وقتل الثاني في هجوم مفاجيء.

وعُزل في هذه المعركة (١ــ أيار ١١٨٧) عدد من جنودنا وحوصروا من قبل حشد كبير مما أدى إلى تحقق واقعة تستحق التدوين: كان هناك فارساً من الداوية، من أصل ألماني ابسمه جاكوين دي ميللي، استطاع بشجاعته المفرطة أن يحول هجوم الأعداء ضده، فقد كان أصحابه من الجنود، وعددهم نحو خمسمائة، قد وقعوا إما بالأسر أو قتلوا، وصمد وحده يتحمل ثقل المعركة كلها، فلقد كان بطلاً حقيقياً لشريعة الرب، وأخيراً طوق تماماً من قبل عساكر الأعداء، وافتقر إلى المساعدة البشرية، وعندما رأى الآلاف المؤلفة تندفع نحوه من كل جانب، جمع شجاعته كلها وواجه بإقدام العدو وحده، وجذبت شجاعته اعجاب الأعداء، فامتلأوا بالعطف عليه، ودعوه باخلاص إلى الاستسلام، غير أنه واجههم بأذن صماء ولم يستجب لما رغبوه به، ولم يكن خائفاً من الموت في سبيل المسيح (وبعد ما أثقل بحمل النشاب، والحجارة، والحراب، استمر يقاوم ولم يسقط) غير أنه وبعد مصاعب جمة قتل، وتحول موته بالحقيقة إلى مجد وفخار، لأنه استطاع بسيف واحد أن يحيط نفسه بأكوام من القتلى.

وسرّ صلاح الدين بهذا النصر سروراً عظيماً، وحوّل ذهنه نحو أفاعيل أعظم، فبعدما استنهض جميع القوى في مملكته، هاجم بقوة وجرأة أراضي القدس، وعلى مسافة قصيرة من طبرية، وفي مكان اسمه حطين، امتحن الرب شعبه بالسيف، وجرح الكثيرين، وألقيت أعداد كبيرة جداً بالسجن، حتى أن تدمير شعبنا استدر عطف أعدائهم.

وتمّ الاستيلاء على صليب الصلبوت، الذي صلب عليه ربنا ومخلصنا، ولوث بأيدي غير المؤمنين، ولقد سقط حاملاه معه وهما:

أسقف عكا، وأسقف القديس جرجس (اللد) ، فقد قتل أحدهما وأخذ الآخر أسيراً.

لقد جرى أسر ملك القدس وصليب الصلبوت معا، وتم حفظ شطر من الأسرى دون أن يلحقهم أذى، ليوضعوا تحت تصرف المنتصر، ولاقى شطر مصيره بالسيف، وكان بين هؤلاء أرناط، أمير أنطاكية، وقد اقتيد أولاً إلى حضرة السلطان، وقام ذلك الطاغية فقطع رأس ذلك الشيخ بيده، وذلك بسبب شدة تعصبه أو حسداً منه وغيرة من هذا الرجل العظيم، وأمر أيضاً بإعدام جميع أسرى الداوية، ولم يوفر سوى مقدمهم، فقد امتلك رغبة في محق هؤلاء الذين تميزوا عن سواهم بالشجاعة اثناء القتال.

وعندما خمدت أصوات المعركة، رفع صلاح الدين عينيه نحو السماء، وقدم الشكر لله على النصر الذي ناله، ولقد قيل أنه قال: نحن لم ننتصر بقوتنا، لكن ذنوبهم أسلمتهم إلينا فانتصرنا، وهكذا تلاشى بلحظة واحدة مجد مملكة القدس كله، وزال عنها وخمد، ونال المصير نفسه حشد قوات المملكة كلها، فقد جمعها الملك تحت إمرته في سبيل المعركة الحاسمة، وبقي فقط يتولى حراسة المدن والقلاع، الضعفاء والنساء، والشيوخ، والذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح.

وكان السلطان واثقاً أن قلاع المملكة ستسقط له بسهولة (بعد ما تم قتل المدافعين عنها)، ولهذا حمل معه الملك الأسير في موكب نصر، لعرضه أمام المدن التي رغب بالاستيلاء عليها، مستهدفاً بذلك ارغامها على الاستسلام، وقد زحف أولاً إلى عكا، واستولى عليها دونما جهد، وسمح لسكانها بالمغادرة، والسفر إلى حيث أرادوا ومعهم كل مقتنياتهم.

وحدث في الوقت نفسه أن البحارة منا، كانوا يتابعون رحلاتهم المعتادة نحو عكا، قادمين من البلدان المسيحية، وكان بعضهم محملاً

بالبضائع التجارية، وبعضهم الآخر بالحجاج، وباللأسف لم يكونوا قد سمعوا بما حدث، ولهذا دخلوا إلى الميناء المعادي ووقعوا أسرى.

وكان المركيز كونراد أوف مونت فرّات، بين آخرين، في طريقه من القسطنطينية، وقد رمى مراسيه خارج ميناء عكا، وكان الوقت يومها عند غروب الشمس، لذلك بقي حيث هو حتى الصباح، وقد أوجد الهدوء الذي لف المدينة في نفسه الريبة، حيث جرت العادة في غير ذلك من الأوقات بقيام صراخ عام وصيحات التهنئة بالقدوم، عندما يظهر أي مركب، كما أن رنوك وشعارات السلطان التي رؤيت في مختلف أجزاء المدينة قدمت السبب لمزيد من الخشية، وشوهد بالوقت نفسه قدوم عدد من المراكب الاسلامية واقترابها، وهذا ما أنذر الملاحين والبحارة، فأمرهم المركيز بلزوم الصمت وانتصب واقفاً وتقدم ليتحدث باسمهم، وعندما سأله المسلمون من هو ومن معه، أجابهم، أن سفينتهم تجارية، وهو مقدمها، وأنه قد سمع بما حدث، وبما أنه عبد مخلص للسلطان، سينتظر حتى انبلاج الفجر ثم يقوم بالنهار بعرض بضائعه.

وجاءت في تلك الليلة ريح طيبة مواتية، وأبحر إلى صور، وتولى هناك مهام الدفاع عنها.

وحدث بعد الاستيلاء على عكا أن استسلمت بيروت وصيدا، وتوقع السلطان أن يأخذ صور بالسهولة نفسها، لكنه رد عن أسوارها بشكل مهين، فقام برفع الحصار، وحمل معه ملك القدس وتوجه من هناك إلى عسقلان، ونصب مجانيقه وآلات حربه لرميها بالحجارة، ثم بدأ بالهجوم عليها.

وطبعاً كان من السهل الاستيلاء عليها نظراً لأن الحامية المدافعة عنها كانت ضعيفة، وذلك على الرغم من أن دفاعاتها قد أظهرتها قوية جداً لاترام، وأنها مشحونة بما يكفيها من جند، وكان المهاجم المتلهف،

متشوقاً للاستيلاء على هذه المدينة قبل كل شيء. ثم إنه لم يكن يثق تماماً بقدراته للاستيلاء عليها عنوة، لأنه لم يكن على بينة بأحوالها وراء الأسوار، ولا كيف أنها كانت تعاني من نقص بالسلاح، والرجال والطعام، ولذلك وافق على شروط استسلامها، التي قضت بأن يسمح لسكانها بالمغادرة بكل حرية وبحمل جميع ممتلكاتهم، وأن يجري اطلاق سراح ملك القدس مع خمسين آخرين من أعيان الأسرى، بأقصى سرعة ممكنة.

ولقد بات الآن أمر سقوط القدس محتوماً، وقام المنتصر بالزحف نحوها بسرعة عظمى لايوازيها سوى كراهيته، وباشر بحصار المدينة، وأنشأ آلات الحرب، ولوث الأماكن المقدسة بأعمال آثمة تدل على عدم الاحترام، وحاول سكان المدينة الدفاع عنها بقدر ما كانوا يستطيعون، غير أن جميع جهود رجالنا كانت بلا فعالية، فقد استخدموا النشاب والحراب والرماح وغير ذلك بدون فائدة، لأن الرب كان غاضباً، وسقوط المدينة أمراً تقرر.

وكانت أعداد كبيرة من الناس قد تدفقت معا على المدينة، واضعة ثقتها بقداسة المكان، أكثر منها بقوة دفاعاته، وكان من المستحيل أن يجد المرء في وسط هذه الحشود العظيمة أربعة عشر فارساً، وقام الكهنة ورجال الدين بتولي أعمال الجند (مع أن ذلك كان معاكسا لاختصاصهم)، وذلك بموجب حالة الطوارىء، وقاتلوا بشجاعة في سبيل بيت الرب، غير أن السكان، وكانوا جهلة ومرعوبين، فتجمهروا حول البطريرك والملكة، اللذان خلفا في موقع المسؤولية عن المدينة، واشتكوا بمرارة، وأعلنوا بصدق أنهم ربما سيطلبون من السلطان منحهم شروط استسلام.

وأخذت المدينة، وتجاوزت تكبيرات المسلمين قمة الصخرة المقدسة، ونشروا هناك شريعتهم الزائفة، لقد نشروها في المكان الذي ذاق فيه المسيح طعم الموت على الصليب، وقام الأعداء بعمل مغيظ آخر: فلقد

ربطوا حبالاً حول صليب، كان موضوعاً فوق قبة كنيسة الاسبتارية (المسجد الأقصى) وسحبوه إلى الأرض، حيث بصقوا عليه، ودحرجوه، وجروه — استهانة بعقيدتنا — وسط جميع قاذورات المدينة.

obeikandl.com

حصار عكا

أطلق سراح غي لوزغنان، ملك القدس، من قبل صلاح الدين، بعد ما أمضى سنة بالأسر، وذلك بعدما أعطى مواثيق مشددة أنه سيتولى التخلي عن المملكة، وسيغادر البلاد نافيا نفسه إلى ماوراء البحار في القريب العاجل، لكن رجال الدين حللوا الملك من مواثيقه وأيمانه، لسببين : أن ما قام به كان تحت الإكراه ويستحق الشطب، ولأن جموعاً من المؤمنين كانت في طريقها إلى الأرض المقدسة، وكانت ستجد فيه الرأس والقائد.

وقام الملك بعد برهة قصيرة، بحشد جيشه، وشرع في أواخر آب، في يوم القديس أوغسطين، أي بعد عامين من الاستيلاء على عكا من قبل الترك، هناك بأعمال ذلك الحصار الطويل والصعب، والذي استغرق أكثر من عامين، وذلك قبل استسلام المدينة.

ووصلت القوات البيزية — التي اختارت السفر بالبحر لأنه أقصر وأسهل — بسفنها إلى مقربة عكا، بانتظام ، وبشجاعة استطاعت أن تحتل الساحل، وما أن أنجز البيازنة تأمين قاعدة، حتى شرعوا بأعمال الحصار من جهة البحر، بشجاعة وتصميم،ونصب الملك مع بقية جيشه خيامهم على تلة مجاورة، تدعى عموماً جبل تورون Turon استطاع منه (نظراً لارتفاعه عن الأرض) أن يراقب الطرق البرية والبحرية الموصلة إليها.

وفي اليوم الثالث الذي تلا يوم الوصول، قام المسيحيون بالهجوم على المدينة، وادراكاً منهم أنه كان من العبث انتظار تأثير أحجار المناجيق وبقية الآلات، اعتمدوا على دفاعات ترستهم فقط، وحملوا سلالم تسلق حتى يركبون بها الأسوار، وكادوا في ذلك اليوم أن يحصلوا نهاية سعيدة،

لولا خداع العدو القديم، ووصول معلومات زائفة، أحبطت انتصارهم عندما كاد أن يكتمل، فقد روي أن صلاح الدين قد بات وصوله وشيكا، ولهذا رجع رجالنا إلى المعسكر مسرعين، لكن عندما أدركوا أن الذين وصلوا مجرد قوة صغيرة جاءت قبل سواها، عبروا عن غضبهم بدلاً عن أسفهم، لأن النصر اختطف منهم.

وكان السلطان في ذلك الوقت يحاصر قلعة الشقيف في الجليل، وعندما علم بما كان يحدث، زحف مسرعاً مع جيش كبير إلى عكا، وبما أن رجالنا كانوا غير قادرين على التصدي له ومنازلته، أبقوا أنفسهم داخل حدود المنطقة المتقدم وصفها، وهاجمهم الأتراك باستمرار، في الصباح وفي المساء، وجربوا كل وسيلة للتوغل حتى قمة الهضبة، وهكذا فإن أولئك الذين جاءوا لحصار آخرين، باتوا أنفسهم الآن محاصرين.

وبينما كان رجالنا، في هذا الوضع، شاهدوا اقتراب خمسين سفينة، تحمل نجدة قوامها اثني عشر ألفاً من الرجال، وأقام هؤلاء معسكرهم فيما بين المدينة وجبل تورون، ثم صرفوا قواهم العملاقة نحو تدمير الأعداء، وبعدما ازدادت أعداد المؤمنين على هذه الصورة، تقرر بالاجماع مهاجمة المعسكر المجاور لغير المؤمنين، وكان بينهما سهل واسع، قدم رقعة جيدة لاتخاذها ساحة للمعركة.

ووقف الترك بتصميم للدفاع عن معسكرهم، لكن عندما دنا رجالنا واقتربوا فتح الرجالة (الذين كانوا بالساقة) صفوفهم، وقامت قواتنا المحمولة بالانقضاض بكل شجاعة على الأعداء، ولحقت الهزيمة بغير المؤمنين، وتخلوا عن معسكرهم، ثم إن المسيحيين توقفوا عن أعمال المطاردة، رغبة منهم في الحصول على الغنائم، وتم الاستيلاء على خيمة السلطان نفسه، واندفع بالوقت نفسه حشد كبير من الأعداء من داخل المدينة، وزحفوا من المكان الذي لم يكن محاصراً، واستمروا في سيرهم نحو الجبل بوساطة ممرخلفي، بالحقيقة زحفوا عن عمد عبر ممر دائري،

بهدف أنه بينما يكون رجالنا في حيرة لايعرفون هل يقصدون مهاجمة المعسكر أم الجيش، ربما يكون بإمكانهم الانقضاض فجأة على الجيش من المؤخرة.

وكان الداوية، الذين لم يكونوا أدنى شهرة وإيماناً من أحد، قد تمكنوا في هذا الوقت من خرق صفوف الأعداء، ولو أن بقية الجيش تابعت خلفهم في أعمال المطاردة لنالوا في ذلك اليوم حظ الانتصار بالاستيلاء على المدينة وكذلك في المعركة، لكن عندما كان الداوية في جهدهم قد ابتعدوا كثيراً وتوغلوا طويلاً في متابعة حظهم، تعرضوا فجأة للهجوم وغلبوا، وذلك من قبل أهل المدينة، مع أن انتصار الأعداء لم يتم دون قتل عدد كبير من رجالهم.

وفي جزء آخر، بينما كان الألمان مشغولين جداً بأعمال النهب، عرض المخادع القديم أمام أبصارهم حصاناً فاراً، ورأوا جمعاً من الناس يطاردونه، فافترض البقية أنهم كانوا يفرون، وحدث بهذا الحدث التافه، لكن الحاسم، أن الخوف عم وسط الجيش كله، وتوجهوا جميعاً بعقولهم نحو الفرار.

ورأى قادتنا بعد هذا الحادث، أنه من الأفضل التمنع عن أعمال القتال في السهل، وشغلوا أنفسهم في تقوية المعسكر، وأقاموا حوله سوراً من الأتربة الممزوجة بالأعشاب والنباتات، مع خنادق عميقة من البحر إلى البحر، وبذلك أصبحت المدينة مغلقة من جهتي البر والبحر، وبينما كان رجالنا مشغولين في صنع الخنادق هاجمهم الترك بشكل متواصل، على شكل حملات قامت بها فرقة تلو أخرى من الصباح حتى الليل.

وعندما طوق رجالنا عكا من جميع الجهات، بدأ سكانها يعانون من مجاعة شديدة، ذلك أنهم كانوا قد استهلكوا جميع المؤن التي كانت لديهم، ولذلك عرضوا تسليم المدينة على شرط أن يسمح لهم بالمغادرة

مع مقتنياتهم دون أن يلحقهم الأذى، ولم تقنع هذه الشروط مقدمينا الذين قرروا إما إرغامهم بوساطة التجويع على الخضوع لإرادتهم، أو أن ينالوا فخار اقتحام المدينة عنوة، لكن عندما كانوا يناقشون ببطء أمور تسليم المدينة، قام السلطان بتحميل خمسين سفينة بالرجال والمؤن والسلاح من الاسكندرية وأرسلهم لمساعدة عكا، ووصل هؤلاء مساء عيد جميع القديسين، وعندما رؤيت هذه السفن عن بعد، قال بعضهم: إن العدو بات في متناول اليد، وقال آخرون: إن نجدة جاءت لعون المسيحيين، وفيما هم في حيرة غير متأكدين، دخل الأعداء إلى المدينة، وحملوا معهم بالقوة إحدى سفننا التي وجدوها بالميناء ، ولدى تقوية المدافعين عن المدينة بالمؤن، قام هؤلاء بالضغط علينا بشجاعة أعظم.

واستمر بالوقت نفسه الجيش التركي الذي كان موجوداً خارج المدينة بحملاته المتواصلة على رجالنا الذين كانوا خلف الخنادق، وبذل المسلمون جهودهم لطم الخنادق، وأكملوا ردم بعضها برمي التراب فيها، غير أن المسيحيين وإن تعرضوا للضغط الشديد من قبل أهل المدينة من جانب ومن هجوم الجيش من الجانب الآخر حافظوا على مواقعهم برجولة، وأقاموا الحراس على الخنادق، وبذلك تمكنوا من رد الهجمات من كلا الجانبين.

واشتكى رجال العامة الآن من عدم فعالية المقدمين، ومن استمرار الانغلاق بلا فائدة، وضاقوا ذرعاً بالحصار، ولدى قيام المقدمين بتقدير الموقف، رأوا بعد بعض الوقت الذي أمضوه في معرفة ما هو الأفضل للقيام به، أنه ينبغي مهاجمة العدو في الخارج والاشتباك معه في معركة عامة، لأنه إذا ما أرغم الجيش المعادي على الانسجاب، سيكون أمر اقتحام المدينة أكثر سهولة.

وبناء عليه قام قادتنا في اليوم التالي لعيد القديس مارتن بقيادة قواتهم، وقد تعبأوا وانتظموا للقتال، وعند غروب الشمس أكملوا زحفهم

ونصبوا خيمهم، وهنا قدم سكان المدينة، ودخلوا المنطقة التي أخليت، وانقضوا على الأثقال لنهبها، لكن رجالنا استقبلوهم برجولة وأرغموهم على الفرار.

وفي تلك الليلة أمر السلطان بنقل جميع خيمه وأثقاله إلى الجبال، والذي لم يمكن نقله آنئذ أحرق، وهذا الذي حدث فيه دليل على روح مهزومة وعلى تردد، لأنه رفض القتال في المنبسط ودمر أثقاله، وتراجع إلى الجبل، وعندما عثر على بقعة لم يكن من السهل الوصول إليها، توقف ، وأرسل عدداً كبيراً من الرجالة والنبالة لإيقاف من فكر بالملاحقة من قوات العدو وصده، وبذلك بات بإمكانه من علو إغضاب هؤلاء الذين خاف من الاشتباك معهم عن قرب، وشعر رجالنا بأنهم خدعوا وأنهم لن يتمكنوا من الالتحام في معركة، وأنهم أيضاً عاجزين عن ملاحقة الأعداء عبر الطريق الصعب، لهذا حملوا أنفسهم وعادوا دون الإصابة بأضرار، ودون الحصول على المجد.

وازدادت في الوقت نفسه الحاجة إلى المؤن في جيشنا يومياً، وأضاف المناخ الحار رعباً إلى رعبهم فيما يتعلق بالمجاعة القائمة.

- ٨١٧ -

خبر ملكي انكلترا وفرنسا

بينما كانت هذه الأمور تحدث في فلسطين، انتشرت أخبار في جميع أرجاء العالم بأن مدن الأراضي المقدسة باتت في أيدي الكفار، وأن الآثار المقدسة تعامل بإزدراء وتداس بالأقدام. وأن المسيحيين تعرضوا للنهب والإهانة.

وتحرك أباطرة أوروبا نتيجة لاثارتهم من قبل البابا غريغوري الثامن، وثار عدد كبير من مختلف الأمم، وحمل الفرنسيون والانكليز قبل سواهم عن إيمان علامة الصليب، واستعدوا بكل ما أوتوه من قوة للاسراع إلى عون الأراضي المقدسة، وكانت الحماسة للحج الجديد هائلة حيث لم يبت السؤال: من سيحمل الصليب، بل من لم يحمله بعد، وأرسل بعض الأشخاص إلى بعضهم هدايا تكونت من مغزل وصوف، وذلك في إشارة إلى أن كل من رفض المشاركة بالحملة سينظر إليه باستخفاف واحتقار، وكأنه انسان قادر على القيام بواجبات النساء فقط، وحثت الزوجات أزواجهن والأمهات أولادهن ليكرسوا نفوسهم لهذا الصراع النبيل، وأسفن أن ضعفهن لكونهن نساء قد منعهن من الذهاب أيضاً، وهاجر الكثيرون من بيوتهم إلى المعسكر، واستبدلوا معاطفهم بالسوابغ وتخلوا عن تعلم الآداب إلى دراسة العمل بالسلاح، وبشر رجال الكنيسة في كنائسهم، وبينوا محاسن التوقف عن شرب الخمرة، وحثوا جميع الناس وأمروهم بالتخلي عما اعتادوا عليه من أسباب الرفاهية، وتم الاتفاق أيضاً على ضمان الحجاج الذين كانوا فقراء.

ومع أن فردريك امبراطور الألمان كان آخر حاكم تعهد بحمل الصليب، كان أول من نفذ تعهده، ولكن عندما كان على حدود أرمينيا (كيليكيه)، وبينما خيول النقل والأثقال تقوم بجواز نهر غوكسو (السن)،

استعد للجواز من أقرب نقطة من النهر، حتى يحصل في الأمام، ويمتلك الحرية في متابعة سيره، ولكن المياه قهرته فغرق ومات.

ووصل رجال جيشه بعد ضياع وتشرد طويل جداً إلى أنطاكية، فأطلقوا لأنفسهم العنان في الأكل وإشباع الرغبات، ونتيجة لذلك مات عدد كبير منهم بسبب التخمة المفاجئة، وهكذا هلك العدد الأكبر من هذا الجيش بهذه الطريقة المعيبة، وعاد معظم الذين بقيوا على قيد الحياة إلى بلدانهم.

وكان رتشارد — الذي كان وقتذاك كونت بواتو — أول من حمل الصليب ومعه حشد هائل من الناس، ولكنهم لم ينطلقوا بسبب خلاف نشب فيما بين فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، والد رتشارد، وكان رئيس أساقفة صُور (الذي حمل إلى العالم المسيحي أخبار الفاجعة العظيمة) قد بذل بإخلاص جهده للمصالحة بينهما وحدد اليوم الذي سيلتقيان فيه لحمل الصليب.

وعزما في ذلك اليوم أن يحمل كل واحد منهما الصليب، ويغادر من بلاده، وبدا هذا اجراءاً احتياطياً سليماً حتى لايقوم أي منهما بمهاجمة مملكة الآخر، ذلك أن أيا منهما لن يغادر ما لم يغادر الآخر، ثم قام الملكان بتبادل قبلات السلام وحملا الصلبان (وتميز كل منهما بلون صليبه، فقد كان لون الصليب الفرنسي الأبيض، والانكليزي الأحمر، والفلمنكي الأخضر)، غير أن الملك هنري مات يوم عيد الرسولين بطرس وبولص في سنة ١١٨٩، لتجسيد ربنا، وفي السنة نفسها، وبعد موت أبيه، قام رتشارد كونت بواتو بعدما رتب شؤونه في نورماندي، أي بعد حوالي الشهرين من الوفاة، بالعبور إلى انكلترا، وكان ذلك في يوم عيد القديس جايلز، وقد استقبل في وستمنستز بموكب تشريف احتفالي.

وبعد مضي ثلاثة أيام، في الثالث من ايلول رسم ملكاً وتوج من قبل

رئيس الأساقفة بلدوين، وكان أخوه جون حاضراً وقت التتويج وكذلك أمه إليانور مع عدد كبير من الكونتات والبارونات، وحشد كبير من الناس والجند، وهكذا أسندت المملكة وآلت إلى أيدي الملك رتشارد.

على هذه الصورة وفي سنة ١١٨٩، لتجسيد الرب جرى تتويج رتشارد ملكاً في يوم أحد، واحتفل بالمناسبة لمدة ثلاثة أيام، تم خلالها استقبال الضيوف في القصر الملكي في وستمنستر، وأكرم الجميع بتوزيع المال عليهم بدون عد وإحصاء، وأعطى الجميع تبعا لمراتبهم، وبذلك عبر عن كرمه وعظمته الكبيرة.

لقد امتلك شجاعة هكتور، وسموآخيل، وعادل الاسكندر (ولم يكن أقل من رولاند) في الشجاعة، وكان كرم تيتوس كرمه، و (كل شيء نادر وجد في جندي كان فيه)، وكان مفوها له فصاحة نستور وحكمة يوليسيس Ulsses وعبر عن نفسه وأظهر عظمتها في أثناء تنفيذ الأعمال، وجعله النجاح أكثر موائمة للعمل، لأن الزمان يرعى دوماً الجرىء، ومع أنه كان يظهر سروره ممن يريد ويضفي بهجته على من يحب، لم يعان رتشارد قط من الهزيمة بالمتاعب والخصومات.

فلقد كان طويل القوام، جميل المحيا، بشعر ما بين الأحمر والخرنوبي،، وكانت أطرافه مستقيمة ومرنه، وامتلك ذراعين أقرب إلى الطول، لايمكن موازاتهما في العمل بالسيف أو الضرب به، وتناسب طول رجلاه مع باقي بنيته، وفي الوقت الذي كان مظهره أخاذا وفيه جلالة، وأخلاقه وعاداته موائمة، كان مانالله من مكانة من نسبه الرفيع أدنى مما حمله من محاسن تزين بها، ولم يحتج إلى إطراء كبير، ذلك أن حاجته إلى المديح كانت قليلة، والمديح كان دوماً المرافق الأكيد لأعماله العظيمة.

كان متفوقاً كثيراً على الآخرين في كل من المزايا المعنوية والقوة، ومذكوراً من أجل قوته في القتال، حيث أن أفعاله الجبارة فاقت في

لمعانها جميع الأوصاف البراقة التي يمكن أن نضفيها عليها، وكان والحق يقال لانظير له في أعماله الرائعة، وكان السبب الوحيد لمعاداته هو روعته، وأنه الباحث عن الصفات الحميدة، ولم يكن عبداً للآثام والشرور.

وعندما انتهت احتفالات التتويج، انتصب رتشارد في مكان أبيه، وتلقى يمين الولاء من النبلاء حسبما جرت العادة، ثم غادر لندن، وقام بجولة في مختلف المناطق، وبعد هذا قام بالحج إلى القديس ادموند الذي اقترب حلول موعد عيده، ووافق على تعيين عدد من الأساقفة في بعض الأسقفيات، وبعد ما أعد كل شيء من أجل الرحلة، ورتب شؤون مملكة انكلترا بقدر ما سمح له الوقت، عاد إلى نورماندي حيث احتفل بعيد ميلاد ربنا.

وجعلته نواياه بالشروع بالرحلة والوفاء بما تعهد به متلهفاً، ذلك أنه حكم أن التأخير خطير، ولذلك قام في سنة ١١٩٠، لتجسيد مولانا، بحث الملك فيليب صاحب فرنسا على أن يكون مستعداً أيضاً.

وكان الاسطول الملكي، قد وجهه الملك رتشارد وأمره بالارتحال إلى (صقلية) فوصل إلى هدفه وهو ميناء مسينا، وذلك بعد ما تخطى جميع مخاطر المحيط، وانتظر هناك وصول الملك، الذي كان يزحف براً مع جيشه.

وعندما غادر الملك تور مع قواته، من الذي كان بامكانه أن يذكر عدد القوات التي رافقته، وأنواع أسلحتهم، وقطار النبلاء، وفرق المنازلة المختارة؟ أو من كان يستطيع أن يصف قوات الرجالة وكتائب حملة المقاليع بينهم؟ وقام الذين رأوهم بالبكاء والتوجه أيضاً بالشكر للرب من صميم قلوبهم. من أجل الملك الجديد، والذي قام في بداية حكمه، ودون أن يذوق طعم الراحة، بالتخلي عن ايمان وبكل سرعة عن جميع المسرات، وتولى القيام بعمل عظيم ومفيد جداً، ومتعب وكذلك ضروري.

ياللتنهدات وبكاء الذين عانقوا بعضهم أثناء الفراق! ويالـلأماني الطيبة للذين كانوا مسافرين، وياللعيون المثقلة بالدموع، والحسرات التي قطعت كلمات المتكلمين وسط قبلات الذين كانوا عزيزين عليهم، ولقد حزنوا، وفقد بعض الذين كانوا منطلقين وعيهم من شدة الأسى، وذلك أثناء الفراق، وبعد ما تبادلوا تحيات الوداع وقفوا قليلاً أكثر ورددوا العبارات لكسب بعض التأخير، وأخيراً انتزعوا أنفسهم من وسط أصوات التحيات، وانطلقوا نحو الأمام حتى يخلصوا أنفسهم من بين أيدي الذين حبسوهم.

وعلى هذه الصورة، انطلق رتشارد، ملك انكلترا، في السنة الأولى لتتويجه من تور، وأخذ الطريق نحو فيزلي، حيث التقى الملكان ومعهما قواتهما، وبما أن كلا الأمتين كانتا أكبر من أن تحصيا عدداً، فقد انتشرت الخيام والسرادقات فغطت وجه الجبال طولاً وعرضاً، وكذلك سطح الأرض من حولها مع الحقول المزروعة، وأعطى ذلك الانطباع بشكل مدينة، وتمتن هذا الانطباع أكثر بتعدد أنواع السرادقات واختلاف ألوانها التي ميزت بعضها عن بعض.

وكان بإمكانك ان ترى الشباب العسكريين من أمم مختلفة شاكي السلاح، مستعدين للحرب، يبدون وكأنهم قادرين على اخضاع الأرض كلها بالطول والعرض، وأن يهزموا جميع أمم العالم، وأن يخرقوا صفوف مختلف القبائل، وان يحكموا أن ما من مكان شديد الصعوبة أو ما من عدو قوي جداً بحيث يستحيل قهره، ولقد بدوا وكأنه من المستحيل بالنسبة لهم أن ينصاعوا للخطأ ماداموا قادرين على عون بعضهم بعضاً، ومساعدة أحدهم للآخر بفضل شجاعتهم.

ومع هذا فإن ذلك الجيش، الفخور بأعداده الكبيرة، والمحمي بقوة أسلحته، كان مشحوناً بالمتاعب، ممزقاً بالخصومات والخلافات، مغلوباً على أمره بعدم الاتفاق، ولو أنه ظل موحداً بالنظام العسكري والإرادة

الطيبة، لبقي غير قابل للقهر بالنسبة لأي سواه، ولكنه بتمزيق روابط التبعية واجه سقوطاً مريعاً، وتخلى عنه الأصدقاء وابتعد عنهم، ذلك أن البيت الممزق ضد بعضه يغدو خاوياً.

وانطلق الملكان نحو الأمام ومعهما رجالهما، وأعدا الخطط لزحفهما، وعقداً اجتماعات دورية بأبهة عظيمة، ولدى مرورهم خلال المدن والقرى بعتاد عملاق هائل وبأسلحة الصدام، كان السكان يرددون في دهشتهم: أيتها السماء، ما هذا الحشد الهائل من الرجال وماذا يريد؟! أيها الجند النبلاء في زهرة شبابهم ما أروعكم! أيها الشباب السعداء كم هو جمالكم عظيم! أي أرض ولدت مثل هؤلاء الجنود الشبان الرائعين؟.

وهكذا تابع الجيش زحفه مبتهجاً من فيزلي إلى ليون على الرون، ووقتها غادر ملك فرنسا مع جميع قواته واتجه إلى جنوى، وكان المتفق عليه أن الذي يصل إلى مسينافي صقلية أولاً يتوجب عليه أن ينتظر وصول الآخر، وبعد مضي ثلاثة أيام غادر الملك رتشارد إلى مرسيليا، حيث مكثنا هناك لمدة ثلاثة أسابيع، ثم أقلعنا في اليوم التالي ليوم رفع العذراء المباركة إلى السماء، لنعبر البحر إلى مدينة مسينا.

ولدى انتشار خبر قدوم ملك انكلترا النبيل بين سكان مسينا، اندفعوا بحماس وتجمعوا لرؤيته، فلقد تجمهروا على طول الشاطىء حتى يلمحوه، ولدهشتهم رأوا البحر عن بعد، مغطى بالمراكب، وكانت أصوات الأبواق عالية وحادة، طرقت فوق أسماعهم، وكانت المراكب محملة ومزينة بالأسلحة من كل نوع، وكانت أعلامهم ورياتهم تخفق بالهواء وهي لاعدّ لها ولاحصر، وكانت مقدمات المراكب متميز أحدها عن الآخر، بمختلف ألوان الطلاء، وكانت ترستهم تلمع بالشمس، وكان بإمكانك أن ترى البحر يفور تحت المجاذيف، ثم يالألأبهة، وقف الملك الرائع على مقدمة مركب كان أعلى من البقية وأكثر زينة، وكان مرتدياً ثياباً فاخرة، وانطلق البحارة مع بقية الحاشية أمامه ليقوموا باستقباله

بالتهاني، ولكي يجلبوا الخيول، التي كان سيركبها مع أركانه، وتجمهر السكان المحليون من حوله وأحاطوا به من جميع الجهات، واختلطوا برجاله ، ولحقوا به إلى نزل ضيافته.

وتحدث عامة الناس بإعجاب عن مجده العظيم، واتفقوا على أنه كان جديراً بحكم امبراطورية، ويستحق أن يحكم أمماً وممالك: « لأن شهرته التي سمعنا عنها من قبل وضحت أنها أدنى بكثير من الحقيقة عندما رأيناه».

كيف أمضت الجيوش الشتاء في صقلية

كان موسم الملاحة قد شارف على الانتهاء، لذلك تقرر أن على الانكليز والفرنسيين تمضيه الشتاء في صقلية، حول مدينة مسينا، المليئة بالأشياء الجيدة، مع أن سكانها هم أشرار، وعرق خبيث.

كان الملك تانكرد صاحب صقلية غني جداً، في كل نوع من أنواع الثروات، وكان قد خلف منذ أمد قصير الملك وليم الثاني على العرش، وفي هذه الآونة كانت أرملة الملك المتوفى تقيم في بلرم، وكانت أختاً للملك رتشارد، ملك انكلترا، الذي تبنى قضيتها، وأرغم الملك تانكرد على أن يعطيها ما يرضيها، وذلك فوق البائنة — الدوطة — التي تستحقها وزيادة عليها.

وبقي رجال الاسطول خارج المدينة حتى وصول الملك رتشارد، وذلك بسبب صفاقة أهلها التي لاتحتمل، لأن هذا الشعب الشرير (الذي يعرف بشكل عام باسم: غريفون) (أي اغريق حسب اصطلاح الصليبيين اللاتين) كانت أكثريته من أصل اسلامي، وهؤلاء كانوا معادين لأفراد شعبنا، وكانوا دوما يوجهون الإهانة إليهم بالاشارة بأصابعهم إلى أعينهم، وتسميتهم « كلاب قذرة»، والسخرية منهم بطرق أخرى كثيرة، وقد قتلوا بعضهم على انفراد، ورموا بآخرين في مجاري القاذورات، حيث اقترفت فيما بعد جرائم كثيرة، وهددوا بطرد رجالنا من مدينتهم، لأنهم كانوا غرباء غير معادلين لهم بالعدد.

والآن عندما رأى الغريفون، أن الملكين قد نزلا إلى اليابسة ومعهما قوة عملاقة، ضبطوا رعونتهم بعض الشيء، لأنهم أدركوا أنهم أدنى في الشجاعة والمظهر، لكن اللومبارد (الناطقين بالايطالية والمرابين) لم يتوقفوا عن أعمال الاهانة والتحدي لرجالنا، واثارتهم بالشتائم والإيذاء،

وقد أثارتهم غيرتهم على زوجاتهم، اللائي كان رجالنا يتحدثون معهن، غالبا بقصد إغضاب الأزواج، وليس بنية اغوائهن، وبسبب الخصام هذا، ومن خلال الحسد، كان اللومبارد دوماً معادين لنا، يفعلون كل ما يستطيعونه لاغضابنا، وقاموا بالوقت نفسه باعلاء أسوار ودفاعات أبراجهم وبتعميق الخنادق المحيطة بهم.

وكان في أحد الأيام واحد من رجالنا يتساوم مع امرأة حول رغيف خبز جديد كانت عارضة إياه للبيع، وقد هددها بالقيام بوزن الرغيف، ولأن الرجل رفض أن يعطيها السعر الذي طلبته انفعلت المرأة، وأهانته بعبارات شريرة، وتجمع عدد كبير من أهل المدينة لدى سماعهم أصوات المرأة وصراخ شتائمها، فأمسكوا بالرجل وضربوه بلا رحمة، وبعدما نتفوا شعره، وجرحوه جراحات كثيرة، داسوا عليه بالأقدام، وتركوه ليموت.

وعندما رفعت شكوى، تقدم الملك رتشارد بالرجاء من أجل السلام والصداقة، وأكد أنه جاء بسلام ليقوم بأداء حجه، وانه لن يتوقف عن الصلاة حتى يعود كل فريق بهدوء إلى مقره.

لكن حدث في اليوم التالي أن تجدد الخلاف بين سكان المدينة والحجاج، وفيما الملكان كانا مجتمعان مع قضاة صقلية وأعيان أهل المدينة، من أجل معالجة قضايا السلام والأمن، سمع صراخ عظيم وأصوات تقول بأن سكان المدينة كانوا يقومون بذبح رجال ملك انكلترا، ولم يصغ الملك إلى هذا، لسبب أساسي هو أن اللومبارديين أكدوا له أن ما قيل ليس صحيحاً، ثم مالبث أن جاء رسول آخر، أعلن أن سكان المدينة كانوا يهاجمون الحجاج،وهنا بادر الملك وخرج مسرعاً من الاجتماع، وامتطى على ظهر حصان، وتقدم بنية ايقاف النزاع وإقامة سلام بين المتخاصمين.

وعندما وصل، كان الفريقان في حالة هياج شديد، لم يعودا يتصارعان

بالكلمات بل بالأيدي والهراوات، وبدلاً من أن يستجيب اللومبارد لجهود الملك بالفصل بين المتنازعين هاجموه بالشتائم، وبعبارات الاهانة، وقد انزعج من إهاناتهم له، فحمل سلاحه وبدأ بحصارهم في مدينتهم.

وكان الفرنسيون في الوقت نفسه لايدرون ما الذي سيفعله سيدهم، لذلك أخذوا يركضون بهذا الاتجاه وذاك بحثاً عنه، وعم الهياج في أرجاء المدينة، وحمل كل انسان ما وصل إلى يديه، وتحدثوا بتبجح أنهم سيدافعون عن أنفسهم حتى النهاية، وذهب اللومبارد إلى الملك الفرنسي وطلبوا منه العون والمساعدة، وعرضوا عليه أن يضعوا أنفسهم وأموالهم تحت تصرفه ورهن اشارته، فيما لوقام بالتفريج عن مدينتهم، ومنع الهجوم الذي يتولاه ملك انكلترا، وأن يصبحوا من رعاياه مع مدينتهم، وعلى الفور أجابهم ملك فرنسا بأنه يؤثر تقديم المساعدة إلى اللومبارد على الوقوف إلى جانب رجال ملك انكلترا.

ولدى رؤية اللومبارد أن القتال بات الآن جديا، وأنهم حوصروا بكل عزيمة، قاوموا بكل ما أوتوا من قوة، ووقفوا في أعالي الأسوار، وقذفوا من هناك الحجارة والنشاب من قسيهم، والحراب مثل زخات المطر، وبهذه الصورة تمكنوا في بداية دفاعهم الشديد من الحاق إصابات كثيرة برجالنا، فبعضهم قد قتل، وبعضهم أصيب بكدمات، ولقد جرح بعضهم بعضهم الآخر، وقطعوا أطراف كثيرين.

وكان الملك رتشارد في اليوم الثاني لوصوله قد تجول حول أسوار المدينة مع اثنتي من مرافقيه فلاحظ وجود باب خلفي مهمل من قبل سكان المدينة، ومن خلال هذا الباب، توفر الآن مدخل بوساطة القوة والإقدام الكبير والعنف، وقام الذين دخلوا بتدمير الباب، وبذلك سمحوا لبقية الجيش بالدخول إلى المدينة، ثم قاموا بذبح وأسر كل من قابلوه من سكان المدينة وقاومهم، ولقد سقط في هذا الصراع عدد منهم ومن اللومبارد وكذلك من رجالنا.

وسار رجالنا الآن خلال المدينة المقهورة كمنتصرين، يتقدمهم الملك رتشارد، الذي كان دوما هو الأول في كل هجوم، وسار خلفه حوالي عشرة آلاف رجل، وقاموا بنهب المدينة كلها. وكان بإمكانك أن تسمع هناك أصواتاً مرعبة بلغات مختلفة ومتداخلة، فمن جانب كان رجالنا يحثون بعضهم بعضاً على المطاردة، وبالمقابل كنت ترى اللومبارد الفارين يصرخون برعب من رجالنا، لأن رجالنا ضاعفوا ضرباتهم لهم، فاندفعوا أمامهم مثل سنابل قمح قوم تصدوا بهم للسيوف، وعندما اقتحمت بيوت اللومبارد، رموا بأنفسهم من الأسطحة، مدركين أنهم ببخلهم وسوء معاملتهم للضيوف استحقوا فقدان كل حق بالرحمة.

وهكذا استولى الملك رتشارد على مسينا، بضربة واحدة، وبوقت أقصر مما احتاجه كاهن لترداد ترتيلة طقوسه. وكان من الممكن سقوط المزيد من سكان المدينة، لولا انه أمر بتوفير حياتهم، وكان هذا كرماً منه، لكن الذهب والفضة وكل شيء ثمين وجدوه بات ملكاً للمنتصرين، وأحرقوا سفن الأعداء، خشية أن يفروا ويستردوا قواهم للمقاومة، وقام المنتصرون أيضاً بأخذ أعلى نسائهم مكانة، وحملوهن معهم.

ثم إنه ياللعجب، حدث بعد هذا كله، أن رأى الفرنسيون أعلام الملك رتشارد تخفق فوق أسوار المدينة، فشعر ملك فرنسا بإهانة كبرى، وحمل في قلبه كراهية للملك رتشارد استمرت طيلة حياته، وقادته فيما بعد إلى غزو نورماندي.

وبعد الاستيلاء على المدينة، أرسل ملك فرنسا، بناء على مشورة ديوانه، أوامر إلى الملك رتشارد لينزل أعلامه، واستبدالها بأعلام فرنسية، وذلك اعترافاً منه بتفوقه وسيادته(*) ، وغضب الملك رتشارد من هذا

*— كان من أسباب الخلاف بين الرجلين، أن ملك انكلترا بحكم أملاكه في فرنسا، عدّ واحداً من أتباع الملك الفرنسي، غير أن رتشارد عدّ نفسه مساوياً للملك الفرنسي، يضاف إلى هذا ما تقدمت روايته حول خرق رتشارد للاتفاق مع الملك الفرنسي بالزواج من أخته أليس، وزواجه بدلاً عنها من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس ملك نافار، وتقدمت تفاصيل ذلك في المجلد المتقدم.

الطلب، ولم يبعث لـه بجواب، خشية أن يُرى أنـه يتخلى عن حقه، لكن تمّ مـن خلال جهود الـوسطاء اطفاء غضـب الملك رتشارد، ووضـع حد لهذا الخصـام، واستجاب لتهـدئة الأصـدقـاء له، واستجـاب إلى مطلـب ملـك فرنسـا في أن يتخلى عن حـراسـة الأبراج التـي استولى عليهـا، وأن يوضـع فيها حراس مـن كلتا الأمتين، وذلـك حتى يعلمان مشاعـر الملك تانكرد تجاه ما حصل، ولذلك تمّ رفع أعلامهما معا فوق أسوار مسينا.

وبعد اجتماع عام، تقرر وجوب ارسال رسـل من قبل الملك رتشارد إلى تانكـرد بغية طلـب تعويضـات عن الأضرار البـالغة التـي لحقت بشعبـه نتيجة الاضطرابـات، وأن يعطي الملكة الأرملة جـوانا «بائنة» تـرضيها مع حصتها من أموال الملك التي آلت إليها والتي هي حق لها.

وأثـار الملـك الفـرنسي في الـوقت نفسـه مشكلـة حـول نهب المدينـة، وطالـب بحصته، ولأن الملـك رتشارد رفـض بحنق طلبـه، لم يتوقـف عن إزعاجه وإثارتـه بمثيرات خبيثة ومنغصات مزعجة، وبناء عليـه قرر الملك رتشارد رفـض صداقته، وأمر سفنـه أن تكون مستعدة للمغادرة مـع جميع أثقالها، فهو قد آثر السير وحده مع رجاله فقط لانجاز حجة على أن تكون له أدنى معاملة مع رجل حسود، وعنـدما وصلت معلومات هذا الأمر إلى مسامع ملك فرنسـا، قبل بوساطة جهود الوسطاء بـاعادة تجديد الصداقة المقطوعـة، وأن يعود تعـايشهما كما كان مـن قبل، على شرط اقتسـام كل شيء بالتساوي سيتم الحصول عليه من الآن فصاعداً.

وبحث الـرسل الذيـن توجهوا إلى الملـك تانكـرد معه تقديـراته وآرائه بالقضايا المثارة معـه، فأجاب باجابات غامضة، وأكـد أنه سيتولى ارضاء الملكين وفقاً لمشورة نبـلاء البلاد، في الوقت المنـاسب، وفي المكان الموائم، وبالطريقة التي تخص الموضوعات بشكل محدد، وقيل بأن ملك فرنسا قد حث الملك تانكرد بوساطة رسالة بعثها إليه، على عدم الاستجابة لمطالب ملك انكلترا، بـل أن يظهر صلابة في الموقـف وفي الدفاع عن حقـوقه في

كل شيء، وأكد لـه أن ملك فرنسا سوف لن يشـارك الملك رتشارد في أي عمل يقوم به ضده، بل إنه سيكون مخلصاً وفياً لتانكرد.

وأعاد هذا الخصـام الشجاعة إلى السكان المحليين، فبعـد ما أثيروا من قبل ملـك فرنسـا، بذلـوا غايـة جهودهـم لإيذاء الملـك رتشارد ورجـاله بالقدر الممكن لهم: لقد منعوا تزويد المؤن لهذا الجيش الكبير، وأمروا بعدم عـرض أي شيء للبيـع، واستهـدفوا مـن وراء ذلـك إرغـام الانكليـز على إخضاع أنفسهم لسلطان السكان المحليين.

وبذل الملك رتشارد جهوداً كبيرة، ويقظة ونشاطاً في سبيل إنشاء قلعة أطلـق عليهـا اسـم « ميتغـريفـون Maetgriffon: «*» ، وارتعـب الغريفـون كثيراً، لأنهم رأوا أنها صممت مـن أجل تـدميرهم، وقـد شيد البناء على رابية محاذية للمدينة، وكـان موائماً كثيراً للتقهقر والتراجع، وكان الجيش سيعاني كثيراً من نقص بالمؤن، لـولا أنه استخدم المؤن التي جلبها بالاسطول كاحتياطي ضد العوز المستقبلي.

وهكذا تأرجحت الأمـور، ثم إن الملك تانكرد اقتنع بـأن الملك رتشارد لـن يتوقـف حتى يحصـل على ما رغـب بـه، فأرسـل رسلاً عـرضوا عليـه السلام، وسـألوا باستعطـاف المصالحة، وتـم الاتفاق على شروط الصلح، وبـذلك ختمـت القضية، ثـم كـان أن صدرت فتـوى عن وولتر رئيـس أساقفة روان Rouen ، قضت أن كـل من لايعيد جميع مـا نهب من ذهب ومن الفضة سيكون خاضعاً للحرمان واللعنة.

---

* — معنى هذه « صد الغريفون»، وكانت هذه القلعـة مصنعة من ألواح من الخشب كانت جاهزة، تمّ تثبيتهـا داخل اطارات جاهزة بوسـاطة المسامير، ودعمت من الخلف بـدعائم، وعندما غادر رتشارد مسينا، فكها وأخذها معه حيث أقيمت حول عكا من الخارج.

وهكذا جرى استرداد كل شيء، وبذلك بدا ظاهرياً أن السلام قد توطد، وعبر سكان المدينة عن سرورهم لسلامتهم، والحجاج لحصولهم على الهدوء، وجددت الصداقة بين الملكين، لكن التنافس الذي كان قائماً بينهما استمر.

واحتفل بعيد الميلاد بوقار خاص، لتوفر الحاجة أكثر من ذي قبل لانقاذ الجنس البشري، وقام الملك رتشارد، على شرف هذا العيد، بتوجيه الدعوة إلى ملك فرنسا لحضور مائدته، وتوجه بالدعوة بوساطة المنادي العام إلى كل ذي روح بأن يمضي العيد بفرح وسرور، واستجابة لهذه الدعوة اللطيفة جاء ملك فرنسا مع مجموعات كبيرة من النبلاء وحشد من الناس الآخرين.

وتمّ استقبالهم بترحاب كبير وتكريم في قلعة ميتغريفون، وجلس كل واحد هناك وفقاً لمرتبته : من كان بإمكانه إحصاء الصحون المختلفة، وأنواع الكؤوس، أو حشود الخدم أو الملابس والمظاهر الرائعة؟ وما من شيء كان هناك لم يكن ثميناً له قيمته وهو موائم، فلقد كانت الصحون على اختلاف أحجامها من الذهب أو من الفضة، وكانت الأوعية مصنوعة وعليها أشكال رجال أو حيوانات وضعت على الحواف أو الأطراف، ورصعت بأحجار كريمة، زد على هذا كانت هناك وسائل سارة ظهرت للجميع مما أضفى بهجة على العيد، وتمتع الضيوف برؤية عروض سارة وأعمال مبهجة، وذلك بالاضافة لأنواع اللحوم والأشربة وزيادة عليها.

ولدى انتهاء الاحتفال، وضع الملك رتشارد أمام ملك فرنسا أجمل الأقداح وأعطاه خيار الإنتقاء منها على شرف المناسبة، ثم قدم لكل واحد من النبلاء هدية تبعاً لمرتبته، لأنه مثله مثل تيتوس (الامبراطور الروماني ٧٩ — ٨١م) عدّ اليوم الذي حدث ولم يعط به شيئاً يوماً خاسراً.

كيف غادروا نحو الأراضي المقدسة

في السنة١١٩١ لتجسيد مولانا ، ولدى انتهاء أشهر الزوابع من فصل الشتاء الكسول ، وحلول الأيام المشرقة ، امتلأ الناس بهجة بعودة موسم الإبحار والملاحة ، لأن الملكان أقاما في مسينا من عيد القديس ميكائيل حتى أيام الصوم ، ثم عقدا اجتماعاً حول نقل رجالهما، وارتأيا عدم مواءمة التأخر أكثر، بسبب توفر المناخ الجيد، وبسبب أن وسائلهما سوف تحبط وتتلاشى بلا فائدة في إضاعة الوقت بلا عمل، ولأن رفاقهم في عكا كانوا يعانون وفي أمس الحاجة إليهم.

وبينما كل واحد يعد العدة ليتابع رحلته، وصل رسل حملوا أخباراً إلى الملك رتشارد أن أمه اليانور تخف الخطى وهي مسرعة للحاق به، وحيث أنها كادت أن تنهي رحلتها، فقد بات وصولها وشيكاً، وكانت جالبة معها النبيلة بيرنغاريا، المعدّة لتكون زوجة له، وكان منذ وقت مضى، حينما كان كونتا لبواتو سحره حسنها وأبهتها ، وسمو مكانتها وأصالتها، وجاذبية أنوثتها، فشعر بعاطفة قوية نحوها، وبناء عليه، أودعها أبوها ملك نافار إلى أم رتشارد لتتولى العناية بها، ولتحملها إليه، بغية أن يتمكن من الزواج منها، قبل عبوره البحر، حسبما كان ناوياً، ولقد ابتهج الجميع بقدومها.

وكان في الوقت نفسه ، قد أكمل ملك فرنسا إعداد جميع تجهيزاته ، فاغتنم فرصة توفر الريح الطيبة ،فأقلع ومعه اسطوله في يوم السبت بعد يوم عيد بشارة مريم العذراء المباركة ، وقد شيعه الملك رتشارد وهو على ظهر مراكبه ومعه أعيان نبلائه لبعض الطريق ، ثم عاد لأنه لم يكن شخصياً قد تهيأ بعد لعبور البحر، حيث لم يكمل جمع سفن شحنه ، ورأى أن هذه لم تتجهز بجميع المؤن المحتاجة ، زد على هذا كان قد

سمع بأن أمه قادمة ومعها بيرنغاريا الرائعة، ولهذا عندما ترك ملك فرنسا يمضي في طريق رحلته بسلام رجع بوساطة طريق الفاروس إلى ريغيو دي كالابيرا، حيث سمع بوجود أمه الملكة وبيرنغاريا فيها ، وبعدما تلقاهما على ظهر سفينته بسرور عظيم، عاد إلى مسينا، حيث بقي هناك لوقت قصير، أسند وقتها إلى أمه شؤون العناية بالمملكة ، وتركها تغادر برفقة وولتر، رئيس أساقفة روان، وكان شخصاً عظيم الفضائل.

وأبقى الملك رتشارد معه الفتاة التي كان سيتزوج منها ، وبعدما جهز نفسه بكل شيء كان ضرورياً للرحلة، استعد تبعاً للاتفاقات ، للحاق بملك فرنسا بقدر ماهو ممكن من السرعة، وقد عين روبرت دي تورنهام ليقود الأسطول وليتولى العناية به، وبعث بزوجته مع أخته الملكة الأرملة لصقلية، ليرحلا قبله عبر طريق مباشر نحو الشرق، وذلك على ظهر إحدى السفن التي تدعى عادة باسم «درمون» ، ووضع بالسفينة عدداً من الفرسان ، مع حشد كبير من خدم الحاشية، في سبيل تأمين راحتيهما وسلامتيهما.

وبقيت المراكب بلا حراك، حتى أقام الملك وليمة، احتفل بها بوداع السكان المحليين ، وبات الآن جاهزاً للانطلاق وإيكال نفسه للرياح الطيبة ولأمواج البحر، ثم أقلعت جميع السفن المحشودة، وصارت على وجه البحر، تدفعها أعداد هائلة من المجذفين ، ويحق لمدينة مسينا أن تفتخر بكل حق ، بأنه لم يحدث في القرون الماضية أن رأت تلك السواحل أسطولاً بهذه العظمة، ولن ترى مثيلاً له في العصور المقبلة.

وهكذا دخل الملك رتشارد مع سفنه الكثيرة عرض البحر، وكان بعضها يُوجه بالأشرعة ، وبعضها الآخر بالمجاذيف ، وبقيت السفن الحربية بالخلف ، فهذا ما خطط له الملك رتشارد ، وخطط أن تبقى السفن قريبة من بعضها بعضاً بقدر الإمكان ولا تفترق، وخففت الغلايين من سرعتها عن قصد ، ولازمت البقاء على مسافة من سفن

الحمولة بهدف حمايتها.

وتوقفت حركة الريح، لهذا أرغم الأسطول على البقاء راسياً بلا حركة بين كالبيرا وجبل إتنا، غير أنه في اليوم التالي (يوم عشاء الرب) قام الذي أوقف حركة الرياح، بإرسال الرياح من خزائنه، لقد بعث إلينا بريح استمرت طوال اليوم، حيث لم تكن قوية جداً، بل كافية لدفع الأسطول لأن يسير بسرعة لطيفة، لكن في الليلة التالية اختفت الرياح تماماً.

وفي يوم الجمعة المقدسة ساقت رياح معاكسة الأسطول إلى الخلف وهاج البحر (لأنه أثير بذلك كثيراً) وفار من أعماقه، وبينما تلاطمت الأمواج ازدادت قوة العاصفة ، وكانت أصوات زئير الأمواج المتلاطمة، وأنين السفن التي كانت تواجه الرياح العنيفة العاتية، قد أصابت الجميع برعب عظيم، ولعتو الرياح ، باتت إدارة السفن وقيادتها عاجزة كلياً، لأنه لم يعد بإمكان أي قبطان تحريك سفينته، وحُملت السفن بهذا الاتجاه وذاك، ففقدت نظامها، وذهبت كل سفينة باتجاه مخالف.

ويئس البحارة من الحصول على عون أرضي، لذلك سلموا أمرهم إلى الرب، وقرروا، بقدر ما سمح به الضعف الإنساني ، أن يتحملوا الأمور بصبر، تحت ناظري مخلصنا، الذي عانى في ذلك اليوم من موت لا يستحقه، وذلك من أجل خلاصنا،وفيما السفن تتقاذفها الأمواج في هذا الاتجاه وفي ذاك، وتمضي بها باتجاهات مختلفة، بدأت بطون الرجال تشعر بآلام الغثيان، وأصيبوا بدوارات بحر عنيفة، وجعلهم الشعور بالغثيان أشبه بالمجانين تجاه المخاطر التي أحاقت بهم، ولكن مع اقتراب المساء غدت الأحوال هادئة إلى حد بعيد، وتوقفت الرياح المجنونة مع الأمواج الصاخبة.

وانتشرت الآن ريح طيبة توافق رغباتنا، واسترد البحارة قواهم وثقتهم، وبذلنا جهودنا للمحافظة على الطريق المباشر لرحلتنا.

وبقي الملك رتشارد هادئاً، وسط هذه الحالة من الفوضى، ولم يتوقف عن تهدئة ومواساة الذين كانوا يائسين، حاثاً إياهم على التشجع، والأمل بحظ أفضل، وحسبما جرت العادة كان لديه ضوء شمعي داخل مصباح، علقه عالياً في سفينته ليعطي الضوء لبقية الأسطول، وليوجههم على طريقهم، وكان معه على ظهر سفينته أكثر البحارة خبرة، وقد بذل هؤلاء كل جهد يستطيع الإنسان أن يقوم به، واستخدموا كل حيلة لمواجهة الرياح الغاضبة، وبقي الملك واقفاً لبعض الوقت بهدف جمع الأسطول، الذي تقاطرت سفنه للتجمع حول الضوء، وهذا شابه دجاجة تولت جمع صيصانها معاً.

وبدأنا بعد هذا بريح طيبة، وأبحرنا باستمرار دون أن نواجه عقبة أو نعاني من أذى، وذلك يوم سبت فصح اليهود حتى يوم الأربعاء التالي، واقتربنا في هذا اليوم من كريت حيث توقف الملك للراحة، وعندما اجتمعت السفن معاً، تبين فقدان خمس وعشرين منها، الأمر الذي سبب حزناً كبيراً للملك.

وفي يوم الخميس عاود الملك وجيشه كله الدخول إلى سفنهم، حيث بدأت الريح تصبح أشد قوة، ومع أنها ظلت موائمة، كانت قوية في دفعنا نحو الأمام، لذلك تحركنا بسرعة بوساطة أشرعة منتفخة، وسواري منحنية بعض الشيء، ليس بدون شبه لطيور طائرة، ولم تهدأ أبداً طوال الليل، وساقت عند فجر النهار اسطولنا بعنف نحو جزيرة رودس، حيث انتشرت الأمواج والزبد على طول الشاطىء، وهكذا لم نكن قادرين على الوصول إلى الميناء، وعلى كل حال عندما تمكنا في يوم الاثنين التالي من الرسو، تمتعنا براحتنا بشكل جيد لأننا كنا بحاجة إليها تماماً.

وكانت رودس في العصور القديمة مدينة كبيرة ، لا تختلف عن روما، وهناك بقايا الكثير من البيوت، وأجزاء عديدة من الأبراج ساقطة، لكن بقاياها ما تزال قائمة، وآثار رائعة لأبنية وأسوار عمرانها جدير

بالإعجاب، ومن الصعب تقدير امتدادها، كما ما يزال هناك أيضاً بقايا قلة من الأديرة الكثيرة، لأن معظم الأجزاء كانت مهجورة ، مع أنها كانت فيما مضى مسكونة بأعداد كبيرة من جماعات الرهبان، وقدم منظر مدينة عظيمة بهذا القدر (مع أنها الآن مبددة) شواهد وبراهين على وجود عدد كبير من السكان، لكن توفر الآن عدد قليل من السكان ممن كانوا بإمكانهم بيعنا الطعام، وبما أن الملك كان متعباً، فقد استراح هناك لبضعة أيام قليلة، انتظر خلالها وصول السفن التي أضلت سبيلها، وشردت عنا، وانتظر أيضاً وصول الغلايين التي سارت تابعة للأسطول، وقام أيضاً بالتقصي حول اسحق، الطاغية الوحشي، امبراطور قبرص، الذي اعتاد على حبس الحجاج الذين كانوا يرسون في مينائه.

وبعدما أمضينا عشرة أيام في رودس التي كانت جزيرة خصبة جداً، ومنتجة، صعدنا ثانية إلى ظهور سفننا، وتابعنا سفرنا، وكان ذلك في الأول من أيار، وحملتنا سفننا ونحن في طريقنا إلى أعظم الأماكن خطورة، الذي يعرف باسم خليج أضاليا، حيث تتصارع تيارات عنيفة جداً تشكل وصلة بين أربعة بحار، وتصطدم مع بعضها بعنف شديد، وكل منها يندفع ضد الآخر ويقاومه، وعندما كنا على حافة الدخول إليه، عندها يا للعجب، حملنا تيار عائدين إلى المكان الذي شرعنا منه، وكأنه أراد سلامتنا، لكن قامت الرياح، التي تهب دوماً في تلك الأجزاء وتتغير، بعد وقت قصير بدفعنا عائدين ثانية إلى الخليج، وصاحب ذلك خطر ازداد لازدياد عنف الرياح، وخشية منا من نتائج هياج الريح، فعلنا كل ما نستطيعه لحماية أنفسنا ضد مخاطر المكان، وعبرنا فوق الأمواج الهائجة التي كانت ترغو وتزبد من حولنا.

وكانت السفينة الملكية تسير دوماً بالأمام، وعندما رفع الملك ناظريه، رأى تحت السماء الهادئة سفينة كبيرة جداً من النوع الذي يعرف باسم

بصّ *Buss، وكانت متجهة نحونا، وعائدة من مملكة القدس، وبادر الملك مسرعاً فبعث ببعض الرجال ليحصلوا من الرجال الذين كانوا على ظهر السفينة على معلومات فيما يتعلق بحصار عكا، فأخبروه بأن ملك فرنسا وصل سالماً إلى عكا يوم السبت في أسبوع الفصح، وانشغل بنشاط في صنع آلات حربية، وذلك بانتظار وصول ملك انكلترا، وعندما سمع الملك رتشارد هذا، تابعت البصّ طريقها، وقام هو بصنع جميع الاستعدادات بروح معنوية عالية، ولم تكن الرياح طيبة، ولقد بذل غاية جهوده للسيطرة على تقلباتها، لكن الأسطول أرغم بهبات الريح المتضادة، والأمواج الصاعدة والهابطة، على العودة، وسيق إلى وسط عرض البحر.

وكان في الوقت نفسه قد وصل الغليون [الدرمون] الذي أبحر من ليون مع الملكتين إلى ميناء ليباسول، في جزيرة قبرص، لكن عوضاً عن النزول إلى البر، ألقى مراسيه على مسافة داخل البحر،واعتادت مملكة القدس أن تحصل من هذه الجزيرة سنوياً على مرابح كبيرة، لكن الآن بعد رفعها لنير الخضوع، تمنعت عن تقديم أي شيء، وذلك بتوجيه من طاغيتها اسحق، الذي اغتصب السلطة الامبراطورية، وكان من أكثر الناس سوءاً وشروراً، وقد تفوق على يهوذا بالخيانة، وعلى جدعون في التآمر، وقد أراد فقط تعذيب الذي اعتنقوا الديانة المسيحية، وقد قيل بأنه كان صديقاً لصلاح الدين، وقد حكي أنهما شربا دماء أحدهما الآخر كعلامة شاهدة على عهدهما المتبادل، فبمزج دمهما ظاهرياً قد يصبحان أقرباء حقيقة، وقد تأكد هذا فيما بعد ببعض البراهين، فبعدما اطمئن

---

* — bucca أو buzzos — وهي سفينة تجارية من سفن البنادقة، ذات تجويف كبير، وقدرة على التخزين، وقد استخدمت بمثابة سفن خزن وحمولة، وأطلق الصليبيون على مثل هذه أحياناً اسم «درمون» أو «بص» دونما تمييز، وكثيراً ما أرادوا بذلك السفن الكبيرة، مع أن هذا النوع كان متميزاً عن سواه.

هذا الطاغية بهذه الخطوة، وبعدما ألغى خضوعه المتوجب عليه، اغتصب السلطة وادعى زيفاً اسم الامبراطور، واعتاد على إلقاء القبض على كل واحد نزل إلى الجزيرة طوعاً، أو لأن الرياح قذفته بقوتها إليها، وكان يستخرج من الغني فدية، ويرغم الفقير على العبودية، وبناء عليه عندما سمع خبر وصول درمون غريب، قرر إلقاء القبض على جميع من كان على ظهر السفينة، وأن يقوم بسلبهم جميع أموالهم، والاحتفاظ بهم أسرى لديه.

obeikandl.com

- ٨٣٨ -

حول الملك رتشارد في قبرص

في عشية اليوم السالف لعيد القديس مرقص الرسول، وقبل غياب الشمس بوقت قصير، غطت غمامة داكنة الأفق، وهبت عاصفة عاتية، وحرك عنف الريح المياه، وبينما كانت بعض سفننا التي بعثرتها الرياح تحاول الوصول إلى جزيرة قبرص قبل اشتداد العاصفة، دفعت بها الأمواج المضادة والريح إلى الصخور، ومع أن الملاحين بذلوا غاية جهودهم لمقاومة الريح التي هاجمتهم، فإن ثلاثة من سفن الملك امتلأت بالماء، وتحطمت إلى قطع، وغرق بعض الذين كانوا على ظهرها، وواتى الحظ بعضهم الآخر، حيث أمسك كل منهم بقطعة من حطام سفينة، واستطاعوا (لكن ليس بدون بذل جهود كبيرة وسط البحر الهائج) بهذه الوسيلة الوصول إلى الشاطىء، وقد وجدوا أنفسهم عراة مفلسين، وكان بين الذين غرقوا روجر الذي كنيته كاتولوس Catulus ، وكان يحمل خاتم الملك، وضاع الخاتم، لكن عندما قذف تيار البحر بالجسد إلى الشاطىء، وجد أحد الناس الخاتم معه، فجلبه إلى الجيش ليبيعه، وبذلك تمّ انقاذه.

ورحب سكان الجزيرة بسرور، تحت شعار غطاء السلام ،بالبحارة الذين وصلوا إلى الشاطىء، وتظاهروا أنهم يريدون تأمينهم فقادوهم إلى أحد الحصون بالجوار، وقام الغريفون بتجريد جميع الذين وصلوا إلى الشاطىء سالمين من أسلحتهم، وقادوهم إلى المكان نفسه، وكانوا يؤكدون لهم أنهم إذا دخلوا الحصن وهم يحملون أسلحتهم فسيبدون وكأنهم جواسيس، أولديهم نوايا عدوانية بمهاجمة الجزيرة، وأن عليهم الانتظار حتى يحصلوا على ثقة الملك وإرادته.

وكان النبلاء منا قلقين بشأن أحوال الرجال الذين وضعوا رهن

الاحتجاز، فبعثوا إليهم بالملابس وبالأشياء الأخرى الضرورية لهم، وبعث إليهم ستيفن دي تورنهام وكان حاجب الملك وخازنه، بكميات كبيرة من المؤن، التي (عندما جلبت إلى مدخل الحصن) نهبت من قبل الغريفون، وحراس المدينة، وعلى كل حال قاموا بتهدئة رجالنا ومواساتهم بكلمات ناعمة، ولم يظهروا بعد نحوهم عداوتهم بشكل مكشوف، غير أنهم رفضوا إطلاق سراحهم ومنحهم حرياتهم حتى يتم إخبار الامبراطور بما حدث، ووعدوا بالوقت نفسه بكلمات منمقة أن يزودوهم بكل شيء ضروري، ثم إنهم وجهوا الدعوة إلى نبلاء البلاد، وعقدوا مشاورات معهم في سبيل إلقاء القبض على أكبر عدد من الحجاج بمختلف الأساليب الخادعة، ومن ثم يتولون قتلهم.

وعندما بات هذا معروفاً لدى رجالنا، حشدوا أنفسهم وتجمعوا داخل الحصن وعزموا على الدفاع عن أنفسهم، غير أن بعضهم قتل من قبل السكان المحليين،وهكذا قدروا المخاطر حق قدرها، وأنهم فعلاً معرضون لها، ولذلك اختاروا مواجهة المخاطر في القتال على أن يموتوا جوعاً بعد وقوعهم في أيدي الكفار الذين يتولون تعذيب المسيحيين، وبناء عليه تقدموا من خارج الحصن حتى وصلوا إلى أحد السهول، وبدأ السكان المحليون بحصارهم وقتلهم، ومع أنهم كانوا غير مسلحين، ولا يحملون سوى ثلاثة أقواس كانوا قد أخفوها عن السكان المحليين، فقد قاوموا بقدر ما استطاعوا، وأوقعوا في صفوف أعدائهم عدداً من القتلى لم يكونوا أقل من العدد الذي فقدوه.

وكان بينهم روجر دي هاردكيرت Hardecurt وقد صدف أن وجد فرساً هناك فركبه وهاجم حشود الذين تصدوا له، وكان كذلك وليم دي بويس Bois(وهو نورماندي كان من أبرع الناس بالرمي) الذي تمكن أولاً من تفريق مجموعة ثم فرّق مجموعة أخرى، بوساطة رميهم بالنشاب والسهام نحوهم بدون توقف، ورآهم الجنود الذي كانوا ما يزالون على

ظهور السفن، فبادروا مسرعين لنجدتهم وتخليصهم بقوة السلاح، ومع أن الغريفون أعاقوهم بنشابهم وقسيهم بقدر ما استطاعوا، ومنعوهم من النزول إلى البر، لقد نجحوا أخيراً، تحت حماية الرب، بالنزول من سفنهم.

وبعدما تفرق الغريفون، ودفعوا نحو الخلف، شق الحجاج طريقهم إلى الميناء، حيث وجدوا هناك رجالنا الذين نزلوا من سفنهم يقاتلون بكل طاقتهم ضد الغريفون الذين واجهوهم، ولدى تمكن رجالنا من الاتصال ببعضهم فرقوا الغريفون، واستولوا على ميناء ليباسول، حيث وجدوا الملكتين، اللتان لجهلهما بأوضاع الجزيرة، وخشية منهما من وحشية الامبراطور وخيانته بقيتا بالسفينة ولم تنزلا إلى اليابسة، وقرابة مساء ذلك اليوم وصلت أخبار ما حدث إلى امبراطور قبرص، ولدى اطلاعه على أن الحجاج وصلوا ، جاء إلى المدينة، وعندما شكا إليه الحجاج ما لحقهم من أذى ومضار، وعدهم بكل ما يرضيهم، ووافق على أن يعيد إليهم الأموال التي أخذت من الرجال الذين تحطمت سفنهم، وحصلوا على حق الدخول إلى مدينة ليباسول والخروج منها، بشرط تبادل أربعة رجال بمثابة رهائن.

وفي الوقت نفسه، أعطى الامبراطور الأوامر، بحشد جميع المقاتلين في امبراطوريته، وهكذا شكل جيشاً قوياً، وأرسل في اليوم الذي وصل فيه رسالة تغرير إلى الملكتين، يطلب منهما النزول إلى اليابسة لأنها أكثر أماناً، وأن تتجولا حسبما ترغبان دون خوف من أذى أو إساءة معاملة من قبل شعبه، ولدى رفضهما بعث إليهما في اليوم التالي، على سبيل التكريم بخبز، ولحم كبش، وخمرة، من عصير عنب قبرص، التي قال لا مثيل لها بمزاياها في جميع أنحاء العالم، وحاول في اليوم الثالث مرة ثانية أن يخدعهما، وأن يأسرهما زيفاً بكلمات لطيفة في رسالة منمقة، وضعتهما في حالة من الإرباك عظيمة، فإذا ما أصغيتا إليه ربما سيجعلهما أسيرتين لديه، وإذا ما رفضتا بعناد لا بد من أن يخشين من التعرض لبعض

العنف، وكان الحال غير معروف بعد الوقت المتوقع فيه وصول الملك، أوالحالة الجيدة لأسطوله، ولقد تركتا الامبراطور في وضع غير مؤكد بإجابته إجابة مبهمة، وقالتا إنهما في الغد ستمثلان بحضرته وستكونان تحت تصرفه، ولتوقع الامبراطور قيامهما بتنفيذ ما وعدتا به لازم الهدوء.

وحدث فجأة في اليوم التالي أنه بينما كانت الملكتان في وضع مضطرب كثيراً، وواقعتان تحت تأثير قلق عظيم، وكانتا تتناقشان وتتحادثان وتقلبان أوجه الأمور،بينما هكذا كان الحال ، فجأة ظهر بالأفق البعيد مركبان وكأنهما غرابان فوق ذرى الأمواج المتحركة، وكانا يتحركان نحو الأمام، ويسيران نحوهما بسرعة كبيرة ، وفيما الملكتان ومن معهما في شك حول ما كانا، لمحت بعض المراكب الأخرى قادمة من بعيد، وإثر هذا كان ممكناً رؤية بقية الأسطول، وكله قادم بسرعة يؤم الميناء، ولدى معرفتها أنه كان أسطول الملك، فرحتا فرحاً عظيماً، وقدرتا أنه جاء في الوقت المناسب لإنقاذهما من الوضع السيء والمحرج الذي عاشتا به.

ووصل الملك رتشارد، بعد تجاوزه لعدد كبير من المخاطر، تقوده عناية الرب وتوجهه إلى ميناء قبرص، وفي يوم عيد القديس جون أمام البوابة اللاتينية (٦ـ أيار) ألقى مراسيه في ميناء ليماسول ومعه جميع أسطوله، غير أنه لم ينزل إلى اليابسة.

وعندما علم الملك بالمخاطر التي أحاقت برجال السفن المحطمة، وكيف أنهم سلبوا من مقتنياتهم، وذلك مع جميع ما حدث في تلك الآونة، غضب غضباً شديداً، وبعث في اليوم التالي باثنين من فرسانه إلى الامبراطور يطلب تعويضه بما يرضيه بشكل سلمي، وذلك عن الأذى الذي لقيه وعن المال الذي قام بسلبه [من رجاله]، وكان الامبراطور غاضباً غضباً شديداً تجاه هذه المطالب، ورأى أنه هو الذي لحقه الأذى وأنه هو الإنسان المصاب، ولهذا انفجر يتفوه ويقذف بكلمات شتائم وإساءة قائلاً: «عاهر، مأفون»، وأعلن أنه لا شأن له بالملك، وتبجح

بحمله لقب امبراطور، وأنه يمتلك السلطات الامبراطورية، وأنه واثق من تأييد السماء له، وأنه عمل فقط بما يرضيه.

وعندما عاد الرسولان يحملان هذا الجواب، انزعج الملك بسبب رعونه الامبراطور، وبسبب جوابه المهين، وكان فقدانه لرجاله له تأثيره الكبير، ولهذا صرخ بصوت مرتفع:«إلى السلاح»، وهو أمرٌ أطاعه رجاله على الفور، وبعدما سلح الملك نفسه تماماً، اعتلى ظهر مركب من النوع الذي يدعى «أفعى»، وكذلك فعل جنوده، وذلك في محاولة منه للاستيلاء على الميناء، وكان الامبراطور قد قام بإغلاق الميناء حتى يمنعه، فطوقه بجيش كبير، وأغلق المدخل بكل نوع توفر له من وسائل الحجز والإعاقة، حيث اقتلع الأبواب والنوافذ من البيوت،وجلب حطام الأشياء، وركام كل شيء وجده، والمقاعد والسلالم مع قطع طويلة منَ الخشب، جعلها على شكل عوارض مصلبة، وجاء كذلك بالدروع والترسة، وبالمراكب القديمة، والأوعية المهجورة والتي كانت قذرة لإهمالها ورميها جانباً، وجاء أيضاً بكل أداة مهما كانت، وبكلمة موجزة، قام الغريفون بهدف التصدي للهجوم على الميناء بوضع ركام كل شيء توفر لهم من خشب أو حجارة، وأمكن لهم العثور عليه في مدينة ليباسول، زد على هذا قام الامبراطور معه قواته بالزحف صعوداً ونزولاً على طول الشاطىء.

ولكم كان حشد الامبراطور مسلحاً بشكل رائع، فقد حملوا أسلحة غالية الثمن، لا بل ثمينة جداً، وارتدوا أردية ذات ألوان كثيرة، وركبوا خيول حرب تسابق الريح، وعلى بغال جميلة، وزحفوا إلى الأمام وإلى الخلف جاهزين للقتال، وكانت أعلامهم ورياتهم التي لا تعد ولا تحصى ترفرف بالهواء، وكان لديهم أيضاً بعض العرادات والقسي وخمسة مراكب جيدة التسليح وقفت مع الشاطىء، وكانت مملوءة بشباب بارعين في القتال البحري، ولدى محاولة رجالنا جاهدين الوصول إلى الشاطىء، حاول الغريفون قتالهم بصرخات مرعبة، وكانوا أشبه بكلاب

تنبح وتزمجر، وشتموهم وكأنهم ممن حلت عليهم اللعنة، وأخبروهم أنهم يسعون وراء ما هو محال انجازه.

وبدت عساكرنا وكأنها أدنى من الأعداء، لأنهم كانوا مكشوفين داخل مراكب صغيرة،كما وكانوا أيضاً منهكين نتيجة متاعب ركوب البحر لمدة طويلة، فضلاً عن هذا لقد كانوا رجّالة يحملون أسلحتهم الفردية فقط، وعلى عكسهم كان السكان المحليون، فقد كانوا في بلادهم، وبإمكانهم فعل كل شيء حسبما يرغبون، ولذلك عندما اقترب رجالنا في مراكبهم، قرروا الاقتراب بقدر الإمكان ليهزموا رماة العرادات والمقاليع والنشاب الموجودين داخل المراكب، وهكذا توجهت رمايات عراداتنا ونشابنا ضدهم، وبعدما فقد الغريفون كثيراً من رجالهم، تخلوا عن مواقفهم، لأنه لم يعد بإمكانهم تحمل ثقل المعركة.

فعندما تطايرت الرمايات بكثافة، قام في وقت واحد ثلاثة أو أربعة من الغريفون بالقفز من المراكب إلى البحر، وغطسوا تحت البحر، وهلكوا بسبب اصطدام أحدهم بالاخر لدى محاولتهم الحصول على منجاة ّ الآن الاستيلاء على المراكب، وباتت مراكبنا على الشاطىء، وتشجع رماتنا بسبب النجاح الذي تحقق، فأرسلوا بزخات من النشاب مثل الأمطار ضد الذين كانوا يحرسون مكان الرسو، ولم يستطع الغريفون مواجهة الحملة، فتراجعوا من الشاطىء إلى أرض أكثر ثباتاً، وفي أثناء ذلك تابع رماتنا ورماتهم قذف بعضهم بعضاً، وهكذا أظلم الجو من زخات النشاب، وبدا النهار وقد تحول إلى ظلام وليل، وفي هذا الوقت اكتظت المدينة بالعساكر، وامتلأت المناطق المجاورة بحشود من الناس يعدون آلاتهم الحربية ويستخدمونها.

ومضى وقت طويل والنصر معلق بين الطرفين، فالشك ظل قائماً حول أي الفريقين هو المنتصر، وأيهما كان المتفوق، ذلك أن قواتنا، مع أنها بذلت غاية جهدها وقاتلت بكل قواها،لم تحقق تقدماً يذكر، ولاحظ

الملك أن رجاله لم يكونوا يمتلكون ما يكفي من جرأة ليغادروا مراكبهم، وليسيروا نحو الساحل، ولهذا قفز أول الناس من مركبه إلى الماء وقاتل الغريفون بإقدام، ثم حذا جندنا حذوه، وكانوا متشوقين لإلحاق الهزيمة بالأعداء، فقاموا بالضغط على قوات العدو، وأرغموها على ترك مواقعها والتراجع.

ووقتها كان بإمكانك رؤية زخات من النشاب المتطاير، وصفوف الغريفون وقد تمزقت، وكان بقدرتك سماع دمدمة القراع والنزال، وأنين الذين كانوا يموتون، وعويل الذين كانوا يتراجعون، ثم تحرك رجالنا كتلة واحدة، فأرغموا الأعداءعلى الهزيمة والتخبط بالفوضى، وبعد هذا ساقوهم أولاً إلى داخل المدينة، ومن هناك إلى السهول الواقعة خارجها.

وضغط الملك بشدة في عملية مطاردة للامبراطور، فقد عثر على حصان عادي، فامتطاه بكل سرعة، واستعان برمح كان مركوزاً خلف السرج، وركب مسرعاً مستخدماً أربطة عوضاً عن الركائب، ولم يتوقف عن مطاردة الامبراطور، ونادى بأعلى صوته:«مولاي الامبراطور، أدعوك إلى المبارزة الشخصية»، لكن الامبراطور، كان أشبه بالأطرش، فقد تابع الهزيمة بكل سرعة أوتيها.

وبعدما استولى الملك على المدينة، جعل الملكتين تهبطان إلى اليابسة، وتغادران السفينة، ومن ثم تقيمان في ليماسول، فقد حصلتا بعد تعب الرحلة ورعبها على الأمن، وأمضى الملك الليلة نفسها في سرادقه، وأمر فأنزلت خيوله إلى اليابسة بوساطة عبارات خاصة، بينما تظاهر الامبراطور بعدم الخوف من أي شيء، لذا أمضى الليل في معسكر على مسافة مرحلتين.

كيف سلم الامبراطور قبرص

في اليوم التالي ، وفي حوالي الساعة الثانية ، ركب الملك حصانه واكتشف وجود بعض الاغريق واقفين ليس بعيداً ، في حقل زيتون ، ومعهم أعلامهم المرزولة ، ولدى مبادرتهم إلى الفرار ، تولى مطاردتهم ، لكن بما أن خيولنا قد عقرت بسبب حبسها قرب البحر لحوالي الشهر كاملاً ، فقد احتفظ رجالنا بهم ووفروهم ، وساروا بخطى وئيدة حتى رأوا جيش الامبراطور ، الذي أمضى الليل في واد هناك ، وهنا توقفوا عن أعمال المطاردة ،

وبدأ الاغريق الذين يصرخون ويولولون بشكل مرعب ، بتوجيه الاهانات لرجالنا ، وبسبب الصراخ أفاق الامبراطور من نومه ، وامتطى ظهر حصانه ، وزحف ببطىء مع رجاله نحو رجالنا حتى وصل إلى رابية قريبة ، حيث تمركز ليقوم بمراقبة الاشتباك .

واستخدم الاغريق قسيهم وحرابهم ، وصرخوا عاليا بأن رجالنا لا يمكن تحريكهم وزلزلتهم ،ثم تقدم الى الملك أحد الكتاب المسلحين ، واسمه هوغو دي مارا ، وقال مخاطباً إياه :« مولاي الملك ، يبدو من الحكمة تبني خطة تقضي بالتراجع لبعض الوقت أمام مثل هذا الحشد الكبير والقوي من الناس»، ورد عليه الملك قائلاً :«أيها السيد الكاتب ، دعنا وما نختص به ، والأحسن بالنسبة لك أن تشغل نفسك بالكتابه ، وتدع الحرب لنا ، وانتبه واحرص أن تبتعد عن الحشود ، وحاول آخرون مثل هذا أن يقنعوا الملك بالاقلاع عن القتال ضد حشد هائل مثل ذلك الحشد ، وفي الحقيقة لم يكن إلى جانبه في ذلك الوقت أكثر من خمسين رجلاً ، غير أن تشجع من هيجان الأعداء ، فوضع مهمازين لفرسه وانقض بشكل مفاجىء في هجوم ضد الأعداء ، واندفع خارقاً لصفوفهم ،

فمزقهم ، وأخذ يقاتل الأول فالذي يليه ، مشدداًضغطه بدون توقف ، وعندما أدرك جيشهم أن خصومه كانوا يتجمعون تلاشت شجاعة رجاله ، وشرعوا بالفرار ، ولقد نجا منهم الذين امتلكوا خيولاً سريعة وصبورة ، لكن الرجالة والناس العاديين ، الذين كانوا أقل قدرة على الفرار فقد تعرضوا للذبح في جميع الاتجاهات بدون تفريق ، ولم يعد بإمكانهم الفرار بسبب وصول الملك .

وبينما كان الامبراطور يشجع رجاله ويحثهم على القتال ، انقض عليه الملك بشكل مفاجيء وبكل سرعة ، ورماه أرضاً عن ظهر حصانه بضربة من رمحه ، غير أنه ما لبث أن حصل على حصان آخر بكل سرعة ونجا وسط الحشد ، علماً بأ ن بعض أتباعه لاقى حتفه .

آه ، كم من الخيول الأصيلة كان بإمكانك أن ترى قد ذبحت هناك ، وكم من السوابغ ، والبيض والسيوف والرماح والرايات قد سقطت أرضاً وكم من الأجساد الميتة المضرجة بالدماء كانت هناك ، وكم من الذين كانوا يلفظون أنفاسهم !

وعند ادراك الامبراطور لشجاعة رجالنا واقدامهم ، ولحال قتال رجاله ، هرب بأقصى سرعة أمكنته نحو الجبال ، ورمى الملك أرضاً حامل راية الامبراطور ، وأعطى الأوامر أن يحتفظ بالعلم الرائع والجميل له ، ثم طارد خيالتنا الفارين بقدر ما استطاعوا ، أي لحوالي الميلين ، وبعد هذا عادوا يسيرون بخطوات عادية ، ثم وصلوا بكل هدوء .

ثم التفت الناس نحو الغنائم ، فأخذوا كثيراً من الأسلاب من أسلحة وأثواب ثمينة مع خيمة الامبراطور ، التي عثر فيها على آنية مصنعة من الذهب والفضة فقط ، وكذلك مع جميع مفروشات الامبراطور وثيابه الرائعة ومحتويات البيت ، وذلك بالاضافة الى عدد من السوابغ والبيض ، والسيوف المختارة والخيول والبغال ، وكثيراً من الغنائم من أغنام وسائمة

وماعـز ، وخيول أصيلـة وبغال ، وبـط وأوز ودجاج ، كما وجـدوا أنواعـاً منتخبة مـن الخمر والمؤن من جميع الأنـواع ، كما وحملوا معهم حشـداً من الأسرى ، ولقـد كانـت الكميات هـائلـة الى حد أنهم شعـروا بالتخمـة ، وبكلمة موجـزة بات كل فكر مشغـولاً بالغنائم ، وكانـت متراكمة بشكل عظيم ، ولم يبد أحـد منهم اهتماماً بأي شيء ثمين ، حتى عندمـا قدمت هذه الأشياء إليهم .

وبعدمـا صنعت هذه الأشيـاء ، أعلن الملك مـرسومـاًبوساطـة صوت المنادي في أن بإمكان كل واحد من السكان قابل بالسلام ، أن يذهب ويعود حسبما يشاء دون أن يتعرض للأذى من قبـل رجاله ، بل أن يتمتع بحرية كاملة ، لكن كل من عدّ الملك بمثابة عدو له ، عليه الانتباه حتى لا يقـع بيديـه ، وينطبـق هذا على رجـالة الجيـش ، لأن مـن المؤكد أنـه سيعاملهم بمثابة أعداء ، وفقـد الامبراطور بهذه الوسائط عدداً كبيراً جداً من رجاله ، ذلك أنهم تخلوا عنه باستمرار ، وأخيراً عندما وجد الامبراطور نفسه في حالة مـن الفوضى والأسى لأنه أخفق في مقـاصده ، حمل نفسه والتجأ الى حصن قوي اسمه نيقوسيا .

وفي يوم السبت التـالي ظهر بالأفق ثلاث شواني وصعـد الملك ، الذي كان دومـاً متعجلا، إن لم نقل كان مغـامراً ، الى ظهر مركـب صغير، دفع بقوة المجاذيف ، وذهب لملاقاة هذه الشـواني ، ولمعرفة القادمين من هم ، ومن أين جـاءوا ، ولدى اجابتهم له ، قـالوا إن فيها غي لـوزغنان ، وعاد الملك مسرعاً وأمـر بإعداد عشاء فـوري للضيوف القادمين ، وعندمـا نزل الملك غـي إلى اليابسة ، استقبلـه بحفاوة عظيمـة جداً ، وعاملـه بلطف زائد.

وجاء الملك غي إلى عند الملك رتشـارد يسأل نصيحته ، ويطلب عونه ضد ملـك فرنسـا الذي خطـط لجعل مـركيز مـونتفرات ملكـاً للقدس ، وخلع غي ، ورحب الملك رتشارد به بلطـف ، وأكرمه بمنحه هداياه لأنه

كان فقيراً ومحروماً من الامكانيات ، وأعطاه ألفي مارك فضي وعشرين كأساً لها ثمنها ، الذي يعادل مائة وخمسة ماركات ، فقد كان كأسان منهن من الذهب الخالص .

وفي اليوم التالي ، وهو يوم الأحد ، الذي وافق عيد القديس بانكراس Pancras احتفل بشكل مهيب بزواج الملك رتشارد وبيرنغاريا النافارية في ليماسول ، وكانت سيدة على درجة عالية من الحكمة ، والأخلاق المصقولة ، ووقتها توجت ملكة ، وكان من بين الحضور وقت الاحتفال رئيس الأساقفة ، وأسقف أوف إفرو Evreux وأسقف بانيريا Baneriaوعدد كبير آخر من الرؤساء والنبلاء الآخرين وكان الملك في أروع حالاته في هذه المناسبة السعيدة ، وأظهر نفسه مرحاً ، ودمثاً للغاية واحتفل بعد يوم واحد بالزفاف بشكل مهيب وبطرائق ملكية ، ووصلت الى قبرص جميع الشواني الملكية ، التي انتظروصولها بقلق وكانت مجهزة ومدافع عنها بسلاح رائع وما من واحد رأى سفناً أفضل أو أعظم سلامة ، وضم الملك إليهم الشواني الخمس اللائي أخذهن من الامبراطور وبهذه الصورة امتلك أربعين شينياً مسلحاً وستين سفينة من أنواع أخرى بحالة جيدة .

واقترح الملك أن يطارد مع جيشه الامبراطور حيثما كان ، وأن يأخذه بالقوة ويرغمه على الاستسلام ، لكن بناء على وساطة وطلب مخلص تقدم به مقدمو اسبتارية القدس تقرر وجوب عقد مؤتمر بين الملك والامبراطور ، وندب الامبراطور خسارة رجاله ، وأنه قد أرغم على الفرار مجللاً بالعار الى نيقوسيا ، من وجه الملك ، وخشي من المطاردة ، أكثر بسبب أن السكان المحليين هجروه ، ولم يعد بإمكانه الاعتماد على مساعدتهم .

وبعدما استدعى الملك إليه أكبر عدد ممكن من الناس امتطى فرساً اسبانياً ، عالي الظهر ، عظيم الحجم ، جميل الشكل ، وسار الى

سهل واسع جداً فيما بين البحر والطريق العام ، قرب مدينة ليماسول ، وكان سرج فرسه يتألق بالذهب ، ووشي ورصع بالأحمر ، وكان على الجزء الخلفي منه أسدين صغيرين من الذهب استدارا نحو بعضهما بأفواه مفتوحة ، وكان على الجزء الأمامي أيضاً اثنين يشيران نحو بعضهما ، وكأنما أقعيا للالتهام ، وزينت قدما الملك بمهمازين ذهبيين ، وارتدى قميصاً لونه زهر ، طرز بصفوف من الأهلة الفضية المصاغة ، وكان يشع مثل أفلاك الشمس بأشعة سميكة ، وهكذا سار الملك المكسو هكذا نحو الأمام ، وكان متمنطقاً بسيف مجرب مقبضه من الذهب ، والنطاق منسوج بالذهب ، وكان فم الغمد مغلفاً بالفضة ، وارتدى على رأسه قبعة قرمزية ، مزينة بأشكال مختلف الطيور ، ومخيطة ومطرزة بالابرة ، وحمل عصا بيده ، وعبر مظهره العام وبرهن أنه كان عسكريا من الطراز الأمثل ، ومنح البهجة العظيمة لكل من رآه .

وبعد تقديم العديد من المقترحات على كلا الجانبين بين الملكيين ، عرض الامبراطور أخيراً أن يقسم للملك يمين التبعية في كل شيء ، وأن يرسل قوة مكونة من خمسمائة فارس إلى أرض القدس خدمة للرب ، ولتكون تحت تصرف الملك رتشارد وتطيع أوامره ، وعرض بالاضافة إلى جميع هذه الأشياء (حتى يرضي الملك تماماً ولا يترك في نفسه أدنى شك)أن يضع جميع قلاعه وحصونه في أيدي حراس الملك ، وقدم بالاضافة إلى ذلك ثلاثة آلاف وخمسمائة مارك بمثابة ترضية وتعويض للذين فقدوا أموالهم ، أو تعرضت للسلب ، وتبعاً للاتفاق بينهما ، إذا ما وجد الملك أنه ورجاله قد قاتلوا بإخلاص ، يتوجب وقتها أن يعيد اليه جميع قلاعه وحصونه ، وأن تبقى الصداقة بينهما نفسها إلى الأبد .

وعندما أحال الملك هذا العرض الى رفاقه للفحص ، أجابوا بأنه محترم جداً ، ويتماشى مع احترام الملك ومكانته ، وكانوا راضين تماما به ، وعلى الفور أقسم الامبراطور أن يحترم جميع الشروط المتقدم ذكرها بكل

اخلاص للملك ، وبعدما تبادلا قبلات السلام أقاما التحالف وفق السمات الموصوفة .

وقام الامبراطور في الليلة التالية ، بناء على مشورة فارس خائن ، بالفرار الى فيما غوستا ،لأن الفارس أخبره أن الملك رتشارد عازم على إلقاء القبض عليه ورميه بالأغلال ، ولدى سماع الملك رتشارد بهذا انطلق يطارده ، متهماً إياه بالتدليس وحنث اليمين .

وعندما وصل الملك الى فيما غوستا ، وجدها مهجورة ، لأن الامبراطور وجد أنه غير مضمون الأمان بالنسبة له أن يتخذ فيها موقف المدافع ، ولهذا أخفى نفسه داخل الأحراش ، حيث الوصول اليه كان صعباً ، وإذا ما غامر رجالنا بالمرور بها ، سيكون بإمكانه مهاجمتهم من خلال الكمائن ، وأعطى الملك الأوامر بوجوب حراسة الموانىء بدقة من قبل شوانيه ، بغية إلقاء القبض على الامبراطور إذا حاول الفرار .

وبعدما مكث هناك لمدة ثلاثة أيام جاء اليه أسقف بوفياس Beavais ودروغودي ميرل ، وهو نبيل واسع الشهرة ، جاءا اليه رسلاً لحثه على عبور البحر بدون تأخير، وليؤكدا له أن ملك فرنسا لن يقوم بالهجوم على عكا قبل وصوله ، وأضافا الى ذلك كلمة نقد قائلين بأنه أهمل المسائل الضرورية ، وأنه أضاع جهوده في مهام عبثية ، وأنه يتولى بلا توقف تعذيب ومطاردة مسيحيين أبرياء ، في حين هناك آلاف من المسلمين يتوجب عليه حربهم في البلاد المجاورة .

ورد الملك على هذه الرسالة بطريقة غاضبة ، ليس من المناسب ادراجها هنا ، ذلك أنه بدا له من المفيد جداً بالمحصلات اخضاع مثل هذه الجزيرة الضرورية جداً والمفيدة لمملكة القدس ، ثم تحرك الجيش نحو نيقوسيا لانشاب القتال ، لأنهم علموا أن الامبراطور عازم على نصب كمين لهم ، وزحف الملك في الساقة ، للحماية ضد المهاجمين ،

عندما اندفع الامبراطور بشكل مفاجيء من مكان اختبائه وهاجمهم مع حوالي سبعمائة من الغريفون ، وبذل رماة أقواسهم العقارة والعرادات غاية جهدهم ضد طلائع قواتنا ، لكن قواتنا حافظت على التحامها وتماسكها في نظام جيد لذلك لم تعان من التمزق ، وآنذاك زحف الامبراطور على الجناح للاستطلاع ، وانصب بقضه وقضيضه إما بهدف تمزيق صفوفنا ، أو أن يقف على مكان الملك ورميه ، وعندما وجد أن الملك كان في الساقة سدد نحوه بسهمين مسمومين ، مما أشعل غضب الملك عليه ، فلبس مهمازين ، وركب حصانه ، وانقض على الامبراطور بهدف طعنه برمحه ، لكن الامبراطور تجنبه وهرب بالسرعة التي أمكنته ، وهو حانق ومضطرب لأنه لم ينجح في تنفيذ رغباته ، ولم يطارده الملك بعيداً لأنه شك في قدرته على أسره لأنه كان ممتطياً لفرس كميت له سرعة وقدرة على الاستمرار ما من أحد رأى ما يماثلها أبداً .

ثم زحف الملك الى نيقوسيا مع جيشه ، وخرج سكان المدينة كتلة واحدة لتهنئته واستقبلوه ورحبوا به وكأنه سيدهم ، واستقبلهم الملك بسلام وفقط جعلهم يحلقون لحاهم ، وذلك علامة وبرهان على تغييرهم لسادتهم ، وكان الامبراطور عظيم الغضب لدى سماعه بهذا ، وطلب من رجاله إلقاء القبض على كل واحد من رجالنا يستطيعون ، ومن ثم قلع عينيه ،وقطع الأنوف ، وتشويه الأيدي أو الأرجل بغية ارضاء غضبه وانتقامه ، واطفاء حزنه .

وقسم الجيش الى ثلاثة أقسام ، قاد قسم منها الملك غي لالقاء الحصار على ثلاثة حصون ، وتم الاستيلاء على الأول ، وعثر على ابنة الامبراطور وعلى أمواله ، وعندما سمع الامبراطور بهذه الخسارة استولى عليه اليأس ودفعه الى حد الجنون .

وزحف الملك غي الى حصار الحصن الثاني ، واستمر المحاصرون لأيام عدة يرمون على المهاجمين الحجارة والحراب والنشاب ، حتى تلقوا أمراً

من الامبراطور بالاستسلام والتخلي عن الموقع ، وعندها وضع الملك فيه ابنة الامبراطور حتى يحول دون أسرها ثانية ، ومن هناك عاد الملك غي الى نيقوسيا ، حيث استلقى الملك رتشارد مريضاً ، وما أن عوفي حتى هاجم الحصن الثالث واقتحمه ، وهو حصن عدّ حتى الآن لايرام .

وارتأى الامبراطور بعدما قدر الموقف أن ابنته قد أسرت (ذلك أن حياته تعلقت بها) وأنه ليس هناك من أمل ترك للمقاومة ، بعد هذا قرر التماس السلام والرحمة ، وبناء عليه بعث برسل الى الملك رتشارد يلتمسون المسامحة ، وتبعهم في ثياب حزينة ، وفي حالة يائسة .

وعندما مثل في حضرة الملك رتشارد ، سقط على ركبتيه في حالة تذلل أمامه ، قائلا إنه يضع نفسه كلياً تحت رحمته ، ويرجو ألا يلقيه بالأغلال ، وتحرك الملك عطفاً عليه وأنهضه وأجلسه الى جانبه ، وأمر بإحضار ابنته اليه ، وعندما رآها الامبراطور سرّ سروراً عظيماً ، وعانقها بشكل عاطفي جداً ، وغمرها بقبله ، بينما أخذت الدموع تتساقط من عينيه ، والقى الملك الامبراطور بالأغلال ، لكن ليس بأغلال حديدية بل أغلال فضية .

وهكذا تملك الملك قبرص في مدة خمسة عشر يوماً ، وأعطاها الى رجاله لسكناها ، وعهد بأمر الامبراطور وشؤون اعتقاله الى الملك غي ، وسلم ابنته الصغيرة الى ملكته للعناية بها وتربيتها وتثقيفها .*

ثم أعاد الملك رتشارد جيشه وخدمه مع الأثقال إلى ليماسول، حيث كانت الملكتان، وأعطى الأوامر باعداد الاسطول لجواز مباشر للبحر، وانتشرت في هذه الآونة تقارير أفادت أن عكا باتت على حافة السقوط، وعندما سمع الملك بهذا تنهد بعمق وقال:«بعد ماحوصرت عكا هذه

* تبعاً لمصدر آخر ، رافقت رتشارد في عودته الى نورماندي ، وحاولت بعد وفاته العودة الى قبرص ، غير أنها أوقفت في مرسيليا ، فأرغمت على الزواج من ريموند صاحب طولوز، ثم كان زوجها الثاني فارس فلمنكي ، حاول عبثاً الادعاء بأحقيته بعرش قبرص من خلالها ، ولكونه زوجها .

المدة الطويلة، عـلّ الرب يؤجل سقوطهـا حتى قدومي، فعنـدها سيكون النصر بعونه أكثر روعة».

وبعـدمـا وضعـوا الأثقـال على ظهــور السفـن، أقلـع الاسطـول مـن الشاطىء بريح مواتية، والملكتان ذهبتا أيضاً برفقة الملك.

obeikandl.com

- ٨٥٤ -

كيف تحاربوا مع سفينة اسلامية كبيرة
ووصلوا أخيراً إلى عكا

ومن فيما غوستا أقلع الملك على واحدة من أكبر شوانيه وأسرعها، (وكما كانت عادته) تحرك نحو الأمام بالطليعة، وكان عديم الصبر تجاه التأخير، في حين سارت السفن الأخرى في أعقابه بأقصى ما أوتيت من سرعة، ولم يكن هناك من قوة، لم تكن لتخاف عن حق وترتعب من سرعتهن، وفي الوقت الذي خاضوا فيه غمرات البحر، أخذت ملامح الأرض المقدسة للقدس تظهر عن بعد أمامهم للمرة الأولى، وكان الحصن المسمى المرقب أول بقعة تأتي أمام أنظارهم.

وعندما كانوا على مقربة من بيروت، رأوا عن بعد مركباً مشحوناً بالمسلمين الذين جرى اختيارهم من الدولة الاسلامية، وكان المركب موجهاً من قبل صلاح الدين لنقل المعونات إلى المحاصرين في عكا، ولم يكن بمستطاع الذين على ظهر المركب تأمين مدخل سريع إلى ميناء عكا، خشية من المخاطر التي صدرت عن الجيش المسيحي، وكانوا ينتظرون لحظة مناسبة لدخول الميناء بشكل مفاجىء، وما أن رأى الملك السفينة حتى استدعى بيتردي بار Barres وكان قائداً لإحدى شوانيه، وأمره أن يجدف بسرعة ليعرف ويسأل من كان قائداً للمركب، وعندما أجابوه أنهم يعودون إلى ملك فرنسا، اقترب الملك بلهفة من المركب وبسرعة، لكنه لم يعثر على أية علامة أنه فرنسي، كما أنه لم يحمل أية شارة مسيحية أو راية، وعندما تفحصه الملك عن قرب، بدأت تعلوه الدهشة بسبب حجمه الهائل، وصناعته المحكمة، فقد كان على ظهره ثلاثة سواري(السفن الأوربية امتلكت حتى القرن الثالث عشر سارية واحدة)، وكانت أطرافه معلمة بشرائح حمراء وصفراء، وكان مفروشاً

بشكل جيد وفيه كل مايلزم من عتاد، إلى حد أن مامن سفينة كانت متفوقة عليه، كما كان مشحوناً بوفرة من الامدادات وبجميع أنواع المؤن.

وقال واحد ممن كان على ظهر سفينة الملك، أنه عندما كان في بيروت شاهد هذا المركب محملاً بمائة حمل جمل من السلاح، والرماح، والقسي، والحراب، والنشاب، وكان على ظهره سبعة أمراء وثمانين من نخبة الأتراك، وذلك إلى جانب كميات هائلة لاتدخل تحت الاحصاء من جميع أنواع المؤن، وكان معهم على ظهر المركب كمية كبيرة من النفوط (النار الاغريقية) في قوارير، ومائتين من الأفاعي القاتلة من أجل تدمير المسيحيين.

وجرى بناء عليه ارسال آخرين للحصول على معلومات مؤكدة أكثر، وعندما أعطوا بدلاً من الاجابة المتقدمة، اجابة جديدة، حيث قالوا إنهم جنويين وجهتهم إلى صور، بدأ رجالنا بسماع هذا الجواب المتغير يشكون بصدقهم، وأصر واحد من رجالنا الذين كانوا على ظهر السفينة أنهم كانوا مسلمين، ولدى سؤال الملك له قال:«إنني أسمح لك بقطع رأسي، أو شنقي على شجرة إن لم أبرهن بأن هؤلاء الرجال من المسلمين، دع الشيني يمضي مسرعاً خلفهم، لأنهم يحاولون الابتعاد، ولاتقدموا لهم أية نوع من أنواع التحيات، فبهذه الطريقة سنمتلك برهاناًمؤكداً عن ماهية مقاصدهم، وإلى أي مدى يمكن تصديقهم، ثم انطلق الشيني بناء على أوامر الملك خلفهم بسرعة كاملة، ولدى الاقتراب من مركبهم، والتجديف إلى جانبه بدون تقديم تحية صداقة لهم، بدأ البحارة يرمون الحراب والنشاب نحو رجالنا، وعندما رأى الملك هذا أمر بمهاجمة السفينة على الفور، وبعد تبادل الرشقات من السهام، انخفضت سرعتها، لأن الريح حملتها بسرعة منخفضة.

ومع أن رجال سفينتنا جدفوا مراراً حول السفينة، وتفحصوها بدقة، لم يجدوا نقطة موائمة لمهاجمتها، لأنها بدت صلبة ومحكمة إلى أبعد الحدود،

ومصنعة من مواد قوية، زد على هذا كانت محمية بوساطة حرس من المقاتلين، الذين استمروا في رمي النشاب نحوهم، ولم يستمتع رجالنا أبداً برماية النشاب، ولابالارتفاع العظيم للسفينة، لأنه من الممكن أن تصطرع مع عدو وتقاتل ضده على مستوى واحد، لكن عندما ترمى الرمايات من أعلى دوماً تؤذي الذين هم بالأسفل، لأن رؤوسها الحديدية تسقط نحو الأسفل، وعندما بدأ جهدهم يسترخي، ازداد حماس الملك صعوداً، ورفع صوته يقول متسائلاً:«هل ستدعون السفينة تمضي وتهرب دون أن تلمس أو تصاب بالأذى؟ العار لكم! هل تحولتم إلى جبناء نتيجة تقاعسكم، بعد كثير من الانتصارات؟ العالم أجمع يعرف أنكم مكرسون لخدمة الصليب، ولسوف تعانون من أشد العقوبات وأقساها إذا ماسمحتم للعدو بالنجاة وهو على قيد الحياة، وذلك بعدما ألقي أمامكم على طريقكم».

وبناء عليه أرغمت الحاجة رجالنا، فقفزوا بنشاط نحو الماء، تحت طرف السفينة، وربطوا دفة القيادة ومجدافها بالحبال، لحرف السفينة وإعاقة تقدمها، وأمسك بعضهم بالحبال، فقفزوا على ظهرها، واستقبلهم الأتراك برجولة، ومزقوهم إلى أشلاء عندما وصلوا إلى ظهر السفينة، ورموا برأس هذا، وبذراع ذاك، وبأيدي آخر، وقذفوا بأجسادهم إلى البحر، ولدى رؤية رجالنا هذا التهبوا غضباً، وتجددت شجاعتهم من العطش للانتقام، وعبروا فوق معظم السفينة وقاتلوا الأتراك على شكل كتلة واحدة، وبحدة عظيمة، ومع أن الأتراك تراجعوا قليلاً، غير أنهم قدموا مقاومة عنيدة.

واستمرت المعركة إلى وقت طويل، وسقط عدد كبير من على الجانبين، لكن في النهاية، ضغط الأتراك بشجاعة على رجالنا، وردوهم إلى الخلف (مع أنهم قاوموا بكل طاقاتهم) وأخرجوهم من السفينة، وبناء على هذا تراجع رجالنا إلى شوانيهم، وحاصروا المركب من جميع الجهات، وحاولوا

ايجاد وسيلة أسهل لحربه.

ولاحظ الملك الوضع الخطر الذي كان فيه رجاله، وإذا لم تتعرض السفينة للأذى لن يكون من السهل أخذ الترك مع السلاح والمؤن التي فيها، فأمر كل شيني من شوانيه بوجوب مهاجمة السفينة بوساطة رؤوسها المعدنية التي في مقدمتها، وهكذا أخذت الشواني تتراجع إلى الخلف، ثم تهاجم بسرعة كبيرة بوساطة التجديف أطراف السفينة لخرقها، وبهذه الطريقة تحطمت السفينة بسرعة، وأصبحت مفتوحة أمام الأمواج ومن ثم أخذت تغرق، وعندما رأى الأتراك هذا قفزوا إلى الماء ليموتوا، وقتل بعضهم من قبل رجالنا، وغرق الآخرون، واحتفظ الملك بخمسة وثلاثين منهم أحياء، وهم الأمراء والرجال الذين كانوا بارعين في صنع الآلات، لكن البقية لاقوا حتفهم، وتمّ التخلي عن الأسلحة، وغرقت الأفاعي، وتوزعت بين أمواج البحر.

ولو أن هذه السفينة وصلت سالمة أثناء حصار عكا، لما تمكن المسيحيون مطلقاً من الاستيلاء على المدينة، لكن بوساطة الملك وبعون الرب تحولت إلى دمار الكفار، ولعون المسيحيين، وشهد المسلمون عن بعد ، ومن فوق أماكن شاهقة ما كان يحدث ، وبحزن وأسف حملوا الأخبار الى صلاح الدين ، الذي عندما سمعها أمسك بلحيته وأخذ ينتفها بغضب وحنق ، وانفجر يتمتم بهذه الكلمات : « يا الهي ، هل فقدت عكا ، وخسرت نخبة جندي ، الذين أثق بهم ثقة كبيرة ؟ إنني مقهور ومتألم غاية الألم لهذه الخسارة ».

وعندما حمل الذين شهدوا الواقعة الأخبار الى جيش المسلمين ، علت بين صفوفهم ضجة عظيمة من البكاء والنواح والندب المؤلم لحظهم السيء ، وقطعوا ضفائر شعرهم ، وتخلوا عن ملابسهم ، ولعنوا الساعة التي جاءوا فيها الى سورية ، وشتموا ما قدرته النجوم عليهم ، لأنهم خسروا بخسارة السفينة المذكورة أعلاه جميع نخبة شبابهم ، الذين وثقوا

بهم وعليهم اعتمدوا .

وبعد هـذا النجاح أسرع الملك رتشـارد مسروراً ومبتهجاً ، ومعـه جميع أركانه ، نحو عكا ، الى حيث رغبـاته الجامحة حملته ، وفي الليلة ، وبفضل ريح منـاسب ، رسـا الاسطول قـرب صور ، ورفـع الأسطول في الصبـاح المراسي ، ونشر الأشرعة ، وبعد وقت قصير بات البرج المرتفـع لعكا مرئيا، ثم قليلاً فقليلاً ظهرت بقية دفاعات المدينة .

وأحاط بالمدافعين المحاصرين حشـود لا تعد ولا تحصى ، منتخبة من كل أمة مـن أمم العالم المسيحي تحت قبة السماء ، وكانـوا جميعاً مؤهلين للعمل والتعـب في سبيل الرب ، لأنـه كان قـد مضى وقت طـويل على حصـار المدينـة ، وقد تـأثـرت كثيراًبـالجهـد المتواصـل ، والانهاك بسبـب ضغط الجوع ، وكـل نوع مـن أنواع العدوان ، وكـان من الممكـن أن يرى خلف المحاصريـن ، الجيش التركي وقد غطى الجبال والـوديان ، والتلال والسهـول ، بخيـام عكسـت ألوانها أشعـة الشمـس، ورأوا أيضـاًسرادق صلاح الديـن ، وخيمة أخيه سيف الديـن ، وخيمة تقي الديـن ، الرجل الرئيسي للمسلمين ، فهـو الذي تـولى حراسـة أجزاء البحـر وكان يخطـط للحملات الفعالة والمستمرة على المسيحيين .

وتفحص الملك رتشـارد وقدّر حجم جميع جيشهم ، وعنـدما وصل الى المرسـى ، جاء لاستقبـالـه ملك فـرنسا ، وجيـش كـامل مـن المحليين ، والأمـراء والمقـدمين ، والنبـلاء ، وقـد رحبـوا بـه بسرور وانشراح ، لأنهم كانوا منتظرين ومتشوقين لوصوله .

وفي يـوم السبت ، قبـل عيد الـرسول المبـارك بـرنابـا ، في اسبوع عيـد العنصرة ، نزل الملـك رتشارد الى اليابسـة قرب عكـا مع حاشيتـه كلها ، واهتـزت الأرض مـن صراخ المسيحيين المسروريـن ، وعبر النـاس عـن بهجتهـم بصرخـات الترحيب وبـالنفـخ بـالأبـواق، وأمضوا النهـار كلـه

بالاحتفال ، وسيطر على الجميع سرور عام . وبالمقابل ارتعب الأتراك ، وانكسرت نفوسهم بقدومه ، لأنهم أدركوا أن جميع حركات الذهاب والاياب هي محصلة قدوم حشود الملك ونزولها من السفن .

وسار الملكان مع بعضهما من المرسى ، وقدم كل منهما للآخر العناية الفائقة ، ثم ذهب الملك رتشارد إلى خيمته التي كانت معدة له من قبل ، وشرع مباشرة في الاستعدادات للحصار ذلك أن اهتمامه تركز بشكل رئيسي على ايجاد الوسائل والأدوات والآلات ، التي تمكنهم من الاستيلاء على عكا ، دون خسارة للوقت .

وما من قلم قادر على وصف البهجة بين الناس تلك الليلة ، ليلة وصول الملك ، وما من لسان قادر على وصف ذلك ، فقد نظر الى هدوء الليل على أنه ابتسامة ألقيت عليهم مع هواء عذب ، وصدحت الأبواق، وصوتت الصور ، مع نعيق النفر ، وسمعت الأنغام العميقة للطنبور والمزمار ، وشنفت الآذان ، وسمعت السمفونيات المهدئة وكأنها أصوات عدة مزجت بصوت واحد ، ولم يكن هناك إنسان لم يشارك في البهجة والحمد والشكر ، إما بغناء أغان شعبية للتعبير عن مشاعر السرور في قلبه ، أو ردد أعمال القدماء محركاً بما ضربوه من أمثالة أرواح المعاصرين ، وشرب بعضهم الخمرة بكؤوس ثمينة بصحة المغنيين ، في حين قام آخرون بمزج ذوي المراتب العليا والمراتب الدنيا مع بعضهم ، وأمضوا الليل في رقص متواصل ، وإزدادت بهجتهم بإخضاع الملك رتشارد لجزيرة قبرص، وهو مكان نافع وضروري لهم ، وسيؤدي خدمات جليلة لجيشهم ، وكدليل آخر على بهجة قلوبهم ولاضاءة ظلام الليل أشعلت الشموع والمشاعل فبثت الشعاع حتى بدا الظلام وكأنه أزيل بضياء النهار ، وخيل للترك أن الوادي كله كان يشتعل ، ثم إن البيزيين وقد نال اعجابهم مجد وأبهة الملك رتشارد ، أقبلوا عليه ووقفوا أمامه ، وقدموا له الخضوع ، وحلفوا له يمين الولاء ، وأخضعوا متطوعين

أنفسهم لسلطانه ولخدمته .

وفي اليوم التالي وهو أحد العنصرة ، سمع الملك رتشارد وعرف أن ملك فرنسا ربح إرادة وإيثار الجميع بإعطائه إلى كل جندي ثلاث قطع ذهبية (أوريAaurei) كل شهر ، عندها أعلن الملك رتشارد ، الذي لم يتفوق عليه أحد أو ساواه بالكرم بوساطة المنادي ، أن كل من أراد أن يدخل في خدمته ، بصرف النظر عن الأمة التي ينتمي إليها ، سوف يتلقى أربع قطع ذهبية بالشهر أعطية له ، وبهذه الطريقة تفوق بكرمه على الجميع ، لأنه فاق كل إنسان آخر بمحاسنه وبجوده ، مثلما بزّ الجميع بعطاياه وأبهته ، ولقد كان الناس يتساءلون :« عندما يقع أول قتال ، من الرجل الذي توقعناه طويلاً وانتظرناه بقلق وشوق ليباشر ذلك ؟ ، ومن الرجل الأول تفوقا بين الملوك والأعظم براعة في العالم المسيحي بأسره ؟ . لندع الآن إرادة الرب تقرر ذلك ،إن آمال الجميع ألقيت على الملك رتشارد ». لكن بعد مضي عدة أيام أصيب الملك بمرض حاد يدعى أرنولديا Arnoldia ، فهذا ما يطلقه عليه عامة الناس، وهو محصلة تغيير المناخ وآثاره على الجسم (حيث ينجم عنه فقدان أظافر اليدين والقدمين وسقوط الشعر وبعض الآثار على الجسد أيضاً)، وعلى الرغم من هذا أمر بإعداد العرادات والمجانيق ، وببناء الأبراج والقلاع (ميتغريفون) أمام أبواب المدينة ولم يوفر جهداً في تفعيل بناء آلات الحرب والاسراع بها .

- ٨٦١ -

كيف هاجم الفرنسيون عكا حينما كان الملك رتشارد مريضاً

ولم يرتح ملك فرنسا للتأخير في الشروع بالقتال ، فبعث كلمة الى الملك رتشارد قال فيها توفرت الآن فرصة مناسبة ، وطلب من الجيش أن يأخذ أهبته للقيام بهجوم ، لكن الملك رتشارد أوضح عدم قدرته على القيام بواجبه ، بسبب عدم قدرته الصحية ، وبسبب أن رجاله لم يصلوا بعد ، وأمل بوصولهم بسفن الأسطول المقبل ، وأنهم سيجلبون معهم مواداً من أجل إنشاء الآت ، ورأى ملك فرنسا أنه من غير اللائق الاقلاع عن خططه وغاياته ، وأمر بالاعلان عن هجوم بوساطة صوت المنادي في أوساط الجيش .

وبناء عليه ، في يوم الاثنين بعد عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان ، عندما أكمل ملك فرنسا إنشاء آلاته ، أصدر أوامره الى رجاله بحمل السلاح ، وكان بإمكانك وقتها أن ترى حشوداً لا تعد ولا تحصى من الرجال المسلحين ، المجهزين بشكل جيد ، وعدداً كبيراً من السوابغ والدروع ، والخوذ اللامعة ، والخيول الأصيلة ، والكثير الكثير من الأعلام والرايات المتعددة الأشكال والصنعة ، وعساكر ذوي جرأة معروفة وشجاعة ، كأنهم لم يروا من قبل ، ومركزوا رجالاً للدفاع عن الخنادق ، ضد هجوم متوقع خطره من قبل صلاح الدين من الخلف ، واقترب الجيش من أسوار المدينة بحملة نشطة جداً بقذف الحراب ، والنشاب والحجارة من العرادات والمجانيق بدون توقف .

وعندما رأى الترك المحصورين داخل المدينة هذا ، أثاروا ضجة هائلة ، وارتفعت أصواتهم الى السماء ، حتى أنها شابهت الصدام في الهواء الناجم عن لقاء الرعد بالبرق ، وكانت مهام بعضهم فقط قرع الطبول والصنوج والكوسات ، وجميع الوسائل الأخرى التي ترسل الشارات إلى

صلاح الدين والجيش في الخارج ، وذلك من أجل أن يقدموا لمساعدتهم والتفريج عنهم حسبما كانوا متفقين ، ولدى سماع الترك هذا ورؤيتهم له تجمعوا في جسد واحد ، وجاءوا بكل مادة توفرت لهم لطم الخندق ، واستهدفوا من وراء ذلك الجواز ، والهجوم على رجالنا ، غير أنهم أخفقوا في أهدافهم .

فقد تمكن غودفري دي لوزغنان ، وكان محارباً مجرب الشجاعة جداً ، من التصدي لهم ، وطردهم من المواقع الدفاعية التي استولوا عليها ، وقد قتل عشرة منهم ببلطة حملها بيده ، وذلك بطريقة رائعة جداً ، وما من واحد ضربه نجا من الموت ، وفضلاً عن هذا أخذ بعضهم أسرى ، ووصلت شجاعته وفعاليته الى حد ، أن ما من واحد من الجند يمكنه الادعاء بالتمييز مثله ، منذ أيام الجند المشهورين مثل رولاند وأولفر ، واسترد رجالنا الدفاعات لكن بوساطة جهد كبير وبعد مصاعب جمة ، لأن الترك تابعوا تدفقهم ، وجعلوا بمقاومتهم العنيدة وبإصرارهم على القتال ، النتيجة مشكوك فيها لوقت طويل ، ولقد كان الصراع عنيدا ولا نظير له ، وكانت الجلبة التي تصاعدت من الصراع مرعبة جداً ، الى حد أن الرجال الذين كانوا يتولون الهجوم على المدينة ، وكانوا عازمين على طم خنادقها ، أرغموا على التراجع والتخلي عن المحاولة ، لأنهم كانوا غير قادرين في الوقت نفسه على الدفاع عن معسكرهم ضد الأتراك دون فقدان الكثيرين من الفرنسيين بمقتلهم بالرمايات التي صدرت عن الزنبورك والقسي العقارة ومن الحجارة المقذوفة ، والنفوط المصبوبة عليهم ، وكان هناك الكثير من النواح والندب بين الناس .

كم انتظرنا بتحرق وبشوق وصول الملوك ، وكيف سقطت آمالنا ! فلقد جاءوا وربحنا لا شيء لا بل عانينا من خسائر أكثر من المعتاد ، والذين توقعناهم قدموا إلى لا غاية!

ووضع رجالنا من الفرنسيين أسلحتهم جانباً ، وبدأ الترك يسخرون

منهم ويعيرونهم ، وقد انتقدوهم في أنهم كانوا غير قادرين على انجاز ما بدأ وا به ، زيادة على هذا عندما ألقوا النفوط على الآلات وعلى بقية الأدوات والوسائل الحربية العائدة لملك فرنسا (التي صنعت بعناية فائقة)دمروها ، وكانت نتائج ذلك استبداد الغضب والحنق بملك فرنسا ، وغرق في حالة من مرض الوهن والأسى ، والاضطراب ، والرعب حتى أنه لم يعد يجرؤ على امتطاء ظهر حصانه.

وانتحب الجيش ، وأصيب بالاحباط نتيجة لمرض الملكين بالتخاذل، لأنه لم يعد لديه مقدم أو قائد يقاتل تحت رايته معارك الرب ، ولكي يضاف الأسى العام مات كونت فلاندرز قبل وقته ، وفقط قدوم رجال رتشارد ، بعد رحلة هادئة ثبتهم الى بعض الحدود .

وتعافى ملك فرنسا أ ولاً من مرضه ، وركز اهتمامه على بناء الآلات والأبراج ، وعزم على الانصراف الى هذا العمل ليل نهار ، ولقد امتلك آلة متفوقة السمات ، أطلقوا عليها اسم « جار السوء» وامتلك الترك أيضاً آلة مثلها أطلقوا عليها اسم «قريب السوء» وقد استطاعت مراراً بوساطة قذائفها تدمير «جار السوء » الى قطع ، لكن ملك فرنسا أعاد بناءها ، حتى تمكنت برماياتها المتواصلة من تدمير جزء من السور الرئيسي للمدينة ، وضعضعة البرج الملعون ، ومن جانب آخر ، هوت آلة دوق بيرغندي، وبالمقابل حققت آلة الداوية انجازاً مدمراً ، وفي الوقت نفسه استمرت آلة الاسبتارية في زرع الرعب بين صفوف الترك ، يضاف الى هذا كله كانت هناك آلة أخرى بنيت على حساب الجميع ، واعتادوا على دعوتها باسم « منجنيق الرب»وقد وقف إلى جانبه باستمرار كاهن يتولى الوعظ والتبشير، وكان رجلاً صاحب أمانة عظيمة ، وكان يجمع الأموال لإعادة ترميمه على الحساب العام ، ولإكتراء رجال لجلب الحجارة من أجل الرمي ، وأمكن بوساطة هذا المنجنيق ضعضعة جزء من السور ومن البرج الملعون بما يقارب العمودين منه .

وكان لدى كونت فلاندرز منجنيق منتخب ومن أكبرها حجماً ، وقد أضافه الملك رتشارد بعد موته الى واحد من المجانيق الأصغر التي امتلكها الآن ، وكان هذا مساوياً للكبير بالجودة ، وقد شرع هذان المنجنيقان بالرمي بشكل متواصل على مقربة من الباب الذي غالباً ما استخدمه الترك ، حتى أمكن القاء جزء من البرج الى الأرض ، وبالإضافة الى هذين المنجنيقين أنشأ الملك رتشارد اثنين آخرين بصنعة متميزة وبمواد منتقاة ، ، وكان بإمكانها ضرب أماكن على مسافات واسعة جداً ، كما أنه أنشأ آلة قوية جداً لها سلالم للصعود إليها ، كانت تعرف عادة باسم «البرج » وقد غطاها بالجلود غير المدبوغة والحبال ، وصنعها من شرائح من الخشب الأكثر قوة ، الذي لا يمكن تدميره بأية نوع من القذائف ، أو يتأذى بالنفوط أو بأية مادة محرقة أخرى تصب عليه ، وأعد أيضاً منجنيقين ، كان أحدهما يمكن أن يطلق قذائف شديدة جداً ، وسريعة ، وبعيدة الى حد أنها وصلت الى الصفوف الداخلية من المدينة أي الى الأسواق .

وكانت هذه الآلات تتولى القذف ليل نهار ، وبات معروفاً أن احدى الحجارة التي رمتها قتلت اثني عشر رجلاً برمية واحدة ، وحملت هذه الحجرة فيما بعد الى صلاح الدين لتفحصها ، وكانت من الحجارة التي جلبها الملك رتشارد معه من مسينا ، وكانت هذه الصخور الصوانية والحجارة الناعمة لا يمكن لشيء أن يصمد أمامها ، حيث كانت إما أن تفتت الى قطع الهدف الذي تصيبه أو تسحقه فتحوله الى طحين .

كيف صدّ الأتراك بفعالية رجال الملك رتشارد

ونظراً لموقع عكا الحصين ، ولأنه كان مدافع عنها بقوات تركية منتقاة، فقد بدت صعبة جداً حتى يتم الاستيلاء عليها عنوة ، وعلى هذا بدد الفرنسيون حتى الساعة جهودهم بلا فائدة ، في بنائهم بكل عناية آلات ومعدات لتدمير الأسوار ، فكل ما أقاموه وشيدوه بنفقات عالية جداً ، دمره الترك بالنفوط ، أو بوسيلة محرقة أخرى التهمتها التهاماً ، وكان بين الآلات والمعدات الأخرى آلة بناها ملك فرنسا بعد تعب كبير ، وأعدها لتسلق الأسوار والصعودعليها ، وقد دعوها باسم «السنور» لأنها كانت مثل السنور تزحف وتلتصق بالسور ، وأعد آلة أخرى صنعها من أغصان الأسيجة القوية ، ووضع بشكل محكم تحت غطاء من الجلود ما كانوا يسمونه الحلقات الدائرية ، ولقد اعتاد ملك فرنسا على الجلوس تحتها وشغل نفسه بقذف الرمايات من آلة قاذفة ، فقد كان يترقب ظهور الترك فوق الأسوار الى جانب الشرافات فيرميهم وهم غير منتبهين .

ونشط الفرنسيون في أحد الأيام ، وسعوا وهم يزحفون بإصرار الى الأمام الى وضع سنور على الأسوار ، وعندما لاحظه الترك ألقوا فوقه كومة من الخشب الجاف جداً، وبعدما رموها فوقه وفوق «آلة السياج » التي بناها الفرنسيون بعد تعب كبير جداً ، صبوا عليهما كمية من النفوط وعندما التهبا بالنيران وجها منجنيقاً نحوهما فدمراهما إلى قطع.

ونتيجة لهذا غضب ملك فرنسا بلا حدود ، وبدأ يلعن الذين كانوا تحت إمرته ، وعيرهم لأنهم لم ينتقموا بشكل موائم من المسلمين الذين ألحقوا بهم مثل هذا الأذى ، وأصدر وهو في أعلى حالات انفعاله مرسوماً عند اقتراب الصباح ، جرى تعميمه بوساطة صوت المنادي ، قضى أن سيكون هناك هجوم ينبغي القيام به ضد المدينة في اليوم التالي .

وفي الصباح تسلح الجميع ، وجرى اختيار أشجع العساكر من بين الجيشين جميعا، وجرت مركزتهم عند الخنادق ، نحو الخارج ، للتصدي للهجمات المتكررة والمزعجة والمفاجئة للمسلمين ، لأن صلاح الدين تبجح أنه سيعبر في ذلك اليوم الخنادق عنوة فيبرهن عن شجاعته بإذلال الجيش المسيحي والحط من شأنه وإنزاله حتى الرغام ، لكنه لم يحافظ على كلمته مع أن جيشه ، جاء تحت امرة تقي الدين ، كتلة واحدة واقترب من الخنادق وحاول أن يجوزهم ، لكن الفرنسيين لم يكونوا بطيئين بالمقاومة ، وحاولوا قدر طاقتهمم ردهم .

وكانت المقتلة على كلا الجانبين عظيمة ، وترجل الترك ، وزحفوا على أقدامهم بانسياب عظيم ، وبعد الالتحام بالمعركة قاتلوا بشجاعة واصرار يداً بيد بالسيوف ، وببلطات حادة ذوات طرفين ، وقاتل بعضهم بهراوات لها أسنان حادة ، وضغط الترك نحو الأمام ، وردهم المسيحيون ولقد كان المسلمون من أعظم الناس اصراراً وصموداً ، وبالمقابل كان المسيحيون من أكثر الناس شجاعة ، وتمكن المسيحيون بعد كثير من المشاق والصعوبات من تحقيق رد الترك ، لأن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداًبشكل واضح جداً.

وحاول الذين وجهوا هجومهم ضد المدينة بكل وسيلة توفرت لهم ، وبذلوا جهد طاقتهم لخرق الأسوار أو لغمها وانزالها ، أو تسلقها بوساطة سلالم التسلق ، وخشي الترك الذين كانوا داخل المدينة من حماسة رجالنا ، لذلك حركوا شارة الى ترك جيش صلاح الدين في الخارج ، ودعوهم إما الى الهجوم بقصد إزاحة الفرنسيين عن الأسوار ، أو تقديم عون مباشر اليهم .

وعندما عرف تقي الدين بهذا ، حمل الأتراك من الخارج ثانية ، وضغطوا علينا ضغطاً شديداً ، وقد دفعوا برجالنا الى الخلف بعدما بذلوا غاية طاقاتهم ، وتمكنوا بعنف من طم الخندق ، غير أن المسيحيين ، لم يقبلوا بهذا ، وقاوموا حملاتهم وتصدوا لها ، وأمكن بالتالي ردّ العدو .

وفي الوقت نفسه حقق الرجال الذين استخدمهم ملك فرنسا للغم السور، تقدما ووصلوا حتى اقتلاع أحجار الأساسات، وملأوا الثغرة المحدثة نتيجة الحفر، بقطع الأخشاب، ثم أضرموا فيها النيران، وتهاوت الأخشاب المعلقة تحت الأساسات تدريجياً، ومالت بعض الميل، لكنها لم تسقط كلها كتلة واحدة، وبادرت كتلة من المسيحيين مسرعة الى هناك للدخول من الثلمة وسوق الجيش التركي إلى الخلف.

ووضع الفرنسيون من الخارج السلالم على السور الذي انهدم جزئياً، وحاولوا الجواز الى المدينة، وبالمقابل تسلق الترك أيضاً السلالم للدفاع عن الثلمة التي أحدثت.

ثم وقعت واقعة رائعة، لا يمكن السكوت عن ذكرها، فقد رأى رجل واسع الشهرة، ومجرب الشجاعة ورائعها اسمه ألبيرك كليمنتس Alberic clements، الفرنسيين يبددون جهودهم مقابل قليل من النتائج، واستجمع ساعة تعبه الشديد كل قوته وقال: «سأموت هذا اليوم، أو إنشاء الرب، سأدخل مدينة عكا»، وبإكماله لهذه الكلمات تسلق بجرأة السلم، وما أن وصل الى أعلى السور حتى تساقط عليه الترك من جميع الجهات.

ولحق به الفرنسيون، لكن السلم تحطم تحت ضغط عددهم، وأصيب بعضهم اصابات أوصلتهم الى الموت، وتم سحب آخرين لحقت بهم جراحات بالغة، وصاح الأتراك لشدة بهجتهم، وأعلنوا عن سرورهم عندما رأوا الحادث، لأنه كان حادثاً مريعاً ومصيبة عظيمة.

ثم طوقوا ألبير كليمنتس، وقهروه، ذلك أنه ترك وحيداً على رأس السور، وطعنوه طعنات لا تعد ولا تحصى، وهكذا تحقق له ما قاله في أن يموت شهيداً إن لم يستطع تقديم العون الى رفاقه بدخول عكا.

وارتعب الفرنسيون كثيراً بسبب خسارته، وتوقفوا عن التسلق،

وسلموا أنفسهم للبكاء والنحيب لوفاته ، لأنه كان رجلاً صاحب مرتبة ونفوذ.

وبعد مضي وقت قصير تمكّن اللغامون الفرنسيون إثر مثابرتهم في عملهم ، من لغم البرج الملعون ، وعلقوه بجذوع الأشجار من الأسفل ، وكان الترك يحفرون بالاتجاه نفسه ، وقد وصلوا الى الجزء نفسه من الأساسات ، وهنا دخل اللغامون من الجهتين بإتفاق سلام متبادل ، توجب بمقتضاه أن يغادر الترك دون التعرض للأذى ، وتوجب أيضاً اطلاق سراح بعض المسيحيين الذين أسروهم ، ولدى اكتشاف مقدمي الترك هذا كانوا كانوا مغمومين جداً وأغلقوا الممرات التي كانت تفضي الى الخارج .

ولم يكن الملك رتشارد قد تعافى بعد من مرضه، ومع ذلك كان متشوقاً للعمل ، وعاقداً العزم على الاستيلاء على المدينة ، لذلك قام باستعدادته لأن يتولى رجاله مهاجمتها ، على أمل أنه ، بعون الحكمة الربانية ، سوف ينجح ، ولهذه الغاية أمر بصنع آلة السياج النقالة التي كانت تعرف باسم سيركليا Circlia وأن توضع مع نسيج متداخل ، صنع بمهارة عالية وطريقة ذكية جداً، وقصد الملك من هذه الآلة لاستخدامها للعبور فوق الخندق خارج المدينة ، ووضعها تحتها أعظم رجاله مهارة وخبرة باستخدام الزنبورك والجروخ والعرادت ، وحمل هو نفسه الى هناك فوق فراش حريري ، ليعلم المسلمين بوجوده ، وليضع العزيمة في قلوب رجاله ، وقد تمكن من داخلها باستخدامه لقوسه العقار الذي كان ماهراً باستعماله من قتل العديد .

وتمكن لغاموه أيضاً من حفر نفق تحت البرج ، وعلقوه بالأخشاب ، وأضرموا النيران فيها ولدى اضافة عدة قذائف من المنجنيق سقط البرج الى الأرض بشكل مفاجيء وأحدث صوتاً عالياً.

وبعدما تأمل الملك كم كان تحقيق هذا النجاح صعباً، وأدرك أن عليه أن يصطرع مع أكثر الأعداء شجاعة وتصميماً، وأن هناك حاجة للاستعانة بكل قواه في القتال ، أمام هذا رأى أن خير طريقة لإثارة عقول جنوده الشباب بالوعد بالجوائز ، وليس بالتهديد والتحريض بالأوامر الشديدة فمن هو المعصوم من حب المربح ؟ ولهذا أمر المنادي أن يعلن عن جائزة قدرها قطعتين ذهبيتين ثم ثلاث ثم أربع لكل من يوقع منجنيقاً من على الأسوار ، ووعد بدفع مكافأة قدرها أربع قطع ذهبية لكل من ينتزع حجرة من السور ، ثم زحف الشباب نحو الأمام ، ونافسهم الجنود الشجعان ، وضغطوا من أجل سحب الحجارة من السور وكانوا متشوقين لنيل المجد والربح ولهذا ثابروا في عملهم وسط نشاب ورمايات العدو .

وأخفق كثير منهم في القيام بمهامهم ، في حين تم رد الآخرين ، فتراجعوا خوفاً من الموت ، لأن الترك صدوهم بنشاط من فوق ولم يكن بمقدرة الترسة ولا السوابغ والدروع حمايتهم ،وكان ارتفاع الأسوار عظيماً ، وكذلك كانت سماكتها ، ومع ذلك استطاع الرجال الشجعان بعد تغلبهم على جميع المصاعب انتزاع عدد كبير من الحجارة وسحبها ، وعندما انقض الترك عليهم كتلة واحدة ، ناضلوا من أجل صدهم ، ولكن لأنهم كانوا قد خلفوا أسلحتهم وراءهم ، فقد تعرضوا وهم أشبه بالعزل لنشاب العدو .

وتفاخر واحد من الترك فوق الأسوار ، وهو لابس لسابغة ودروع وسلاح ألبيرك كليمنتس المتقدم الذكر وكان هدفه اغضاب رجالنا ، لكن الملك رتشارد استطاع أن يصيبه اصابة قاتلة ، خرقت قلبه بنشابة من قوسه العقار .

وحزن الترك لسقوطه ، وركضوا جميعاً محتشدين للانتقام لمقتله ، وعرضوا أنفسهم بدون خوف وبجرأة عظيمة للنشاب وللحراب ، وردوا

رجالنا وضغطوا عليهم مثل المجانين ، ذلك أنه لم يكن هناك مقاتلين أشجع منهم بين أي جنس على الأرض ، وتثير ذكريات أعمالهم على الفور في نفوسنا الاحترام والاعجاب ، وفي أثناء القتال الحامي ، لا شيء يمكنه أن يقف في وجه رمايات القوس العقارة أو مقاومتها سواء أكانت سوابغ مزدوجة ، أم دروع قوية ومحكمة الصنعة ، وعلى الرغم من كل شيء تابع الترك حفر نفق من الداخل ، وبذلك أرغم رجالنا على التراجع ، ورفع العدو أصواته عالية وكأنه حقق غايته .

وتهاوى البرج أخيراً بفعل رمايات منجنيقنا المتواصلة ، ونتيجة لسحب الأحجار منه بعد نزعها ، وعندما توقف رجال الملك رتشارد عن اللغم ، وتم الاقلاع عن الحملات ، هنا قام المرشحون منا لمرتبة الفروسية (المتشوقين دوماً للاطراء والنصر) بتسليح أنفسهم ، وكان بينهم حاشية ايرل أوف ليستر ، ورجال أندرودي كاين Cayegin وهو غوبرن ، وكان هناك أيضاًرجال أسقف سالسبري وقد انتظموا بشكل رائع ، وعدد كبير آخر ، وكان الوقت حوالي وقت المغيب ، في ساعة العشاء ، عندما استعد هؤلاء الشجعان مع المرشحين الأعظم روعة للهجوم على البرج ، وتقدموا حتى استطاعوا بكل جرأة صعوده .

وعندما رآهم الخفراء من الترك صرخوا بصوت مرتفع فأيقظوا المدينة كلها ، وحمل الرجال السلاح بكل سرعة ، وبادروا يركضون بأعداد كبيرة ليتولوا الضغط على المهاجمين الذين كانوا يشقون طريقهم برشاقة .

وبينما رجالنا يحاولون دخول المدينة سعى الترك الى ردهم الى الخلف ، وقد اصطدموا مع بعضهم بعضاً وتقاتلوا يداً بيد، وواجهت يداً يمنى ، وقارع سيف سيفاً آخر ، وأمسك بعضهم ببعضهم الآخر ، وضرب بعضهم بعضهم الآخر ، وتم رد بعضهم وقتل بعضهم الآخر ، وكان تعداد رجالنا قليلاً ، غير أن أعداد الترك كانت بإزدياد مستمر ، وبرميهم للنفوط ، أرغموا رجالنا الذين لم يستطيعوا الصمود أمامها ، على التقهقر والنزول

من البرج ، وذلك بعدما قتل بعضهم على أيدي الأعداء ، ثم أحرقوا وتحولوا الى رماد بخلطات موادهم المدمرة، ثم تسلق البيازنة البرج بكل قوة ، وكانوا إما ظامئين للثناء أو متعطشين للانتقام ، ومن جديد قاتلهم الترك وكأنهم مجانين ، وصحيح أن البيزيين قاوموا بجرأة ، فقد أرغموا على التقهقر والتخلي عن البرج ، ولم يرقط ما يشبه الأتراك بالكفاءة والمقدرة بالحرب .

ولقد كان من الممكن الاستيلاء على المدينة في ذلك اليوم لو أن المعركة حوربت وفق خطة حكيمة بوساطة الجيش كله موحداً ، ولكن بما أن الجزء الأعظم كان وقتها يتناول العشاء ، كانت المحاولة محاولة احتمالية ولذلك لم تنجح .

كيف أبرم المحاصرون معاهدة مع المسيحيين وكيف تمت استعادة عكا

ماالذي يمكننا قوله حول هذا الجنس من غير المؤمنين الذين دافعوا على هذه الشاكلة عن مدينتهم ؟ إنهم ممن ينبغي الاعجاب بهم ، لشجاعتهم في الحرب ، ولقد مثلوا شرف أمتهم جمعاء ، ولو أنهم اتبعوا الايمان الصحيح ، لما وجدوا من يتفوق عليهم بين رجال العالم أجمع ، ومع ذلك ليس من دون سبب خافوا من رجالنا ، ذلك أنهم رأوا النخبة بين الجنود من بين جميع صفوف المسيحيين جاءوا لتدميرهم ، وأن جزءاً من أسوارهم قد سقط ، وجزءاً قد انشطر ، والجزء الأكبر من جيشهم قد تشوه بفعل الحرب ، وبعضهم قتل ، وآخرون قد أضعفتهم جراحهم .

وكان ما يزال في المدينة ستة آلاف من الترك مع المشطوب وقراقوش المقدمين عليهم ،وكانوا قد يئسوا من النجاح واعتقدوا بأن الجيش المسيحي كان قد وهنت عزيمته كثيراً لمقتل ألبيرك كليمنتس ولمصرع أبناء رجاله وأقربائهم ، الذين سقطوا في المعركة ، ورأوهم أيضاً أنهم كانوا مصرين إما على الموت بشجاعة أو تحقيق الفوز ولهذا فكروا بسلوك طريق شبه مذل ، وفي ظل الظروف ، التمس المحاصرون ، بعد اجتماع عام ، وموافقة جماعية ، الحصول على هدنة بغية إخبار صلاح الدين حول أحوالهم ، وللتأكد إلى أي مدى سوف يمنحهم الأمن ، وفقاً لطبائع الشعوب الهمجية ، إما بأن يرسل اليهم مساعدة عاجلة ، أو أن يسمح لهم بمغادرة المدينة والخروج منها بشرف .

وبغية الحصول على هذا الهدف ، جاء إثنان من أعلى المسلمين والكفار مرتبة وهما : المشطوب وقراقوش ، إلى ملوكنا مع وعد بأنه إذا لم يبعث صلاح الدين لهم بمساعدة عاجلة ، سيتخلون عن المدينة على شرط أن يسمح لجميع الأتراك المحاصرين بالمغادرة أحراراً ، وأعطى

ملك فـرنسا وتقريباً جميع الحضـور من الفرنسيين في المؤتمر ، مـوافقتهم ، لكن الملك رتشارد رفض بإصرار هذا ، وبعدمـا بات معلوماً ما يرضيه ، عاد قراقوش والمشطوب الى المدينة دون الوصول الى ما استهدفاه .

وعندما علـم صلاح الدين بأن رسـلاًقد بعثوا من قبـل المحاصرين ، أمرهم بالحفاظ عن المدينة والدفاع عنهـا بالقدر نفسه من الشجاعة التي أبدوهـا حتى الآن ، ووعـدهم بوفـرة كبيرة من المسـاعدات ستـأتي حالاً إليهم ، ذلـك أنه أعلن للـرسل الذيـن جاءوا من عنـدهم اليه ، أنـه بلا شك سـوف يتابع الصمـود ، وأنه كان يتـوقع وصول كتلـة كبيرة من الجند من مصر ، سوف يصلون بسفـن وشواني ، وأصدر أوامره الى قائده المشطوب أن يبقـى على اتصال به بـدون انقطاع لمدة ثمانية أيـام ، فإذا لم تصل المساعدات حسـب اتفاقهم فقد وعد ووثق وعـده باليمين ، أنه سيحصل للمحاصرين داخل عكا على سلام مشرف ، بقدر ما يستطيع ، من المسيحيين ، وأن يضمن حـريتهم بالخروج ،وعندما سمع الـرسل هذه الأشيـاء ، عادوا إلى عكـا ، وكرروا وعـود صـلاح الديـن ، وأقنعوا رجـال البلدة بالمقـاومة ، وذلك في الوقت الـذي كانوا ينتظرون فيـه بقلق وصول المساعدات الموعودة .

وفي الوقـت نفسه لم يتـوقف منجنيق المسيحيين لا بـالليل ولا بـالنهار ، لضعضعة الأسوار ، وعنـدما رأى الترك هذا ، أصيبوا بـالحيرة والدهشة ، والرعـب والاضطراب ، وألقى كثير منهم لشـدة رعبهم أنفسهم مـن فوق الأسوار خلال الليل ، ولم ينتظروا وصـول المساعدات الموعودة ، والتمسوا بتضرع تعميدهم وعدهم مسيحيين .

وأدرك صلاح الديـن مخاطر التأخير ، ولهذا قرر بعد طـول تفكر أن يقبل بمطـالب المحـاصريـن ويسلم بقـرارهـم ، وقد اقتنـع بـأن يفعل ذلـك بضغط من أمرائه وقادته ، وذوي النفوذ من رجال ادارته .

وبعدما جلب الرسل قرار صلاح الدين الى المحاصرين ، امتلاوا بسرور عظيم ، وتوجه على الفور أعيان المدينة الى الملكين ، وعرضوا من خلال المترجمين تسليم مدينة عكا بدون شروط مع صليب الصلبوت ومائتين وخمسين من أعيان أسرى المسيحيين ، وعندما أدركوا أن هذا العرض لم يرضهما عرضوا تسليم ألفين من نبلاء أسرى المسيحيين ، وخمسمائة من ذوي المراتب الأدنى ، وهؤلاء سوف يتولى صلاح الدين جمعهم من كل أجزاء مملكته ، وذلك إذا ما تركا الترك يغادرون مدينتهم ، بثيابهم التي عليهم فقط ، تاركين وراءهم أسلحتهم وممتلكاتهم ، ولسوف يدفعون فدية عن أنفسهم مائتي ألف دينار إسلامي ، وكضمانة لتنفيذ هذه الشروط عرضوا وضع جميع الأعيان وذوي المراتب الرفيعة من أهل المدينة بمثابة رهائن في أيديهم .

وبعدما تولى الملكان مع أكثر المقدمين حكمة تفحص المسألة ، كان القرار الصادر عن الجميع هو قبول العرض والموافقة على الشروط ، مقابل تأدية الأيمان ، وكتابة شروط السلام ، وإذا ما سلم المحاصرون الرهائن أولاً يمكنهم التخلي عن المدينة ومغادرتها دون أن يحملوا أي شيء معهم .

وبناء عليه ، جرى يوم الجمعة ، بعد انتقال القديس بندكت ، تسليم الأعيان الرئيسيين والأمراء ، وأخذ وا بمثابة رهائن ، وحدد موعد شهر واحد من أجل تسليم الصليب وجمع الأسرى ، وعندما أشيع في الخارج أن المدينة قد تم التخلي عنها ، اشتعل العامة - بحماقتهم - غضباً ، لكن الجزء الأكثر حكمة ابتهجوا ، تجاه هذه الصفقة الرابحة ، بدون مخاطر ، فهذا ما عجزوا عن تحقيقه منذ وقت طويل .وأعلن وقتها بصوت المنادي وجوب ألا يتعرض أي انسان بالإهانة للترك بالقول أو بالعمل ، وألا يثيروهم بالشتائم ، وأن يجري التوقف عن ارسال الرمايات من أجل تدمير الأسوار ، أو نحو الأتراك الذين يمكن رؤيتهم وراء الشرافات

، وعندما جاء اليوم الموعود ، ووقف الأتراك وظهروا فوق الأسوار جاهزين لمغادرة المدينة ، توجه المسيحيون نحو الأمام لينظروا اليهم ، واستبد بهم العجب عندما تذكروا الأفاعيل التي قاموا بها ، ودهشوا أيضاً لرؤية مظاهر البشر على وجوه هؤلاء الذين أخرجوا من مدينتهم وهم أقرب الى الإفلاس المالي ، ولم يتغير سلوكهم بسبب المحنة ، أما أولئك الذين أرغمتهم الضرورات القصوى على عدّ أنفسهم مهزومين ، وأن يلجأوا بأنفسهم الى التضرع لطلب العون ، فلم يحملوا أية علامات على الاهتمام والقلق مطلقاً ، وهم يتقدمون نحو الأمام ، ولم تظهر عليهم أدنى اشارات على الأسى لفقدانهم كل ما ملكوه ، وهكذا بدوا بتماسكهم وجلدهم الذي ظهر في محياهم ، أنهم هم المنتصرون ، وذلك لولا كفرهم وذنوبهم التعيسة التي اقترفوها ، فلطخت أمجادهم العسكرية .

وأخيراً بعد ما غادر جميع الترك ، دخل المسيحيون وعلى رأسهم ملكيهم الى المدينة من خلال الأبواب المفتوحة ، دخلوها وهم يرقصون ويبتهجون ، ويغنون بأصوات عالية تسابيح للرب، مع تقديم الشكر له والحمد ، لأنه أنزل رحمته عليهم ، وزارهم، وخلص شعبه .

ثم رفعت الرايات ومختلف الأعلام العائدة للملكين فوق الأسوار والأبراج ، وقسمت المدينة بالتساوي بينهما ، كما وزعا بينهما بشكل عادل الأسلحة والمؤن التي وجداها ، وجرى احصاء أعداد الأسرى ،ثم وزعوا بالتساوي ، ونال الملك الفرنسي في حصته قراقوش مع عدد كبير آخر ، وكان المشطوب والبقية حصة الملك رتشارد، زد على هذا أخذ ملك فرنسا ضمن حصته قصر الداوية مع كل امتيازاته وجميع ملحقاته ، وأخذ الملك رتشارد القصر الملكي ، واليه أرسل الملكتين مع وصيفاتهن وخدمهن ، وهكذا تملك كل واحد منهما حصته بسلام ، وجرى توزيع الجيش في أرجاء المدينة ، وأعطى أفراده لأنفسهم بعد صراع مرير لحصار طويل الغفران، وجددوا نشاطهم بالراحة التي كانوا بحاجة اليها .

وكانت المدة التي انقضت فيما بين يوم استيلاء المسلمين على مدينة عكا، واليوم الذي أعقب عيد القديس بندكت، الذي فيه استردت، أربع سنوات، وكان من غير الممكن تفحص أوضاع الكنائس دون الاصابة بالرعب، ولم نتمكن من دون الشعور بالألم حكاية الأشياء غير اللائقة التي اقترفت فيهن، لأنه من الذي يمكنه أن يقف بدون دموع عندما ينظر إلى مظهر التماثيل المقدسة لصلب ابن الرب، وصور عدد كبير من القديسين وقد لطخت أو شوهت بوسيلة أو أخرى؟ ومن هو الذي كان لن سيرتجف رعباً أمام المنظر المخيف للمذابح وقد قلبت، وأشكال الصلبان وقد ألقيت على الأرض وديست احتقاراً من قبل تلك الأمة المهينة وغير التقية، أي أمة الترك، وطمست جميع آثار خلاص الانسان والمتعلقة بالديانة المسيحية، وجرى عرض ماتعلق بالشعائر الاسلامية في الأماكن المقدسة.

وتراجع صلاح الدين في الليلة التي أعقبت دخولنا، لخوفه منا، من مكانه الذي كان متمركزاً فيه إلى واحد من أبعد الجبال.

- ٨٧٧ -

حول الخصام بين الملكين

ونشب الآن خصام شديد بين الملكين حول مركيز مونتفرات، الذي آثره ملك فرنسا، والذي إليه قرر أن يمنح الحصة التي وقعت إليه الآن أو في المستقبل، في الأراضي المقدسة، لكن الملك رتشارد الذي شعر بالعطف نحو تعاسة الملك غي، لم يكن ليوافق على هذا العطاء، لأنه رأى أن كل شيء هو عائد إلى الملك غي وملك له.

وعاش الملكان في فراق حول هذه المسألة لبعض الوقت، حتى تصالحا بناء على وساطة المقدمين وقادة الناس، وقضى الصلح أن يعدّ المركيز هو الوريث عن طريق الزواج للعرش، وينبغي أن يعطى حكم صور (أي: صور، وصيدا، وبيروت) مع لقب كونت، وذلك كتعويض له عن المساعدة التي قدمها أثناء الحصار، وتوجب أيضاً أن يكون غودفري دي لوزغنان، لكونه أخي الملك غي، كونت يافا (أي: يافا وعسقلان) وذلك كتعويض على خدماته، وإذا مامات غي قبل المركيز، ينبغي أن يؤول التاج إلى المركيز، مع أنه تزوج من وريثة العرش بشكل غير شرعي، لكن إذا ماحدث وتوفي المركيز وزوجته، أثناء إقامة الملك رتشارد في هذه المناطق، فوقتها يترك إليه التصرف بمنح المملكة حسبما يشاء؛ وعلى أساس هذه الشروط انتهى الخلاف بينهما إلى الأبد.

لقد كانت هكذا الأوضاع عند نهاية شهر تموز، وهو الشهر الذي وعد الترك أنهم سيعيدون خلاله صليب الصلبوت، وبالمقابل يستعيدون الرهائن، وشاعت أخبار بين عناصر الجيش أن ملك فرنسا (الذي رست عليه آمال الناس) عازم على العودة إلى وطنه، وكان يعد اعداداً حثيثاً لرحلته، ولكم كان سيئاً ومهيناً القيام بمثل هذا العمل، وأن تتوفر الرغبة فيه، في حين مازال هناك الكثير من العمل للقيام به، وأن يذهب في حين

أن واجبه كان يقضي عليه أن يتولى حكم هذا الحشد الهائل من الناس، وعندما كان وجوده ضرورياً جداً لتشجيع المسيحيين على متابعة مثل هذا العمل الديني المقدس، وأن يسهم في تقدم مثل هذا الواجب الثقيل، فلماذا جاء عبر هذا الطريق الطويل، وتحمل هذه المشاق، إذا كان قد عزم على العودة مباشرة تقريباً! وهل هو انجاز رائع وتنفيذ لتعهده، بمجرد الدخول إلى الأراضي المقدسة، والنضال ضد الترك، ومن ثم الحصول على مثل هذا النصر الصغير!

وادعى الملك الفرنسي أن سبب عودته هو المرض*، وقال بأن وفى بنذره بقدر ما استطاع، وفي الحقيقة لايجوز أن ننكر أنه بذل كثيراً من الجهد والمال في الأراضي المقدسة، وفي الهجوم على المدينة، وأنه أمن المساعدة لعدد كبير من الناس، وأنه بفضل نفوذه ووجوده تحقق بشكل أسرع تنفيذ الاستيلاء على عكا.

لكن عندما بات قراره الثابت بالعودة معروفاً لدى الجميع، وعندما رفض التراجع أمام عدد كبير من رجاله، ولم يستجب لالتماساتهم بالبقاء، كان الفرنسيون، لواستطاعوا، على استعداد للتخلي عن طاعتهم له، ولاشمأزوا من حكمه، وحدث أن أنزلوا عليه كل أنواع اللعنات، وأماني السوء، والحظ العاثر، وغير ذلك مما يمكن أن ينزل بانسان خلال حياته، ومع ذلك كله، أسرع ملك فرنسا في رحلته، وبالمغادرة كيفما استطاع، وترك عوضاً عنه دوق بيرغندي مع عدد كبير من رجاله، زد على هذا التمس من الملك رتشارد أن يزوده باثنتين من شوانيه، وأعطاه الملك اثنتين من أحسن ماكان لديه، ولكم كان غير وفي وناكر لخدماته هذه، هذا ماسوف يرى فيما بعد.

---

*— بالاضافة إلى مرضه، شك الملك الفرنسي بالاتصالات التي جرت بين رتشارد وصلاح الدين، كما أنه كان يرغب بالعودة ليستولي على فلاندرز التي توفي كونتها أثناء حصار عكا.

ورأى الملك رتشارد وجوب دخول ملك فرنسا في ميثاق معه من أجل الحفاظ على أمنهما المتبادل، لأنهما مثل آبائهما نظرا إلى بعضهما بعدم ثقة تحت غطاء الصداقة، ولهذا طلب الملك رتشارد من ملك فرنسا أداء يمين له أنه سيبقى وفياً له، ولن يؤذي رجاله أو بلاده عن معرفة أوبقصد، مادام الملك رتشارد باقياً في الأراضي الأجنبية، وأدى له ملك فرنسا اليمين وأعطاه دوق بيرغندي والكونت هنري بمثابة رهينتين وذلك مع خمسة آخرين أو ستة، فقدت أسماؤهم، ومعروف للدنيا كلها كيف حافظ على ميثاقه ويمينه، ذلك أنه ماأن وصل إلى بلاده حتى أهاجها، وسبب الاضطراب لنورماندي.

وودع ملك فرنسا جيشه وتركه في عكا، وتلقى عوضاً عن التبريكات، الأماني بسوء المنقلب واللعنات من الجميع، وبناء عليه صعد ظهر السفينة في يوم عيد القديس بطرس، وأبحر نحو صور، ولكنه ترك الشطر الأعظم من جيشه مع الملك رتشارد، وأخذ معه المركيزات غير المشهورين وقراقوش والرهائن الآخرين الذين كانوا ضمن حصته، وقدر أنه سوف يتسلم مقابل فديتهم مائة ألف قطعة ذهبية أو أكثر، مما سيكفي جيشه والانفاق عليه حتى الفصح.

لكن لدى إيماءته إلى الترك حول التباحث بشأن الفدية، لم يلتفتوا إليه، وكان واضحاً أنهم لم يكونوا على استعداد لدفع بيضة أو ريشة مقابل اطلاق سراحهم، ولهذا مات أكثر الرهائن على هذه الصورة ولم يدفع شيء، ومامن أحد ربح شيء مطلقاً، ولاحتى أية حصة من المؤن التي وجدت في المدينة، واعتاد الفرنسيون دوماً أن يتذكروا أنهم لم يتسلموا من ملك فرنسا زيادة على هذه المكافأة، ولهذا السبب غالباً ماقامت المشاحنات والخصومات فيما بينهم حتى قام الملك رتشارد — بناء على طلب من دوق بيرغندي — فأدانه، زيادة على ماليه من رهائن خمسة آلاف مارك فضي للانفاق على رجاله.

وعندما أدرك الملك رتشارد أن إكمال الأعمال، وتقدم الشؤون، مع الجهد والانفاق بات واقعاً عليه بشكل رئيسي، قدم هبات كثيرة من الذهب والفضة إلى الفرنسيين وإلى الآخرين من كل أمة من الأمم، حتى يجندوا أنفسهم له عن رغبة، ولينقذوا ماتعهدوا القيام بانقاذه.

وإثر عودة ملك فرنسا مسرعاً إلى بلاده، حول الملك رتشارد جميع اهتمامه نحو ترميم الأسوار، ورفعها إلى علو كبير، وجعلها أكثر كمالاً مما كانت عليه من قبل أن يطاح بها،ومشى هو نفسه حول الأسوار، وحث العمال والحجارين، وكأن اهتمامه كله هو النضال من أجل استرداد ميراث الرب.

وبناء عليه انتظر الموعد الذي تم الاتفاق عليه بين الترك وبينه شخصياً، وصرف انتباهه نحو اعداد الآلات والمجانيق لشحنها، وعندما مضى الوقت الذي حدده الترك من أجل رد الصليب وفدية الرهائن، انتظر لمدة ثلاثة أسابيع مراعاة للاتفاق، ليرى فيما إذا كان صلاح الدين سيحفظ كلمته وميثاقه، ثم إنه لما ظهر أن صلاح الدين لم يكن مبالياً بالموضوع، عدّه الملك ورآه بمثابة منتهك لمواعيده، ولعل هذا كان تدبيراً ربانياً، حتى يمكن تحصيل شيء أعظم فائدة، غير أن المسلمين طلبوا منحهم وقتاً أطول للوفاء بوعودهم، وليبحثوا عن الصليب.

ثم كان عليك أن تستمع إلى المسيحيين وهم يسألون عن الأخبار، ومتى سيأتي الصليب، وكان أحدهم يقول متسائلاً:«الصليب قادم»! ويقول آخر بأنه رأى الصليب في الجيش الاسلامي، لكن كل متحدث كان مخدوعاً، لأن صلاح الدين لم يتخذ أي اجراء لاسترداد الصليب، لابل أهمل الرهائن الذين كانوا محتفظ بهم من أجله، ذلك أنه أمل أن يحصل بوساطته على المزيد من المنافع والشروط المفيدة، وأرسل بالوقت نفسه هدايا ورسائل متواصلة إلى الملك رتشارد حتى يربح التأخير بكلمات مزخرفة ومخادعة.

وأرسلت بالوقت نفسه رسائل إلى صور، لأمر المركيز أن يعود إلى الجيش، وليجلب معه الرهائن التي عهد بها إليه، وذلك من أجل الحصول على فديتهم، ورد المركيز على هذه الرسائل بشكل ساخط، في أنه لايتجرأ على المغامرة ليمثل بحضرة الملك رتشارد، وزيادة على هذا تبجح قائلاً أنه إذا ماجرى استرداد الصليب، يتوجب أن يسلم إليه النصف وهو حصة ملك فرنسا، وأنه مالم يتحقق هذا، هو لن يتخلى عن الرهائن، وسعى الرسل إلى اقناعه بوساطة الوعظ اللطيف، وعرضوا عليه أن يتركوا واحداً منهم بمثابة رهينة، وذلك كضمانة على أمانه أثناء الرحلة، وأن ذلك من قبل الملك رتشارد، لكنهم لم يفلحوا في اقناعه، لابل أكثر من هذا لقد أشفع رده بعدم العودة بيمين، ولهذا عادوا مخفقين، وفارغي الوفاض، وزادوا من تأجيج غضب الملك باخباره بالقصة كلها.

وجرى ارسال دوق بيرغندي، ودروغو دي أمين Amiensوروبرت دي كو نسي Quincey بسفارة ثانية إلى المركيز المذكور، ليأتي معهم إلى الجيش، غير أنه رد عليهم بعجرفة واحتجاج أنه لن يذهب، وسيحافظ على حكمه لمدينته، وعندما ردوا على تأكيداته بحجج مناقضة، أمكن الوصول بالمسألة بعد صعوبات إلى النقطة التالية: يتوجب على الرسل أن يأخذوا معهم الرهائن المسلمين إلى الملك رتشارد، لكنهم لم يستطيعوا بكل وسائل الاقناع التغلب على المركيز حتى يتحول عن نواياه العنيدة.

وعندما بات واضحاً للملك رتشارد، أن مدة أطول مما هو مقرر قد مرت، وأن صلاح الدين ماضي في عناده، ولن يعبأ بفداء الرهائن، عندها دعا إلى اجتماع لأعيان الناس، حيث تقرر بالاجماع وجوب شنق جميع الرهائن باستثناء عدد قليل من النبلاء وأصحاب المراتب العالية، الذين يمكنهم فداء أنفسهم، أو مبادلتهم ببعض الأسرى المسيحيين.

وفي يوم الجمعة بعد عيد صعود مريم العذراء المباركة (١٥ آب)، ألهم

الملك رتشارد بوجوب تدميرأصول وفروع الترك، وإنزال العقاب برعونتهم الداعرة، وكذلك ازالة الشريعة الاسلامية، ونشر الديانة المسيحية، وبناء عليه أمر بسوق ألفين وسبعمائة من الرهائن الأتراك إلى خارج المدينة، وشنقهم، وتقدم جنده بسرور عظيم لتنفيذ أوامره وللانتقام، بموافقة النعمة الربانية، من هؤلاء الذين قتلوا كثيراً جداً من المسيحيين.

وعند حلول المساء تم الاعلان بصوت المنادي بوجوب زحف الجيش في الغد، وعبور نهر عكا باسم الرب، موزع الأشياء الجيدة، وذلك بغية الزحف نحو عسقلان، والاستيلاء على تلك المناطق البحرية، وصدرت الأوامر أيضاً أنه ينبغي على السفن أن تحمل على ظهرها مؤونة عشرة أيام للجيش؛ من البقسماط ، والوجبات واللحوم، والخمرة، وكل مايرى ضرورياً أيضاً، وقضت الأوامر على بحارة سفن الشحن والنقل التي حملت الميرة وكذلك رجالاً مسلحين، الالتزام بدقة الابحار على محاذاة الشاطيء، وهكذا تقدمت القوات على محورين، واحد في البحر وآخر في البر، لأنه كان من غير الممكن الاحتفاظ بالمنطقة وهي مشغولة تماماً من قبل الترك.

كيف نصب الملك رتشارد خيامه خارج عكا

في خلال الشتائين والصيف الواحد وإلى وسط الخريف عندما جرى شنق الأتراك (لأنهم استحقوا ذلك أمام الرب والبشر، مقابل تدميرهم لكنائسنا وقتلهم لرجالنا) مات كثير من المسيحيين الذين اشتركوا في حصار عكا وضحوا تضحيات عظيمة، وكان الحشد الذي مات من هذا الجيش العملاق أكبر من أن يحصى، ولقد فقدنا في الجيش ستة رؤساء أساقفة وبطارقة، واثني عشر أسقفاً، وأربعين كونتاً، وخمسمائة رجل من طبقة النبلاء، وكذلك عدداً كبيراً جداً من الكهنة ورجال الدين، مع آخرين من غير الممكن تعدادهم بشكل صحيح.

وعوفي الملك رتشارد إثر شنق الأتراك مباشرة، وبناء عليه خرج من المدينة مع حاشيته كلها، وأمر بنصب خيامه في السهل خارج المدينة، وبذلك اتخذ الجيش محلاته فوق السهل، ليكون جاهزاً للزحف، وجرى جذب بعض الفرنسيين بالكلمات الناعمة، وآخرين بالتوسل والرجاء، وكثير منهم بالمال، وذلك لمغادرة أماكنهم، وأرغم الملك بعضهم على الخروج بالقوة.

ولكن وضح أنهم خرجوا متثاقلين ومتذمرين، ولم يزدد تعداد الجيش، بينما كانت المدينة تعج بحشد هائل، وبلغ تعداد الجيش، بما فيهم الذين كانوا بالمدينة، ثلاثمائة ألف رجل.

واعتاد الناس على التراخي والرفاهية، لأن المدينة كانت مليئة بالمسرات حيث توفرت أفضل أنواع الخمور وأجمل الفتيات، وانغمس الناس بمفاسدهم، وهكذا تدنست المدينة بموبقات أبناء الخطيئة، وبينهم سكانها الذين جعلوا وجوه العقلاء تحمّر خجلاً من انعدام حيائهم، ومن أجل التخلص من هذه الموبقات صدرت الأوامر عن

اجتماع المجلس بمنع أي امرأة بالخروج من المدينة أو الذهاب مع الجيش، فيما عدا الغسالات اللائي لن يكن حملاً على أفراد الجيش، ولن يهيئن الفرصة للذنوب.

ثم عين الملك رتشارد عدداً كبيراً من الحرس للإقامة حول سرادقه من أجل حمايته، لأن الترك كانوا يقومون بغارات مستمرة، وقد اعتادوا طوال النهار القدوم والانقضاض عليهم وهم غير متنبهين، وكانت عادة الملك أن يكون الأول في الخروج إلى قتالهم وانزال العقوبة بهم، بقدر ماكانت العناية السماوية تسمح له.

وحدث في أحد الأيام أن وضع معسكرنا في حالة هياج بوساطة الترك، الذين هاجمونا وأحدثوا اضطراباً كبيراً، وهب رجالنا على الفور لحمل السلاح، واندفع الملك وفرسانه نحو الأمام، وكذلك كونت هنغاريا وكثير جداً من الهنغاريين معه، وقد أرغموا الترك على الفرار، وطاردوهم أبعد مما كان ينبغي أن يفعلوا، وأخذ بعض رجالنا أسرى في تلك البقعة وعوملوا معاملة مشينة مع أنهم تصرفوا تصرفات نبيلة جداً.

وأخذ كونت هنغاريا نفسه أسيراً من قبل الترك مع أنه كان رجلاً مجرب الشجاعة وشهيراً، وحمل بعيداً وكذلك رجلاً من بواتو اسمه هيوج، وكان مارشال الملك رتشارد، وقاتل الملك بلا وعي، ودون أن يعبأ بسلامة شخصه، وناضل بكل ماأوتيه من قوة لانقاذ مارشال هيوج، لكنه أسر بسرعة كبيرة جداً وحمل بعيداً، فلكم هو مصير الحرب غير مؤكد، فهؤلاء الذين حتى الآن منتصرين غالباً ماانهزموا ، وترى غداً الذين انهزموا فجأة منتصرين، ولقد كان مقدراً على الذين هزموا العدو أن يسقطوا هم أنفسهم ويموتوا، لأن المطارَدين الآن أصبحوا أسرى المطارِدين، والذي كان مدوناً لهم مجداً تبرهن الآن أنه حماقتهم، وغدت أفاعيل الشجاعة السبب للمخاطر.

ولم يكن الترك مثقلين بالسوابغ والدروع مثل رجالنا، وآذونا بمرونة حركتهم وسهولتها بشدة أكثر مما كان متوقعاً، وكان سلاحهم في الغالب سلاحاً خفيفاً، يحملون فقط قوساً أو دبوساً مسلح رأسه بأسنان حادة، أو بسيف أو برمح خفيف سنانه من حديد، ومدية معلقة بشكل خفيف، وعندما يهزمون من قبل قوة أعظم من قواهم، كانوا ينهزمون ويبتعدون على ظهور خيولهم بأقصى سرعة ممكنة، وليس هناك من يوازيهم في رشاقتهم في جميع أنحاء العالم، ومن عادتهم أنهم إذا مارأوا مطارديهم توقفوا عن المطاردة، الانعطاف والعودة، ومثلهم في ذلك مثل الذبابة، إذا ماطردتها تذهب، لكن عندما تتوقف سوف تعود، ومادمت تطاردها، تراها تطير، لكنها تعاود الظهور في اللحظة التي تتوقف فيها، وهكذا الأتراك عندما تتوقف عن مطاردتهم يطاردوك، وإذا قاتلتهم يطيرون بعيداً، وبناء عليه عندما جعلهم الملك يفرون، هربوا بدون توقف، ولكن عندما توقف ليعود، هددوه من الخلف، وأحياناً ليس بدون عقاب، وأحياناً ليس بدون الحاق الأذى برجالنا.

وفي صباح اليوم الذي كنا سنزحف فيه نحو عسقلان، سلح الجنود أنفسهم، وأصبحوا مستعدين في تعبئة كاملة، وبقي الملك نفسه في ساقة الجيش لصد الترك الذين هددوا باثارة المتاعب، ومن اللحظة التي شاهد فيها هذا الجنس البعيد عن التقوى، جيشنا يتحرك، تدفقوا من الجبال في مجموعات متفرقة، مثل المياه المندفعة، ووزعوا أنفسهم في مجموعات في كل منها مابين العشرين إلى الثلاثين، بحثاً عن أفضل الفرص لمضايقتنا، ذلك أنهم كانوا مزعوجين جداً لموت آبائهم وأقربائهم، الذين رأوا جثثهم المقتولة موزعة في المنطقة هناك، ولهذا ضغطوا بشدة على جيشنا باستمرار، لكن بفضل العناية الربانية لم ينجحوا بقدر مارغبوا، لأن جيشنا عبر فوق نهر عكا دونما أذى، ومن جديد نصب خيامه على الطرف الآخر من النهر حتى يوم الجمعة، (وهو عشية يوم عيد القديس بارثلميو)

ففي ذلك اليوم احتشدوا مع بعضهم، ومع يوم الاثنين التالي كان قد مضى عامان منذ أن بدأ المسيحيون بإلقاء الحصار على عكا.

وفي صباح اليوم الذي أعقب عيد القديس بارثلميو، اصطف الجيش ليزحف على طول شاطىء البحر باسم الرب، ولكم كان جيشاً رائعاً بجند ممتازين، فقد كان بإمكانك أن ترى هناك جماعة من نخبة الشباب ذوي الفضائل والشجاعة، كان من الصعب أن تقابل من يوازيهم،أسلحة براقة، وأعلام ذات زخارف مشعة، ورايات ذات أشكال متنوعة، ورماح ذات أسنة لامعة، وخوذ مشرقة، وكذلك الدروع والسوابغ، فلقد كان جيشاً تمت تعبئته بشكل جيد في المعسكر، وكان جيشاً مرعباً للعدو.

كيف زحف الجيش نحو عسقلان

وقاد الملك رتشارد الطليعة، واحتفظ بخيرة الحراس وأعلاهم كفاءة وكانوا من النورمان للدفاع عن الراية، ونحن لانرى هنا خروجاً عن الموضوع الاقدام على وصفها، فقد كانت مكونة من جزع شجرة طويل مثل صاري السفينة، منتخب من أصلب أنواع الخشب، ووضع فوق أربعة دواليب (عجل)، وجرى ربط الجميع بأربطة حديدية، وبذلك بدت أنه لاسيف أو بلطة يمكن أن تقطعها، كما لايمكن للنار أن تؤذيها، وجرت العادة باختيار كوكبة من الجنود وتعيينها لحراستها، خاصة أثناء المعارك في السهول، وذلك خشية أنها إذا ماتعرضت لهجوم معادي أن تتحطم أو تلقى أرضاً، لأنه إذا حدث وسقطت لسبب ما، فالجيش كله سيتمزق وتضطرب أحواله، وإذا لم تظهر، يشعرون بالرعب، ويعتقدون أن قائدهم لابد وقد أصيب إصابة أفقدته وعيه، ومامن شعب يمتلك القدرة على مقاومة عدوه إذا كان مقدمه في وضع خطر منذ زمن سقوط الراية، لكن إذا بقيت مرفوعة، لديهم وقتها ملاذ يعودون إليه، فبجانبها يقوى الضعفاء والجنود الجرحى (حتى من أصحاب المراتب والشهرة)، وكذلك الذين يسقطون في المعركة يحملون إلى قربها، وتدعى الراية العظمى، لأنها أعظم شعار وشارة للجيش في أثناء القتال، وموائم كثيراً جرها فوق العجلات، لأنه عندما يتراجع العدو تتقدم، وإذا ماحدث العكس يجري جرها إلى الخلف وفقاً لأوضاع المعركة.

وجاء دوق بيرغندي مع الفرنسيين في الساقة، وسببت حركتهم البطيئة وتأخرهم الطويل، وقوع خسائر كبيرة، وزحف الجيش على محاذاة شاطىء البحر، الذي وقع على يمينه، وراقب الترك تحركاته من أماكن مرتفعة على اليسار، وفجأة أصبحت الغيوم داكنة، واضطربت السماء، وعندما وصل الجيش إلى واحد من الطرق الضيقة، الذي لايمكن عبوره بسبب عربات

المؤن، هنا تخلى الجيش عن نظام تعبئته، بسبب ضيق الطريق، واضطربت أحواله، وبات الزحف في خط طويل، بدون نظام.

وما أن رأى المسلمون هذا، حتى تدفقوا فجأة على دواب الحمولة، وعلى عربات الأثقال، وفي لحظة قتلوا الخيول والرجال، وسلبوا كثيراً من الأثقال، وهاجموا بجرأة الذين تصدوا لهم وشتتوهم بعيداً حتى شاطىء البحر، ثم أعقب هذا نشوب صدام عنيف، قاتل فيه كل انسان في سبيل حياته، ووقتها قطع الترك اليد اليمنى لإفرارد الذي كان من رجال أسقف سالسبري، قطعوها وهو ممسك لسيفه بها، ودون أن يبدل الرجل من تماسكه العام ومظهره شيئاً تناول السيف بشجاعة بيده اليسرى، والتحم بالترك الذين كانوا يضغطون عليه، ودافع عن نفسه بشجاعة ضدهم، وفي هذه الساعة اضطربت الساقة وتشوشت كثيراً، وخشي جون فتزر لوك من تردي الأوضاع، فغمز بمهمازيه حصانه ومضى إلى الملك رتشارد الذي كان جاهلاً بما كان يحدث.

ولدى سماعه بهذا، بادر مسرعاً تمام السرعة، لمساعدتهم، ومزق الترك من على اليمين واليسار، بسيفه مثل البرق، وبسرعة انهزم الترك الآن، مثلما هرب الفلسطينيون في الأيام الخوالي من المكابيين، على هذه الشاكلة فروا من أمام الملك رتشارد، واتجهوا نحو الجبال، لكن بعضهم بقي بيننا بسبب فقدانهم لرؤوسهم.

وحدث في أثناء هذا القتال أن أحد الفرنسيين، واسمه وليم دي بارتي Bartis ، وكان على خلاف مع الملك رتشارد بسبب حسد قديم، قد تصالح معه، ورده الملك إلى حظيرته بفضل حسن تصرفه غير الاعتيادي.

ولم يكن السلطان بعيداً ومعه كل القوة الرئيسية لجيشه، لكن الترك يئسوا من النجاح بسبب هذه الحملة الموفقة، لذلك تمنعوا عن المزيد من قتال رجالنا، مرة ثانية، لكن تابعوا مراقبتهم من المرتفعات، وعندما

انتظم رجالنا مرة ثانية، تابعوا زحفهم حتى النهر الذي التقوا به صدفة، ولوجود صهاريج مياه جيدة استفادوا منها، نصبوا خيامهم هناك وارتاحوا ليستفيدوا من السهل الخصب، ووجدوا أن صلاح الدين تقدم له أن نصب معسكره هناك، وحكموا من خلال الأرض المداسة أنه امتلك جيشاً كبيراً جداً.

وكان صلاح الدين وأتراكه مستنفرين دوماً مستعدين لإلحاق الأذى بنا، وقد استولوا على بعض الممرات بين الجبال الوعرة، وتوجب على جيشنا أن يتابع زحفه عبرها، وعزموا على قتلنا أو أسرنا أو تشتيتنا عندما سنتقدم في صف طويل، لكن عندما زحف جيشنا من النهر بحذر وعلى مهل حتى حيفا، تمكنا من نصب خيمنا هناك، وانتظرنا كتلة الجيش الكبرى التي كانت تتبعنا.

وتمركزنا فيما بين حيفا والبحر، ومكثنا هناك لمدة يومين، نعد أنفسنا ونتفحص الأمور، ونستعرض أثقالنا، حيث رمينا مااعتقدنا أننا نستطيع أن نتخلى عنه، واحتفظنا فقط بماكان ضرورياً تماماً، لأن الجنود الرجالة زحفوا على أقدامهم، في حين عانينا نحن من ثقل الأحمال والميرة، ولهذا عانوا في أثناء القتال من كثير من الإنهاك والعطش.

وفي يوم الأربعاء، الذي وافق اليوم الثالث الذي تلا وقوفنا عند حيفا، تحرك الجيش نحو الأمام، وقام الداوية في المقدمة، وتمركز الاسبتارية في الساقة، وبرهن فرسان الفئتان على قدرتهما العظيمة على التحمل وبالتالي على الشجاعة العظيمة.

وزحف الجيش في ذلك اليوم بحذر أكثر من المعتاد، وتوقف بعد مسيرة طويلة، فقد أغراه مارآه من كثافة الأعشاب وطولها، التي ضربت وجوه أفراده، خاصة وجوه الرجالة، وكان في هذه المناطق الساحلية أعداد كبيرة من الحيوانات البرية (اليرابيع) التي قفزت فيما بين أقدامهم

من بين الأعشاب الطويلة والكثيفة، وتم امساك كثير منها، ليس عن عمد، بل لأنها جاءت في طريقهم بالصدفة.

وبعدما سار الملك حتى تلحوم (التي هدمها المسلمون تماماً) ترجل وتناول بعض الطعام والجيش واقف ينتظر، ومن أراد منه تناول طعامه، وفور الفراغ تابعوا زحفهم حتى بيت عرف باسم «بيت الطرق الضيقة»، لأن الطريق هنا بات ضيقاً، وقد توقفوا هناك ونصبوا خيامهم.

وكان من عادةالجيش كل ليلة قبل الجلوس للراحة ندب واحد من الناس ليقف في وسط المعسكر وليصرخ بصوت مرتفع «العون، العون، من أجل الضريح المقدس»، وعندما كان بقية الجيش يسمعونه يرددون هذه الكلمات، ويرفعون أيديهم نحو السماء، وسط دموع منهمرة، وكانوا يصلون ويدعون طلباً للرحمة ولعون الرب في هذا المقصد، ثم كان المنادي نفسه يردد الكلمات بصوت مرتفع، ثم يرددها كل انسان وراءه للمرة الثانية، وبعد ذلك كان هذا يتكرر للمرة الثالثة بقلوب نادمة مع كثير من البكاء، فمن الذي كان بإمكانه التمنع عن البكاء في مثل هذه اللحظة؟ وبدا الجيش بعد الصراخ وفق هذه الطريقة وقد استرد نشاطه وارتفعت معنوياته.

وهاجمنا كل ليلة نوع من أنواع الزواحف، تدعى الثعابين، التي كانت تزحف على الأرض، وتلدغ لدغة سامة جداً، وكانت في النهار غير مؤذية، لكن مع حلول الليل، اعتادت أن تلدغ بشكل متواصل، وكان الذين يلدغون يتورمون على الفور بالسم، ويعانون من آلام حادة، واستخدم الذين تعرضوا للدغ من النبلاء والأغنياء نوعاً من مراهم الترياق بوضعه فوق مكان اللدغ، وبرهن الترياق أنه فعال في إزالة الألم، وأدرك أخيراً الأكثر فهماً وملاحظة بيننا أن الثعابين كانت تخاف وتهرب من الأصوات المرتفعة، لذلك أخذوا يصدرون أصواتاً عالية لدى اقترابها منهم، بوساطة الضرب على مقاعدهم، أو أعمدتهم أو الصناديق الخشبية أو

الأباريق، أو الطسوت، أو الصحون، أو المراجل، أو أية أداة من أدوات المنزل كانت تصل إلى أيديهم لإحداث صوت كاف بها، وطردوا بوساطة هذه الأصوات الثعابين.

وبقي الجيش لمدة يومين في ذلك المنزل المتقدم الذكر، حيث توفرت ساحة كبيرة للعسكرة، وانتظروا هناك حتى وصول السفن التي كانوا يتوقعونها، وأعني بهذا البوارج والشواني المشحونة بالميرة التي كانوا بحاجة إليها.

ثم تحرك الجيش، مستخدماً جميع الاحتياطات ضد الترك الذين بقوا على جناحهم حتى بلدة تدعى الملاحة، حيث كان الملك قد أمضى إحدى الليالي الماضية، وقرر هنا أن يتولى بنفسه قيادة المقدمة في اليوم المقبل، بسبب العوائق على الطريق، ولأن الداوية مكثوا في حراسة الساقة.

ولبس الملك في ذلك اليوم مهمازيه، وانقض على الترك وهو حانق جداً، وكان على وشك قطف ثمار مجد عظيم لولا أن أعاقه بعضهم وأخروه، مما عرقل نجاحه، لأنه بعدما طارد الملك رتشارد الأتراك إلى مسافة، توقف بعض رجاله فجأة، الأمر الذي عرضهم للوم في المساء، ولو أن أصحاب الملك تبعوه في المطاردة وتابعوا الجري وراء الترك، لنالوا نصراً مبيناً، لأن الملك دفع الجميع أمامه.

وواجه الملك مصاعب جمة لدى زحفه على طرف البحر بسبب الحرارة العالية، لأن الوقت كان ضيقاً، وهم قد ساروا رحلة يوم طويل، وأنهك المسير عدداً كبيراً منهم، فسقطوا موتى، ودفنوا حيث ماتوا، وعطفاً من الملك ورحمة أمر بعدد كبير ممن أنهكهم التعب من المسير أو المرض، أو أي سبب آخر، أن ينقلوا بوساطة الشواني والسفن إلى غايتهم، ووصل الجيش إلى قيسارية.

وكان الترك قبلهم هناك، وكانوا قد دمروا قسماً من الأبراج والأسوار، ودمروا المدينة بالقدر المستطاع، لكن عند وصول جيشنا هربوا، ونصب الجيش هناك خيامه وأمضى الليل على طرف نهر قرب المدينة، كان يعرف باسم نهر التماسيح (نهر الزرقا) لأن التماسيح افترست في احدى المرات اثنين من العساكر وهم يسبحون فيه.

وكان محيط مدينة قيسارية واسع جداً، والأبنية رائعة فخمة وبهية، وغالباً مازارها مخلصنا ومعه حواريه، وصنع معجزات فيها، إنه هنا كان الملك قد أمر سفنه بمقابلة الجيش، وأمر الملك بالوقت نفسه بالاعلان في مدينة عكا بوساطة صوت المنادي، أن على الذين تخلفوا في المدينة لكسلهم الصعود إلى ظهور السفن التي أرسلت والقدوم إلى الجيش حباً للرب، للمساعدة على انجاح هدف المسيحيين، ولينفذوا عهد حجهم بكمال أعظم، وأطاع العديد منهم أوامره وقدموا إلى قيسارية مع الأسطول، الذي كان مشحوناً بوفرة من الميرة، وهيأ أن تتقدم السفن من ذلك المكان لتبقى على اتصال بالجيش ولتقدم له الخدمات.

وتجمع عدد كبير من السفن معاً، وعندما قسم الملك جيشه إلى فرق، انطلقوا في أحد الأيام في حوالي الساعة التاسعة، بخطوات بطيئة، بسبب أن الترك ضايقوهم عندما غادروا مراكزهم، ثم اقتربوا منهم كثيراً بقدر ماتجرأوا، وأنزلوا بهم ماستطاعوا الأذى والمضايقة.

وقد أزعجونا في هذا اليوم أكثر من المعتاد، لكن بعون الرب نجونا دونما أذى، لأننا تمكنا من قطع رأس واحد من أمرائهم، وكان رجلاً عظيم الشجاعة، ومشهوراً لاقدامه، وكان قوياً جداً إلى حد أن مامن أحد — كما قيل — كان يستطيع أن يرميه من على ظهر حصانه، أو يتجرأ حتى على قتاله، وقد حمل رمحاً كان أثقل بمرتين من رماحنا أطلق عليه اسم «رمح اياز»، وحزن الترك حزناً شديداً لمقتله واستولى عليهم الأسى، إلى حد أنهم قطعوا ذيول خيولهم، ولو سمح لهم لحملوا جثمان

مقدمهم.

ووصل الجيش بعد هذا إلى نهر كان يدعى النهر الميت (نهر المفجر؟) وكان المسلمون قد غطوه من قبل، حتى لايرى، ولكي تتعرض حياة رجالنا إلى الخطر بالسقوط به، لكن بفضل حكمة الرب ونعمته حفظنا من المخاطر، وبعد ماجرى كشف النهر شرب رجالنا منه وأمضوا الليلة هناك.

opeikandl.com

- ٨٩٤ -

كيف تحارب الجيشان عند أرسوف

تقدم الجيش في اليوم الثالث ببطىء من النهر الميت، ولأن رجالنا كانوا غير قادرين على المسير على طرف البحر، الذي كان مغلقاً بشعراء كثيفة، فقد أرغموا على الزحف خلال منطقة جبلية وعرة جداً، وجرداء تماماً من كل شيء، وحفظ الجيش نفسه أثناء الزحف في مجموعات متراصة أكثر من المعتاد، وتولى الداوية في ذلك اليوم الساقة، وهكذا خسروا عدداً كبيراً من الخيول من حملات الأتراك، حتى أنهم غدوا في حالة يائسة تقريباً، وفقد كونت سينت بول أيضاً كثيراً من الخيول، لأنه تصدى بنفسه للترك بشجاعة عظيمة عندما هاجمونا وحققوا خرقاً بيننا، وبفضل جهوده تمكن الباقون من الجواز بسلام والابتعاد سالمين، وهكذا استحق الشكر والثناء من الجيش كله.

وفي ذلك اليوم جرح الملك في طرفه بنشابة أثناء طرده للترك، وأثاره هذا الجرح الخفيف وحمسه لمقاتلتهم بشجاعة أعظم، ذلك أن ضربة الجرح جعلته متشوقاً إلى الانتقام أكثر، وقاتل خلال النهار كله ضدهم وردهم إلى الخلف.

ومن جانب آخر ثابر الترك على إغاظة رجالنا وارهاقهم، وحافظوا على السير على طرف جيشنا، وألحقوا برجالنا من الجراحات بقدر ما استطاعوا برميهم السهام والنشاب، التي تطايرت مثل زخات المطر، وإنه لمحزن لو علمت كم عدد الخيول التي سقطت نتيجة طعنها وإصابتها بالجروح! وكم عدد التي ماتت فيما بعد، اثر عقرها والجراحة التي نالتها ! فلقد كان هناك سيلاً من النشاب والجروخ إلى حد أنه كان يتعذر عليك أن تجد موضعاً لقدمك على الأرض حيث توجب على الجيش المرور دون الاصابة بها، واستمرت هذه الحالة المحتدمة والمرعبة طوال النهار، حتى

حلول الظلام، فوقتها عاد الترك إلى خيمهم ومساكنهم، ووقف شعبنا عند مايعرف عادة باسم نهر المالح (نهر اسكندرون)، وأمضوا الليل هناك، ووصلوا يوم الثلاثاء بعد عيد القديس جايل، ومكثوا لمدة يومين.

واجتمع هنا حشد كبير بسبب الخيول التي ماتت إثر جراحتها، ذلك أن الناس كانوا راغبين بشراء لحوم الخيول، حتى أنهم لجأوا إلى نفخها، وعندما سمع الملك بهذا، أعلن بوساطة المنادي أنه سوف يعطي حصاناً حياً لكل من سوف يوزع حصانه الميت على أحسن الرجال في خدمته، ممن هم بحاجة إليه، وهكذا أكلوا لحوم الخيول وكأنها لحوم الطرائد والغزلان، وعدّوها لذيذة جداً، لأن الجوع حل الآن محل التوابل.

وفي اليوم الثالث زحف جيشنا في حوالي الساعة التاسعة في تعبئة قتالية، وانطلق من نهر المالح، لأنه كانت هناك اشاعات تحدثت عن أن الترك كانوا قد أعدوا كميناً في شعراء أرسوف وبساتينها، وأنهم كانوا عازمين على اضرام النيران هناك لمنع قواتنا من عبورها، غير أن رجالنا عبروا بنظام، فاجتازوا دون التعرض للأذى في المكان الذي قيل بأن الكمين قد نصب به، وبعدما خرجوا من الشعراء، وجدوا أنفسهم في سهل واسع يحاذيها، وهناك نصبوا قرب نهر يدعى بشكل عام روشتيل Rochetaillie (نهر الفالق)، وأرسلوا من هنا جواسيس للاستطلاع، وقد جلبوا معهم أخباراً بأن الترك ينتظرون وصولهم في أعداد لاتحصى، لأن حشودهم غطت وجه الأرض هناك، وقدّر تعدادهم بثلاثمائة ألف رجل، بينما كان المسيحيون مائة ألف رجل فقط من الأشداء، ووصل الجيش المسيحي إلى نهر روشتيل يوم الخميس قبل عيد ميلاد مريم العذراء المباركة، واستراح هناك حتى اليوم التالي.

وفي الفجر الباكر من يوم السبت صب رجالنا أسلحتهم عليهم بعناية كبيرة لتلقي الترك الذين لايمكن لشيء أن يوقف عجرفتهم سوى القتال، وعبأ العدو نفسه بانتظام، واقترب منا أكثر فأكثر، وكذلك اتخذ

رجالنا غاية الحذر لوضع أنفسهم في نظام جيد بقدر الامكان.

وعبأ الملك رتشارد، الذي كان أكثر الناس خبرة بالشؤون العسكرية، الجيش على شكل كتائب، وأصدر توجيهاته للذين توجب عليهم الزحف في الأمام والذين كانوا في الساقة، وقسم الجيش إلى اثني عشر فوجاً، ثم قسم هؤلاء إلى خمس فرق، تسلسلت قياداتها حسب رتب الرجال تماشياً مع النظام العسكري، وكان من غير الممكن ايجاد جيش أحسن تنظيماً من الناحية العسكرية ولاأكثر قوة لو أن رجاله وضعوا ثقتهم في الرب الذي هو مانح الأشياء الطيبة، وشكل الداوية في ذلك اليوم الصف الأول، وجاء من بعدهم بنظام تام البريتانيون ورجال أنجو، ثم تلاهم الملك غي مع رجال بواتو، وكان في الصف الرابع النورمان والانكليز، الذي عهد اليهم بأمر العناية بالراية الملكية، وزحف بعدهم في الصف الأخير الاسبتارية، وكان صفهم مؤلفاً من نخبة من المحاربين موزعين على شكل مجموعات، وساروا متراصين إلى حد لو أن تفاحة ألقيت عليهم كان من غير الممكن أن تصل إلى الأرض دون أن تلمس رجلاً أو فرساً، وامتد الجيش من حد الجيش الاسلامي إلى طرف البحر.

وكان بإمكانك أن ترى هناك أفضل أشكال التمييز وأنسبها: أعلام وشارات من مختلف النماذج، وجنود أشداء، نشطاء ممتلئين حيوية، ومناسبين تماماً للحرب، وكان هناك ايرل أوف ليستر، وهيوج دي غيرني Gurnay، ووليم دي بورز Borriz وولكن دي فيرار Walkin De Ferrars، وروجر دي تووني، وجيمس دي أفنس، وروبرت كونت أوف درول Druell، وأسقف بوفاي Beauvais ، وأخوه وليم دي بار Barres، ووليم دي غارلاند Garlande، ودروغو دي ميرل Drogo De Mirle، مع كثير من أقربائه، وهنري كونت شامبين، وهو الذي تولى الحراسة على الجانب الأقرب إلى الجبل، مثابراً على النظر على الجناح ومراقباً له، وكان الجنود الرجالة والرماة ورماة الزنبورك والجروخ في

الخارج، وكانت ساقة الجيش ملاصقة لدواب الحمولة والعربات التي حملت الميرة، والأشياء الأخرى، وسارت فيما بين الجيش والبحر لتتجنب الهجوم من العدو.

هكذا كانت تعبئة الجيش ونظامه عندما تقدم بشكل تدريجي لمنع الانقسام (وعزل الأسلحة عن بعضها) ذلك أن فقدان الترابط بين صفوف القتال، يؤثر عليها ويجعلها أضعف في المقاومة، وسار الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع حاشية منتقاة من المقاتلين صعوداً ونزولاً، ليراقبا عن قرب أوضاع وسلوك الترك وسماتهم، ولاصلاح أي شيء في قواتهما إذا رأيا الفرصة المناسبة، لأنهما احتاجا في تلك اللحظة إلى فائق الحذر.

وكان في حوالي الساعة التاسعة عندما ظهرت فرقة كبيرة من الترك فيها عشرة آلاف من الجنود الأشداء، وكان هؤلاء الجنود سائقين نحونا للانقضاض علينا بأقصى سرعة ممكنة، ويرمون نحونا بالجروخ والنشاب بقدر ما استطاعوا من سرعة، وبالوقت نفسه مزجوا أصواتهم بصرخات مرعبة، وأعقب هؤلاء جنس شيطاني جهنمي من البشر، لونهم أسود، ويحملون مظهراً خارجياً مناسباً يعبر عن سوادهم، وكان معهم المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون باسم البدو، وهم عرق متوحش من الرجال أشد سواداً من السخام، وهم ممن يقاتل راجلاً، ويحمل كل منهم قوساً وكنانة ودرقة مستديرة، وهم عرق خفيف وفعال، وقاتل هؤلاء الرجال جيشنا ببسالة وارهاب، وكان من الممكن أن يرى من بعدهم الكتائب الحسنة التنظيم للاتراك، بشارات مثبتة على رماحهم، وأعلامهم ورایاتهم لها علامات متميزة وكان جيشهم مقسماً إلى فئات، والفئات إلى جماعات، ويبدو أن تعدادهم جاوز العشرين ألفاً.

وقاتلوا رجالنا بانقضاض لايمكن مقاومته، وكانوا أسرع من النسور، وحين حملوا علينا منقضين كانوا أمضى من البرق، وأثاروا أثناء تقدمهم

سحابة من الغبار، حتى أن السماء أظلمت، وتقدم أمامهم بعض الأمراء، حسب مقتضيات الواجب، مع بعض الأبواق والنفر، وكان مع بعضهم شبور، ومع آخرين مزامير، ودفوف، وكؤوس، وصنوج وآلات أخرى، كانت تنتج ضجيجاً مرعباً، وصخباً، إلى حد أن الأرض ارتجفت من الأصوات العالية والمتداخلة، حتى أن أصوات الرعد لايمكن سماعها وسط صخب هذه الأصوات، وقد فعلوا هذا لإثارة أرواحهم ولتشجيعهم، فمع ازدياد العنف، تكون الأصوات قد ارتفعت، وهم يغدون أكثر جرأة في الانقضاض.

وهكذا هددنا الترك غير الأتقياء من على الجانبين: من جهة البحر، ومن جهة البر، ولم يكن من الممكن خلال مساحة قدرها ميلين من الأرض الاستيلاء على شبر منها أو رؤيته، بسبب المهاجمين الترك الذين غطوها كلها، ولكم ضغطوا علينا بعناد، واستمروا في حملاتهم الجريئة والعنيدة، ولهذا عانى رجالنا من خسائر كبيرة وقاسية في الخيول، التي قتلت بجروخهم ونشابهم!

ولكم كان مفيداً لنا في ذلك رماة الزنبورك منا وكذلك النبالة، الذين وقفوا إلى جانب صفوفنا المعرضة للفناء، وبذلوا غاية جهدهم لرد الترك الأشداء، واندفع العدو منقضاً علينا مثل السيل الجارف، مستهدفاً قتالنا، وهنا لم يستطع غالبية رماة الزنبورك الصمود أمام ثقل الهجوم المرعب، وحملتهم المخيفة، فرموا جانباً أسلحتهم، وخشية منهم أن يتعرضوا للموت بالاصابة بالرمايات، هربوا والتجأوا بجمعهم الكبير خلف الصفوف الكثيفة للجيش، وفعلوا ذلك وهم يولولون خوفاً من الموت، وهو أمر لم يكونوا قادرين على مواجهته، أما المتبقي من رماة الزنبورك الذين منعهم خوفهم من العار، من الهزيمة، أو لأنهم كانوا يأملون بالحصول على تاج الأبدية، لذلك صمدوا، وتحلوا بشجاعة عظيمة وجرأة فوقفوا ولم يتزحزحوا وقت الصراع، وقاتلوا بدون كلل أو ملل وبشجاعة

وجهاً لوجه أمام الترك، وفقط تراجعوا خطوة خطوة، وبذلك ضمنوا تقهقر رفاقهم.

ولكم كان المأزق ضيقاً الذي كنا فيه ذلك اليوم! ولكم كان هائلاً اضطرابنا، عندما تأثر بعضنا بالخوف، ومامن واحد منا كان لديه الثقة أو الشجاعة، ولم يرغب في تلك الساعة في أنه أنهى حجه وعاد إلى وطنه، عوضاً عن الوقوف بقلب خافق مضطرب في معركة غير معروف مصيرها، وصدقاً أقول إن شعبنا الذي كان تعداد رجاله صغيراً، قد طوق من قبل حشود من المسلمين، ولذلك لم يمتلك رجاله الوسائل للنجاة، كما أنهم بدوا وهم لايمتلكون مايكفي من الشجاعة للصمود أمام عدو كبير كهذا، لابل الأمر كان أشد من هذا، لقد كانوا أشبه بقطيع شياه وقع كل واحد منهم بين فكي ذئب من الذئاب، وليس هناك سوى السماء من فوقهم، والعدو جميعه من حولهم.

أي جيش في الوجود تعرض قط لهجوم مثل هذه القوات الهائلة؟ لقد كان بامكانك أن ترى عساكرنا وقد فقدوا مطاياهم، وهم بالتالي يزحفون على أقدامهم مثلهم في ذلك مثل الجنود الرجالة، أو يرمون بالجروخ ويستخدمون الزنبورك، أو السهام من القسي، ضد العدو، أو يصدون حملاته بخير وسيلة وبقدر ما استطاعوا، وضغط الترك الذين كانوا بارعين بالرماية باستمرار عليهم، وصبت قسيهم زخات من النبال، وامتلأ الجو برشقات النشاب، وحجب ضوء الشمس بوساطة الكميات الهائلة للنشاب، مثلما تظلم في الشتاء بسقوط البرد والثلج.

وضغط الترك بجرأة هائلة كادت أن تؤدي إلى سحق الاسبتارية، مما دفعهم إلى إرسال رسالة إلى الملك رتشارد بأنهم غير قادرين على الصمود أمام حملة العدو الشديدة، مالم يسمح لفرسانهم بالتجمع والاقلاع بحملة تامة ضده، ومنعهم الملك من ذلك، ونصحهم بالبقاء على شكل كتلة متماسكة، وبناء عليه حافظوا على نظامهم وبقيوا إلى جانب بعضهم

بعضاً، علماً بأنهم كانوا قادرين بكل صعوبة على التنفس بسبب الضغط الشديد، وتمكنوا بهذه الوسيلة من المحافظة على متابعة الزحف على طريقهم، مع أن الحرارة حدث أن كانت عالية جداً في ذلك اليوم، وقد تصبب المسيحيون عرقاً في تلك المحنة، والذي أمكنه أن يراهم في ذلك الممر الضيق والمساحة المغلقة صابرين وهم يعانون من حرارة ومشقة ذلك اليوم مع حملات العدو(الذي شجع بعضه بعضاً على تدمير المسيحيين) لايمكن أن يساوره الشك في نفسه، أن محنتهم ووضعهم الحرج جداً، الذي ازداد سوءاً بحكم كونهم حشداً كبيراً، يومىء بالسوء لنجاحنا.

وقرع العدو على ظهورهم وأرعد وأبرق بمثل المطارق، لذلك لم يجدوا مجالاً لاستخدام قسيهم، فقاتلوا يداً بيد بالسيوف، والحراب، والهراوات، وترددت أصداء ضربات الترك ورماياتهم على الدروع والسوابغ المعدنية، وأعادت الأصوات وكأنها قرعت على سندان.

وكان القتال ثقيلاً جداً وشديداً، على الصف الأقصى من صفوف الاسبتارية، وازداد الوضع سوءاً وشدة، مع ازدياد عدم قدرتهم على المقاومة، ومع ذلك تحركوا نحو الأمام بصبر تحت آلام جروحهم، ولم يصدر عنهم ولاصوت تجاه الضربات التي سقطت عليهم، ثم ضغطوا نحو قلب الجيش الذي كان أمامهم، وذلك بقصد الحصول على السلامة، ولتجنب قسوة العدو الذي ضايقهم من الخلف.

وكانت قوات جميع المسلمين قد احتشدت مع بعضها من دمشق ومن فارس، ومن البحر المتوسط إلى الشرق، ولم يترك السلطان بين جميع الأجناس على الأرض، ولاواحد من الرجال المشهورين أو الأشداء، ولاأمة اتسمت بالشجاعة، ولاواحد من الجنود البواسل، أبداً، لم يترك السلطان أحداً من هؤلاء إلا واستدعاه لعونه، إما بالتوسل، أو بالمال، أو بالسلطة، وذلك بهدف سحق الجنس المسيحي، ذلك أنه كان يأمل أنه سيتمكن أن

يزيل الصليبيين مـن على وجه الأرض، لكن آماله تبـددت، لأن أعدادهم كانت كافيـة، بعون الرب، لتحقيق غايتهم، فلقد اجتمعـت بالفعل زهرة نخبة شباب وجند المسيحية، واحتشدت ومن ثم توحدت في كتلة واحدة مثل سنابل قمـح على سوقها، وجاءوا من مختلف مناطـق الدنيا، ولو أنهم سحقوا تمامـاً ودمروا، ليـس هناك من شـك أنه لـن يبقى هنـاك ولاواحد يتولى المقاومة.

النصر الرائع للمسيحيين

غطت الهواء سحابة من الغبار أثناء متابعة رجالنا لزحفهم، وعانوا من ضغط من الخلف وذلك بالإضافة إلى الحر الشديد، وكان العدو شرساً، وأنزل بنا ضربات موجعة شيطانية، ومع ذلك ثابر المسيحيون على البرهنة أنهم رجال صالحون، وحافظوا بروحهم التي لاتقهر وضمنوا استمرار التقدم، في حين استمر الترك في تهديدهم بدون توقف من الخلف، غير أن ضرباتهم وقعت عليهم بدون أذى بسبب حمايتهم بوساطة السوابغ والدروع المعدنية، وأدى هذا إلى تراخي الترك في اندفاعهم وحماسهم تجاه اخفاق محاولاتهم، وبدأوا يتذمرون همساً معبرين عن خيبة الأمل، وأخذوا يصرخون بغضب شديد بأن رجال شعبنا كانوا من حديد، وأنهم لن يتخاذلوا أو يتراجعوا أمام أية ضربة.

ثم إن عشرين ألفاً من الترك الأشداء انقضوا مندفعين مجدداً ضد رجالنا، محدثين الفوضى بين صفوفهم حيث اختلط الحابل بالنابل، وأرهقوهم بكل وسيلة ممكنة، وعندما باتوا على حافة الانهيار أمام ضرباتهم العنيفة، صاح الأخ غارنيير دي نيب Napes ، وكان من أفراد الاسبتارية، بصوت مرتفع: « أيها القديس جورج الرائع، إلى متى ستتركنا هكذا في وضعنا المضطرب؟ والمسيحية كلها الآن على حافة الدمار، لأنها تخشى الرد بضربة ضد هذا العرق الفاجر».

وعند هذا ذهب مقدم الاسبتارية إلى الملك وقال له:« مولاي الملك، لقد ضغط العدو علينا ضغطاً شديداً وبعنف، ونحن في وضع نخشى فيه من العار السرمدي، طالما نحن غير متجرأين على رد ضرباته، ها نحن الآن يفقد كل واحد منا حصانه تلو الآخر، فكيف لنا أن نتحمل منهم الأكثر؟ ورد الملك عليه قائلاً: «أيها المقدم الجيد، إنه أنت الذي

ينبغي أن يصمد أمام هجماتهم: ما من واحد يمكنه أن يكون في لحظة واحدة في كل مكان».

وعند عودة المقدم، قام الترك مجدداً بحملة عنيفة عليهم من الخلف، ولم يكن بينهم أمير أو كونت إلا وتلطخ بالعار، وقال كل واحد للآخر: « لماذا لانحمل عليهم بأشد ما نستطيع وبأسرعه؟ ياللأسف، وياللأسف، سوف نستحق بشكل أبدي أن ندعى جبناء، وهو أمر لم يحدث لنا من قبل، لأنه لم يسبق لمثل هذا العيب والعار أن نزل بجيش عظيم مثل هذا الجيش، حتى من قبل غير المؤمنين، وما لم ندافع عن أنفسنا في أن نحمل بالحال وبدون تأخير على العدو، فسوف نجني خزيا وفضيحة أبدية، وسيزداد هذا ويتعاظم كلما تأخرنا في القتال.

وفيما هم يعالجون هذه المسألة، ولدى توصلهم إلى القرار نفسه بشأن القيام بحملة ضد العدو، قام فارسان، لم يعودا يمتلكان الصبر والتأخير، بوضع كل شيء في فوضى واضطراب، وعلى كل حال تقرر باتفاق الجميع أن تقوم ستة أبواق بالصدح بأصواتها في ثلاثة أجزاء مختلفة من الجيش، ويكون ذلك بمثابة شارة للاقلاع بالهجوم، وتفصيل ذلك: بوقان في المقدمة، واثنان في الساقة، واثنان في القلب، وذلك بهدف تمييز أصواتها عن أصوات أبواق المسلمين، ولتحديد المسافة لكل منها، ولو حدث ونقلت هذه الأوامر إلى الترك لأخفقت تماماً، ولقاد تسرع الفارسين المتقدم ذكرهما إلى إحباط نجاح الأمور.

فلقد انطلقا بسرعة تامة وانقضا على الترك، وتمكن كل واحد منهما من القاء خصمه الذي واجهه بطعنة برمحه، وكان أحدهما مارشال الاسبتارية، وكان الآخر بلدوين دي كاريو Carreo ، الذي كان رجلاً جيداً وشجاعاً، ومرافقاً للملك رتشارد، الذي جلبه معه في حاشيته.

وعندما لاحظ المسيحيون الآخرون هذين الفارسين وهما يندفعان نحو

الأمام، وسمعاهما يدعوان بصوت واضح القديس جورج ليقدم لهما العون، هاجموا الترك وحملوا عليهم حملة رجل واحد، بكل ما ملكوه من قوة، ثم جاء دور الاسبتارية، الذين عانوا طوال النهار من الضغط داخل صفوفهم ومن شدة الازدحام فيها، فقاموا باللحاق بهذين الجنديين وحملوا على العدو في صفوف متلاحقة، وبذلك غدت مقدمة الجيش ساقته، وأصبح الاسبتارية الذين كانوا في الصفوف الأخيرة، أول من تولى الحملة، واندفع كونت شامبين أيضاً نحو الأمام مع جماعته المختارة، وجيمس دي أفنس مع أقربائه، وكذلك روبرت كونت دروDreux ، وأسقف بوفياس Beauvais، مع أخيه، وكذلك ايرل ليستر، الذي قام بحملة حادة من اليسار نحو البحر.

وتكتل الذين كانوا في الصف الأول من الساقة، وقاموا بحملة موحدة شديدة جداً، وجاء بعدهم رجال بواتو، ورجال أنجو، ورجال بريتاني، فقد أقلع هؤلاء باندفاع سريع نحو الأمام، ثم أعقبتهم بقية قطع الجيش: وأظهرت كل فرقة شجاعتها واقدامها بالإلتحام مع الترك، فأطاحوا بهم حين طعنوهم برماحهم، ورموهم أرضاً، وغدت السماء داكنة بسبب الغبار الذي تصاعد في مواجهات ذلك المعترك، وكان الترك قد ترجلوا من على ظهور خيولهم، حتى يتمكنوا من التسديد بشكل أفضل نحو رجالنا بنشابهم وجروخهم، غير أنهم قتلوا على جميع الجوانب أثناء تلك الحملة، فقد بطحهم الفرسان وجاء بعدهم الجنود الرجالة فأجهزوا عليهم وقطعوا رؤوسهم.

ورأى الملك رتشارد، جيشه وهو يتحرك، وقد شرع بالعراك مع الأتراك، ولهذا طار مسرعاً على ظهر حصانه، بأقصى سرعة ممكنة إلى وسط الاسبتارية الذين تولوا الحملة، وإليهم جلب المساعدة مع حاشيته، وخرق صفوف الرجالة الأتراك، الذين تملكتهم الدهشة تجاه ضرباته وضربات رجاله، فأفسحوا له الطريق من على اليمين ومن على

الشمال، وكان بإمكانك أن ترى وقتها أعداد كبيرة من الرجال وقد تمددوا على الأرض، وكذلك خيولاً كثيرة جداً بدون ركابها، وأيضاً الجرحى وهم ينتحبون وينـدبون منيتهم القاسية، وكان هناك بعضهم وهو يلفظ آخر أنفاسه أثناء التمرغ بدمائهم المتخثرة، وكان هناك عدد كبير من الرجال بلا رؤوس، في الوقت الذي ديست فيه أجسادهم التي كانت بلا حياة من قبل أصدقائهم وأعدائهم.

ولكم اختلفت توقعات الذين تأملوا وسط الأرتال شكل مباشرة الحرب الرهيب عن قرب! هناك كان الملك— الملك الحاد، والملك غير الاعتيادي— وقد فلق أجساد الأتراك في كل اتجاه، ولم يكن هناك من يستطيع النجاة من قوة ذراعه، فحيثما التفت، شاهراً سيفه، شق لنفسه ممراً واسعاً، وهو يتقدم نحو الأمام، وكان لايتوقف عن الضرب والطعن بسيفه (لذلك قطعهم مثل حصاد يقطع الزرع بمنجله)، وخاف البقية من مشهد الذين كانوا يموتون وارتعبوا، ولذلك أعطوه المزيد من المساحة، وتراجعوا من أمامه، ذلك أن أجساد القتلى من الترك التي تمددت على وجه الأرض غطت أكثر من نصف ميل.

وتبرهن أن الغبار الذي تصاعد من القتال كان ضاراً جداً بالنسبة لرجالنا، لأنه عندما أصبح رجالنا يشعرون بالتعب من جراء قتلهم لأعداد كبيرة، ولدى تراجعهم لتنفس بعض الهواء النقي، لم يكن وقتها بامكانهم تمييز بعضهم بعضاً، وسددوا ضرباتهم بدون تمييز إلى اليمين وإلى الشمال، غير قادرين على التفريق ما بين العدو والصديق، فقدروا أن بعض رجالهم من رجال العدو، فقتلوهم بلا رحمة.

وهكذا ضغط المسيحيون بكل شدة على الأتراك، ولم يتقهقر هؤلاء أمامهم، وعلى ذلك ظلت نتيجة المعركة لوقت طويل متأرجحة غير محسومة ومشكوك فيها، وتابع الفريقان تبادل الضربات، فكل فريق منهما جاهد في سبيل نيل النصر، وفي تلك الأثناء تراجع بعضهم من على

الجانبين وقد غطتهم الجراح، في حين سقط آخرون على الأرض قتلى.

ولكم كان كثيراً ما يمكن رؤيته من الرايات والأعلام والعذبات، والرنوك الملونة التي كانت ممزقة وملقاة على الأرض، وسيوف الفولاذ المجرب، ورماح الخيزران ذوات الأسنة الفولاذية، والقسي التركية والحراب ذوات الأسنة الحادة، والنشاب والنبال، التي غطت الأرض، كما كان هناك من الجروخ ما يكفي لأن يكون حمولة عشرين عربة أو أكثر، وكانت هناك أجساد الأتراك الذين قتلوا ملقاة ومبعثرة بلا رؤوس، في حين حفظ آخرون شجاعتهم لبعض الوقت حتى ازداد رجالنا بقوتهم، وهنا تخفى بعضهم وأخفوا أنفسهم بين جثث القتلى، بينما تسلق بعضهم الآخر بعض الأشجار، فكشفوا، فكان أن رميوا فسقطوا أرضاً وهم يئنون ألماً ورعباً، وتخلى بعضهم أيضاً عن خيولهم، وسلكوا بعض الممرات المنحدرة والفردية نحو شاطىء البحر، ثم ألقوا بأنفسهم نحو أمواج البحر، من فوق الشعاب العالية، التي بلغ ارتفاع بعضها خمسة أعمدة.

وتم صد بقية الأعداء بطريقة مدهشة حتى بات من غير الممكن رؤية أحد خلال مساحة ميلين غير الفارين، مع أنهم كانوا من قبل من الجرأة والصمود بمكان، وقد امتلأوا بالعزة والفخر، لكن بنعمة الرب وفضله تحول فخرهم إلى ذل، وتابعوا الفرار دون توقف، ذلك أنه عندما توقف رجالنا عن المطاردة، أضاف الخوف وحده أجنحة إلى أقدامهم.

وكان جيشنا حين هاجم الأتراك مؤلفاً من أقسام، كما أن النورمان والانكليز الذين كان معهوداً إليهم أمر العناية بالراية، قدموا ببطىء وساروا نحو القوات التي كانت مشتبكة مع الأتراك، ولأنه كان من الصعب جداً تفريق صفوف الأعداء وتمزيق قواه، فقد وقفوا على مسافة قصيرة بعيدة هناك، لتكون نقطة تجمع للقوات.

ولدى انتهاء المذبحة، توقف رجالنا، وعندما رأى الفارون هذا، وكانوا

نحواً من عشرين ألفاً، استردوا شجاعتهم على الفور، وتسلحوا برماحهم وحرابهم، وحملوا على الفور على الكتلة العظمى للذين كانوا يتراجعون، واستنقذوا من أيدي رجالنا بعض الذين أسروهم آخراً.

ومن غير الممكن وصف الحملة التي تعرض لها رجالنا آنئذ، لقد كانت حقاً مرعبة، لأن النشاب والجروخ التي تساقطت عليهم وهم يتراجعون، حطمت رؤوس دروعهم وخرقت بقية أطراف فرساننا، ولذلك انحنوا، والتصقوا بقرابيس سروج خيولهم، غير أنهم مالبثوا أن استردوا شجاعتهم، واستأنفوا القتال، وكانوا عطاشى للانتقام (مثلهم مثل اللبوة عندما يخطف أشبالها)، وحملوا على الأعداء، وخرقوا صفوفهم وشتتوها.

ثم كان بامكانك رؤية الخيول وقد زالت سروجها عن أماكنها، والأتراك الذين كانوا قد فروا للتو، وعادوا وحملوا على شعبنا بشدة متناهية وبغضب هائل ، ولولا أن رجالنا حافظوا على التقدم ولم يتوقفوا أثناء الالتحام، بل بقيوا كتلة متحركة، لخبرت عنهم كل دفعة من الرمايات التي تلقوها.

وكان قائد الترك أميراً حمل اسم تقي الدين، وكان من أقرباء السلطان، وقد حمل راية ذات شكل مدهش ونموذج فريد: فقد حيك عليها صورة زوج من السراويل القصيرة، وهو رمز كان معروفاً بشكل ممتاز بالنسبة لرجاله، ولقد كان أقسى رجال أعدائنا وأشدهم عنفا والعدو الأعظم تصمياً للصليبيين، وكان تحت امرته سبعمائة من نخبة الأتراك، ومن أعظهم شجاعة من عساكر بيت صلاح الدين، وقد حمل أتباع كل واحد منهم علماً أصفر، مع عذبات ذوات ألوان مختلفة.

وحمل هؤلاء على رجالنا بسرعة قصوى، محدثين ضجة عظيمة، وكان مظهرهم مظهرا مخيفاً، وقد انقضوا على رجالنا الذين كانوا على نية الانعطاف والعودة نحو الراية العظمى، وشرعوا في تمزيقهم وطعنهم

بشدة متناهية، حتى أن أكثر الناس ثباتا بين مقدمينا تقلقلوا تحت ثقل ضرباتهم وضغطهم، ومع هذا ثابر رجالنا وتابعوا الاشتباك بهم، وكانوا مرغمين على صد القوة بالقوة، وتعاظم الالتحام وازداد كثافة، وتضاعفت الضربات، وغدت المعركة أكثر حدة، وكانت الجهة المهاجمة تسعى لسحق أعدائها، في حين سعى الآخرون — أي الفرنجة — لصد المهاجمين وردهم.

وبذل كلا الطرفان غاية جهودهما، ومع أن رجالنا كانوا أدنى عدداً من أعدائهم، لقد تمكنوا من احداث فوضى عظيمة وسط الأعداء وأعطوا الانطباع أنهم حشد عظيم، لكنهم باتوا في مأزق شديد، وكانوا غير قادرين على العودة نحو الراية العظمى بسهولة، وبدأوا يتخاذلون، وشجاعتهم تتطاير، وقلة منهم تجرأت على تجديد الحملة على الأعداء، وصدقاً أقول: كان الترك أشداء جداً في حملتهم، وأرعبوا رجالنا إلى درجة عالية، رجالنا الذين أخذت دماؤهم تتدفق أمامهم وتسيل مثل جدول صغير، وذلك نتيجة لما تلقوه من ضربات.

وعندما رآهم وليم دي باري— وكان فارساً واسع الشهرة — ناكصين على أعقابهم، خرق صفوفهم، ومن هناك حمل على الأتراك بصحبة رجاله، وكانت حملته شديدة إلى حد أن بعضهم سقط بحد السيف، في حين أنقذ الآخرون أنفسهم بوساطة الفرار السريع.

ثم انعطف الملك باتجاه الجبال، وكان على ظهر كميت قبرصي لا نظير له، وشتت الذين واجههم من على جميع الجوانب، لأن العدو هرب من سيفه، وأفسح أمامه المجال، وذلك في وقت تدحرجت فيه الخوذ على الأرض أمامه وتصاعد منها الشررمن الضربات، ولقد كانت حملته عنيفة جداً، وكانت ضرباته كثيرة ومميته في ذلك اليوم أثناء التحامه مع الترك وصراعه ضدهم، حتى أن العدو تشتت في وقت قصير، وذهب في جميع الاتجاهات، ومن ثم تسنى لجيشنا متابعة سيره وسمح له بذلك، وهكذا

بعد ما عانى رجالنا ماعانوه، عادوا أخيراً إلى الراية العظمى، وتابعوا زحفهم حتى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج الأسوار.

وفيما كانوا منشغلين بنصب الخيام، حملت كتلة كبيرة من الأتراك على أقصى صفوف ساقة جيشنا، وما أن سمع الملك رتشارد أصوات المهاجمين حتى تولى تشجيع رجاله وحثهم على القتال، وقام على الفور بالاندفاع بأقصى سرعة نحو الساقة ومعه فقط خمسة عشر واحداً من أتباعه، وانقض على الترك وهو يصرخ بصوت مرتفع وينادي:« أعنا أيها الرب، عونك أيها الضريح المقدس»!، وكرر هذا النداء ثانية، ثم أعاده مرة ثالثة، وعندما سمع رجالنا أصواته، بادروا مسرعين للحاق به، وقاتلوا الترك، وهزموهم، وأجبروهم على الفرار، وطاردوهم حتى أرسوف (التي قدموا بالبداية منها) ومزقوهم وأخضعوهم.

ثم عاد الملك من مطاردة الفارين وقتلهم، إلى معسكره، وفي تلك الليلة نام رجالنا بهدوء بعدما أنهكهم عناء ذلك اليوم.

وعاد كل من كان جشعاً لنيل الربح، ورغب في جمع الأسلاب إلى أرض المعركة، وحمّل نفسه بما أشبع رغبات قلبه، وذكر الذين عادوا من هناك بأنهم أحصوا وجود اثنين وثلاثين مقدماً تركيا قد قتلوا في ذلك اليوم، وقدروا ذلك من خلال سلاحهم الرائع ومظهر ملابسهم الثمينة، وبناء عليه افترضوا أنهم كانوا من ذوي الأهمية الكبيرة والنفوذ العظيم والسلطة، وبحث الترك أيضا عنهم وحملوهم معهم، وكأنهم من أعظم الناس مكانة، وحمل الترك مع هؤلاء جثث سبعة آلاف اختلطوا فيما بينهم، وكان أصحابها من ذوي المراتب التالية، وذلك بالاضافة إلى الجرحى الذين ساروا في مجموعات بطيئة خلف القوات، وعندما فقدوا قواهم سقطوا في أرجاء أرض المعركة وماتوا، وبفضل من الرب لم نفقد العشر من قواتنا، وأقل من واحد على مائة مما فقده الجيش التركي.

ولقد بكينا كثيرا وندبنا خسارة جيمس دي أفنس، الذي قهره الأتراك بفضل تفوقهم العددي، وقد رمي من على ظهر حصانه بشكل مأساوي وهو يقاتل بشجاعة، وتجمع الترك من حوله، وقتلوه بعد بذلهم لجهد عظيم، لكنه قتل قبل موته خمسة عشر رجلاً من الترك، وذلك تبعاً لرواية الذين أرسلوا لجلب جثته إلى المعسكر، فقد وجدوا هذا العدد الكبير من الترك وقد ألقوا من حوله، ووجدوا هناك بين الموتى إلى جانبه ثلاثة من أقربائه، ممن لم يقدم لهم بعض رجالنا المساعدة التي توجبت عليهم، بل (من المعيب القول): تخلوا عنهم وهجروهم أثناء صراعهم ضد حملة الأتراك، ولهذا السبب استحق كونت أوف درو Dreux مع آخرين كانوا حاضرين، العار والازدراء.

وامتلأ السلطان غضباً عندما سمع أن قواته المنتقاة، التي وثق بها ثقة كبيرة وعليها اعتمد، قد هزمت على هذه الصورة من قبل الصليبيين، وانفعل انفعالاً كبيراً، واستدعى إليه أمراءه وخاطبهم بقوله: « هل هذه هي أفاعيل عساكري الشجعان، الذين كانوا يوما من الأيام عظيمي الفخار، والذين أثقلتهم بالعطايا والهبات؟ ألا ترون أن الفرنجة يعيثون فساداً بالديار حسبما يرغبون، لأنه ليس هناك من يتصدى لهم»!، وخفض الأمراء رؤوسهم وطأطأوها نحو الأرض لدى سماعهم كلماته هذه، غير أن واحداً منهم رد عليه قائلاً:« مولاي السلطان المبجل، عفواً منك ومعذرة إن هذه التهمة غير عادلة، لأننا قاتلناهم بكل قوانا، وبذلنا غاية جهدنا لتدميرهم، غير أنهم قد ارتدوا دروعاً وسوابغ لايمكن خرقها بأي سلاح، ولهذا أخفقت جميع ضرباتنا، لأنها كأنما سقطت على صخرة من صوان، زد على هذا بين صفوفهم رجل تفوق على كل رجل رأيناه في حياتنا، وهم يدعونه الملك رتشارد (رك Ric)، فهذا الملك كما يبدو قد ولد ليتأمر على جميع الأرض، فما الذي كان يمكننا فعله ضد مثل هذا العدو المرعب»؟

واستدعى صلاح الدين وهو في حالة غضب قصوى وانزعاج، إليه أخاه سيف الدين، وخاطبه قائلاً: « إن رغبتي هي أن تحاول معرفة المدى الذي يمكننا الاعتماد به على رجالنا في هذه الضائقة، وكم من الثقة يمكن أن نضعها فيهم: امض بدون تأخير ودمر أسوار عسقلان وغزة، لكن أبق دير البلح في عهدة رجالنا لضمان سلامة الذين يعبرون ذلك الطريق، ودمر أيضاً: النطرون وتل الصافية، ويافا، والجيب الفوقاني، والجيب التحتاني، واللد، والرملة، وكوكب، والشوبك، وقاقون، وقلنوسة، والقيمون، وجميع الحصون الجبلية، ولاتبق مدينة ولا قلعة ولاحصنا، باستثناء القدس، والكرك» .

وأطاع سيف الدين هذه الأوامر، وخرب جميع هذه القلاع والحصون بدون تأخير.

- ٩١٢ -

كيف كاد الملك رتشارد أن يقع أسيراً بيد الترك

وفي يوم الاثنين، وهو اليوم التالي لعيد ميلاد العذراء المباركة، واليوم الثالث الذي جاء بعد المعركة، زحف الملك رتشارد مع جيشه إلى أرسوف، ووصل إلى النهر دونما معارضة، وعندما وصل الصليبيون، كان الترك واقفين في كمين قريب، لذلك رموا معظمهم بالحراب والجروخ والنشاب، غير أنهم أخفقوا في تحقيق النجاح، ولهذا تراجعوا، وعسكر رجالنا تلك الليلة عند أرسوف.

وفي الصباح، لم يكن من السهل على قواتنا المحافظة على تعبئتها، ومع ذلك زحفت مع ضباط رسميين إلى يافا، التي وجدوها بحالة دمار، لهذا تعذر على الجيش أن يجد مكان إقامة فيها، ولهذا عسكر رجال الجيش في بستان للزيتون على الجانب اليساري من البلدة، وكان ذلك بعد مضي ثلاثة أسابيع على مغادرة عكا.

ومكث الجيش خارج أسوار يافا، وجدد نشاطه وتمتع بوفرة الفواكه هناك من تين، وعنب، ورمان، وحمضيات، وهو ما كانت المنطقة هناك تنتجه، وسافرت سفن الاسطول العائد للملك رتشارد مع مراكب أخرى كانت قد رافقت الجيش، فيما بين يافا وعكا. وجلبت لنا ما كنا نحتاجه، مما أغضب الترك كثيراً، ذلك أنهم لم يتمكنوا من منعها.

وكان صلاح الدين قد دمر بالوقت نفسه أسوار عسقلان، وجلب هذه المعلومات واحد من الجنود العاديين، الذي نجا أثناء تنفيذ العمل، لكن صعب على شعبنا أن يصدق أن هذا كله قد صنعه صلاح الدين وهو في حالة يأس، وبغية التأكد من حقيقة الأمر، بعث الملك رتشارد، بناء على نصيحة نبلائه، غيوفري دي لوزغنان، ووليم دي ستاغنو مع آخرين في سفينة حربية قوية، للإبحار إلى عسقلان، ومن ثم العودة جالبين معهم

بيانا عن الأوضاع وعن مجريات الأمور، ونفذوا المهمة بإخلاص، وذكروا أن ما سمعوه كان صحيحاً.

وبناء عليه تناقش الملك رتشارد مع نبلائه وتباحث حول الذي عليهم القيام به: هل يزحفون الى عسقلان لإنقاذها، أم يزحفون نحو القدس، وعرضت آراء كثيرة ومواقف عديدة، وعرض الملك موقفه بحضور دوق بيرغندي وآخرين بهذه الكلمات حيث قال:« يبدو بالنسبة لي أن خلافاتنا بالرأي، لايمكن أن تكون بلا فائدة فقط، بل خطيرة بالنسبة للجيش، فالترك الذين يتولون تخريب عسقلان، لايتجرأون على مقابلتنا على ساحة المعركة، وأعتقد أن علينا بذل الجهد لانقاذ عسقلان، في سبيل حماية الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق».

وعارض الفرنسيون بعنف هذا الموقف، وأوصوا بوجوب استرداد يافا، لأنها تؤمن طريقاً أقصر بالنسبة للحجاج وأسهل للذهاب إلى القدس، وهللت الحشود وأيدت الموقف الفرنسي، وهو رأي أحمق، صدر عن عناد قاتل لهؤلاء الناس الكسالى، الذين آثروا الراحة المباشرة والعمل الأسهل، وتجنبوا الجهد والانفاق، وهذا ما سوف يندمون عليه، لأنهم لو أنقذوا عسقلان آنذاك من الترك، لكان من الممكن سريعا تنقية الأرض كلها منهم، لكن صراخ الناس هو الذي سيطر، وجرى حشد بعض الناس، حيث شرعوا على الفور في إعادة بناء أبراج يافا، وتعزيل الخندق.

وبقي الجيش هناك مدة طويلة يتمتع بالراحة والرفاه، وازدادات ذنوب رجاله وتراكمت عليهم يومياً، فقد جاءت النساء من عكا إليهم، لإثارة غرائزهم، ولمضاعفة آثامهم، وفسد الناس جميعاً، وانطفأت حرارة الحماسة نحو الحج، وأهملت جميع أعمال العبادة والتقوى.

ومع نهاية ايلول، عندما اكتمل جزء من إعادة بناء يافا، تحرك الجيش من ضواحيها وعسكر أمام حصن حبقوق، وكان جيشاً صغيراً جداً، لأن

من المؤسف أن عـدداً كبيراً منه قد غادروا وعادوا إلى عكـا، حيث أمضوا أوقاتهم في الحانات، وعندما شاهد الملك رتشارد تقاعسهم وانغماسهم في الآثام، أرسل الملـك غي لإعادتهم إلى الجيش في يافـا، غير أن عدداً قليلاً جداً منهم عاد، مما أرغم الملـك رتشارد نفسه على الإبحار إلى عكا، حيث حثهم على تذكر واجباتهم كحجاج، وأقنـع بهذه الوسيلة عدداً كبيراً منهم على العودة إلى يافا، كما أنه اصطحب معه الملكتين، ونسائهما.

ومكثـوا الآن مدة سبعـة أسـابيع في يـافا لـلاحتشـاد، ولتجهيز جيـش وإعداده، وهكذا عندمـا التأم جمعهم شكلوا كتلة أكبر عدداً وأكثـر كفاية من ذي قبل.

وخرج الملك رتشارد في هذه الآونة للصيد، ومعه مرافقة صغيرة، وكان عازمـاً أنه إذا ما رأى مجموعـة صغيرة من الترك أن ينقض عليهـا، ولدى شعوره بـالتعب الشـديد مـن الركـوب ترجـل ونام، وهنـا انقضت عليـه مجموعـة من الترك بشكل مفـاجىء بغيـة أسره، وأفاق الملك لـدى سماعه الأصوات، وما كـاد يمتطي صهوة مهره الكميت القبرصي، ويركـب رفاقه مطـايـاهـم، حتـى وصل الترك، غير أن الملـك امتشـق سيفـه، وانـدفـع نحوهـم، فتظاهروا بـالفرار، وجعلوه يسعـى خلفهم إلى مكان كمنـت فيه مجمـوعـة أخرى مـن الترك، وخـرج هـؤلاء مسرعين من الكمين وطـوقـوا الملك لأخذه أسيراً.

ودافع الملـك عن نفسه بشجـاعة، وتراجـع الأعداء، علما أنه كـان من الممكن وقـوعه بـالأسر لو أن الترك عرفـوا من كان هـو، ففي أثنـاء العراك صرخ واحـد من رفـاق الملك واسمـه وليـم دي بريتـلPratelles بلغة المسلمين، يعرفهـم أنه هو «الملك»، وصـدق الترك ما قاله، فسـاقوه أسيراً إلى جيشهم.

وقتل في هـذه المناوشة رنيير دي مـاروم، وكان فـارساً شجاعـاً، غير أنه

كان تقريباً أعزل من السلاح، وكذلك ابن أخيه وولتر مع ألان، ولوقا دي ستيبل، ولدى وصول أخبار هذه الواقعة إلى جيشنا استنفر، وحمل السلاح، وجاء مسرعاً جداً ليجد الملك، وعندما رأته عناصر الجيش عائداً، والتقى بهم، قاموا معاً بمطاردة الترك، غير أنهم لم يستطيعوا اللحاق بالفارين، وتم حفظ الملك رتشارد بيد الرب لأشياء أعظم، وقد عاد إلى المعسكر وسط بهجة عامة من قبل عساكره، الذين حمدوا الرب وشكروه على حفظه له، لكنهم حزنوا من أجل وليم دي بريتل، الذي أنقذ باخلاص الملك مقابل حريته الشخصية.

ووجه بعض رفاق الملك النقد الآن إليه، وحذروه من التجول خارج المعسكر لوحده، ومن تعريض نفسه للأسر بوساطة كمائن الترك، الذين كانوا متشوقين لأسره، وأن عليه أن يصطحب معه في جميع المناسبات بعض الجنود الشجعان، وألا يعتمد فقط على قوته للتصدي لمثل هذه الأعداد، لكن الملك لم يأخذ بنصائح أحسن رفاقه ولم يتمسك بها، فقد كانت طبيعة تدفعه للتحرر، وعدم التقيد، فهو قد كان في جميع الحملات الأول حملة والأخير تراجعاً،ولم يخذل قط سواء من قبل شجاعته، أو من العون الرباني، في العودة ومعه عدد من الأسرى، أو إذا قاوموا، جعلهم طعماً لسيفه.

ووضح أن العساكر قد ارتاحت الآن، واستردت شجاعتها، فصدرت الأوامر الملكية إليها لإعادة بناء قلعة الجيب الفوقاني، التي كانت ضرورية لسلامة الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق، وبناء عليه ترك الملك حامية في يافا، مع أوامر في أن لايغادر أحد منهم المدينة وذلك باستثناء التجار الذين يتولون جلب الميرة، وعهد بأمر المدينة إلى أسقف افرو Evreux، مع كونت أوف شالون Chalons ، وهيوج ريبول Ri-bole وآخرين .

وكان اليوم التالي هو ليلة عيد جميع القديسين، وبعد ما زحف الملك

لمسافة قصيرة عسكر فيما بين الجيب الفوقاني والجيب التحتاني، وكان الجيش التركي آنذاك في الرملة التي اعتاد أن يقلع منها بحملات ضدنا.

وفي يوم الأربعاء، وهو يوم عيد جميع القديسين، كان الملك رتشارد راكباً في سهول الرملة، ورأى صدفة بعض الكشافة الترك، فهاجمهم بشجاعة، وألحق بهم الهزيمة، وذلك بعد ما قتل بعضهم، وقطع رأس واحداً من أعيان أمراء الترك، وانهزم الباقون.

ومكث الجيش خمسة عشر يوماً حيث كان، وأعاد الداوية بناء حصن الجيب الفوقاني، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه حملات الأتراك، الذين حملوا عليهم في أحد الأيام بحشد كبير من الرجالة وألف من الخيالة، لكن الملك امتطى حصانه بسرعة، ونهض الجيش كله، وهرب الترك بعدما فقدوا عشرين رجلاً قتلوا، وستة عشر أسروا، وباءت بالاخفاق إثر هذا جميع محاولات الملك لأسر البقية وقتلهم، وتابع مطاردته حتى بات على مرأى من الرملة، ثم قاد قواته عائداً إلى المعسكر.

وفي اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين خرج جميع السادة ورجال السلاح للبحث عن الطعام والأعلاف لخيولهم ولحيوانات التحميل، وتولى الداوية حراسة السادة حينما تفرقوا بحثا عن أعشاب غضة، وهو واجب كلفهم أحياناً غالياً إذا ما تصرفوا بدون حذر شديد، وفيما الداوية منشغلون بهذا الواجب، اندفع نحوهم حوالي الأربعة آلاف من الترك في أربع مجموعات، وبدون تأخير كان الداوية مطوقين من قبل حشود متزايدة من الترك.

وترجل الداوية وسند أحدهم ظهره إلى الآخر، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وفي لحظة واحدة قتل ثلاثة منهم، وأعقب ذلك صراع حاد، لأن الترك حملوا عليهم بشدة متناهية وبحدة وحاولوا أخذهم أسرى، وعندما حملت أخبار ما يحدث إلى المعسكر، بادر أندرو دي شافني Cha-

vigny مسرعاً نحوهم لانقاذهم ومعه خمسة عشر فارساً، وتمكن من انقاذ الداوية من وضعهم الخطر، غير أن الترك كانوا يتسلمون النجدات باستمرار، وقاموا أحياناً بالهجوم وأحياناً بالتراجع، واستمرت المعركة مستعرة حتى سمع الملك رتشارد— الذي كان مشغولاً في اعادة بناء الجيب التحتاني — بالصخب، فبعث بكونت دي سينت بول وبإيرل ليستر لمساعدة الداوية، وذهب معهم وليم دي كين Cagen، وأوثو دي برانسنغ Pransinges ،وسمعت الجماعة بالحال صرخات الرجال المسلحين للنجدة، ثم حث الملك الكونتين ليتجهزا، وليحملا أسلحتهما وليلحقا بهم بأقصى سرعة ممكنة.

وبينما كان الكونتان مسرعان نحو الأمام ظهر أمامهما أربعة آلاف من الترك بشكل مفاجيء، وكانوا في أربع مجموعات، وجاء ظهورهم من واحد من الأنهار المجاورة، وهاجم نصفهم الداوية في حين حمل البقية على الكونتين، وهنا قدم كونت سينت بول اقتراحاً لم يكن مجدياً، إلى ايرل ليستر، وكان اقتراحه أن يتولى واحد منهم الاشتباك مع العدو، في حين يقف الآخر ليقدم العون عندما يتضح أن ذلك بات ضرورياً، واختار ايرل ليستر أن يتولى قتال العدو، ولم يرغب بالوقوف دون أن يعمل شيئاً، وهجم على الفور على الأعداء واستنقذ من أيديهم اثنين من رجالنا كانوا قد أسروهم، وأضاف بهذا الانجاز الذي حققه في ذلك اليوم كثيراً إلى سمعته العالية من قبل.

وكان الاشتباك يدور بشكل عنيف جداً، وذلك عندما وصل الملك، وكانت حاشيته صغيرة جداً، فقال له بعض رجاله:« لانرى يامولانا من الحكمة أو من الممكن، بعددنا الصغير، أن نقاوم هذا الحشد الهائل، كما أننا لن نستطيع انقاذ رجالنا الذين يقاتلون الأتراك، ومن الأفضل أن ندعهم يموتون على أن نعرض شخصك وجميع المسيحيين لخطر مؤكد وذلك في الوقت الذي نمتلك فيه القدرة على النجاة».

وتغير لون الملك لسخطه تجاه سماع هذه الكلمات وقال:« ماذا، إذا ما أهملت أنا تقديم العون للرجال الذين أنا بعثت بهم أمامي، مع وعد باللحاق بهم، إنني لن أستحق ثانية أن أدعى ملكاً، ولم يزد على هذا بل غمز حصانه، واندفع نحو وسط الأتراك، فقهرهم من على جانبيه، وكان شاهراً سيفه يضرب به حيث شق طريقه نحو الأمام ونحو الخلف وسط الصفوف الكثيفة، فقتل وأصاب بشكل قاتل كل واحد اقترب منه، وكان فيمن قتلهم، واحداً من الأمراء الأتراك، رماه حظه وقدره على طريقه.

وصار العدو إما طعمة للسيف، أو منشغلاً بالفرار، وعاد رجالنا مع عدد من الأسرى إلى المعسكر، وتم الحصول على هذا النصر دون نيل أية مساعدة من الفرنسيين، وتخلى في ذلك اليوم نفسه ثلاثة من الأتراك— ربما لخوفهم من الموت — عن أوهامهم، واعتنقوا المسيحية، وخضعوا للملك رتشارد.

وكان الآن قد تمت اعادة بناء جزء من القلعتين، وإدراكاً من الملك رتشارد أن قواته لاتكره الأتراك فقط، بل إنها لم تعد تخشاهم كما كانت من قبل، ذلك أن هذه القوات تمكنت دوماً — بعون الرب— من هزيمتهم، ولهذا قام الآن بارسال سفارة متميزة إلى صلاح الدين وإلى أخيه سيف الدين، يطلب استسلام مملكة سورية، مع كل ما هو عائد إليها، حسبما كانت أيام الملك المجذوم، وطالب أيضاً بتسلم الجزية من مصر، مثلما كان الملوك — من أسلافه — يفعلون مع جميع الامتيازات والحقوق التي توفرت في يوم من الأيام وعادت إلى مملكة القدس.

وكشف السفراء عن محتوى رسالتهم أمام صلاح الدين، الذي لم يستجب أبداً للمطالب، ورد عليهم قائلاً:« ادعى ملككم مطالب غير معقولة، ونحن لانستطيع، رعاية لايماننا واسلامنا أن نوافق عليها، لكنني سوف أمنح ملككم من خلال أخي سيف الدين جميع أراضي

القدس من الأردن إلى البحر، بدون جزية أو معيق، على شرط أن لايعاد بناء مدينة عسقلان لا من قبل المسيحيين ولا المسلمين».

وعندما جاء سيف الدين حاملاً هذه الرسالة إلى الملك، كان الملك رتشارد قد فرغ لتوه من الفصد، لذلك لم يكن قادراً على التباحث معه في ذلك اليوم، لكن ستيفن دي تورنهام، أكرمه — بناء على أمر الملك — بكل أنواع الطيبات حيث وضعها أمامه على المائدة، واستضافه ولاطفه في الوادي فيما بين قلعتي الداوية ويهوشفاط، وبعث سيف الدين في اليوم التالي بهدية مكونة من سبعة جمال، وخيمة ثمينة، وجاء للمثول بحضرة الملك، حيث قدم رسالة صلاح الدين، ورأى رتشارد أن الفوضى وعدم معرفة نتائج الحرب والتأكد منها، تحتاج إلى الصبر والانتظار الطويل، ولذلك الأفضل الاتفاق حول المستقبل، لكن، من المؤسف أظهر قليلاً جداً من الحكمة والإدراك، ولم يكتشف الخداع الذي تعرض له حتى يمر الوقت فتكون المدن والقلاع والحصون في تلك المنطقة قد دمرت كلها.

وكان سيف الدين قد خدع ببراعة الملك الساذج جداً، إلى حد تكوين انطباع أن اتفاقاً قد عقد بتبادل المصالح الأسرية والتفاهم المشترك، ذلك أن الملك تسلم يومياً هدايا سيف الدين، وكانت الرسائل تمر يومياً مع الهدايا للملك، الأمر الذي أزعج أصدقاءه وأغضبهم لإقامته عقداً للصداقة مع المسلمين، لكن سيف الدين أصر أن ما يريده هو إقامة سلام بين الملك وبين صلاح الدين، واعتقد الملك أنه كان متبنياً سياسة حكيمة، يمكن بوساطتها توسيع حدود الصليبيين، ومن ثم ابرام سلام معتمد وموثق، وخاصة أنه منذ أن غادر الملك الفرنسي، بات يخشى من عمل خياني من قبله لأنه وجد أن صداقته دائماً جوفاء ومخادعة، وعلى كل حال عندما اكتشف الملك أن وعود سيف الدين كانت مجرد كلمات، ولايمكن منها الوصول إلى أية محصلة، لاسيما فيما

يتعلق بحصن الشوبك ، أوقف على الفور المناقشات، والذي فهم من الشروط أن الملك طالب بهدم هذا الحصن، لكن الترك رفضوا الاستجابة لهذا المطلب.

وعندما بات خبر اخفاق المعاهدة معروفاً، ظهر العدو من جديد، وبات يرى على أجنحة قواتنا، ونزل الملك رتشارد من جديد إلى ساحة المعترك للتصدي له، وأزاح بهذه الوسيلة التهم المتقدمة التي وجهت إليه وأثيرت ضده، وجلب معه في كل يوم عدداً من رؤوس الأتراك، ليبرهن أن غيرته لم تخف ولم تضعف تجاه القضية الصليبية.

obeikandl.com

- ٩٢١ -

حول المعاناة المزعجة من الأمطار ومن الأعداء

عندما اكتمل ترميم الحصنين وشحنا بالجند، حرك رتشارد جيشه نحو الرملة، الأمر الذي جعل صلاح الدين يأمر بإزالة أسوارها، لأنه لم يتجرأ على اللقاء مع الملك في ساحة القتال، ثم انسحب مع قواته نحو دير البلح، لأنه وثق وثوقاً عظيماً بالمناطق الجبلية.

وعندها عسكرت قواتنا فيما بين اللد والرملة، وهناك مكثنا لمدة اثنين وعشرين يوما ننتظر النجدات والمؤن، ومالبثت الهجمات العنيفة من العدو، والأمطار الغزيرة أن أرغمت ملك القدس وشعبنا على الانتقال إلى هذه الأماكن، بينما ذهب كونت أوف سينت بول إلى قلعة بيت (نوبة)، وتوقفنا بالرملة لمدة سبعة أسابيع، لكن في وضع صعب، ،غير أن البداية الصعبة تحسنت فيما بعد وتغيرت الأوضاع نحو الأفضل لبعض الوقت فقط، لأن الترك ماكانوا ليسمحوا لنا ولابقليل من الاستقرار، بل هاجمونا باستمرار بجروخهم ونشابهم.

وفي أمسية عيد القديس توما، زحف الملك رتشارد مع حاشية صغيرة نحو قلعة تدعى تل الصافية، للقيام بمغامرة ما ضد الترك، غير أنه شعر بوجود غلط ما (بإلهام كما يعتقد من السماء) فعاد إلى المعسكر، وتنامى إليه في الساعة نفسها أن صلاح الدين بعث قبل قليل قوة مكونة من ثلاثمائة من نخبة قواته إلى تل الصافية، أي إلى حيث كان رتشارد متوجهاً، وفي اليوم نفسه ذهب الملك غي إلى عكا، إلى حيث تبعه في اليوم التالي ستيفن دي تورنهام.

وفي منتصف ليلة عيد الأبرياء المقدسين (٢٨ — كانون الأول) غادر الداوية والاسبتارية المعسكر، وعادوا في الصباح مع مائتي ثور، ساقوها من المنطقة الجبلية قرب القدس.

وفي الوقت نفسه بات معروفاً إلى صلاح الدين أن رجالنا كانوا يستعدون لمهاجمة القدس، وأنهم باتوا على مسافة ميلين منه، ولم ير صلاح الدين مأمونا أن يتحارب مع الصليبين، لذلك أصدر أوامره بتخريب دير البلح، خاصة أسوارها وأبراجها، وتراجع هو نفسه إلى القدس، وغادر الترك السهول وانسحبوا نحو الجبال.

ونتيجة لهذا صدر الأمر إلى رجالنا بصوت المنادي بالتحرك نحو سفوح الجبال، وعندما اكتملت جميع الاستعدادات، زحفوا نحو قلعة اسمها بيت نوبة، ثم بدأت الأمطار وكذلك البَرَد يتساقطون عليهم، فقتلت كثيراً من حيوانات التحميل، وكانت العاصفة شديدة وعنيفة إلى حد أنها دمرت أوتاد الخيم، وأغرقت الخيول، وأتلفت البقسماط ولحم الخنزير، وصدأت الدروع والسوابغ إلى حد كبير حتى أنها احتاجت إلى عمل عظيم لإعادتها إلى لمعانها السالف، وتلفت ملابسهم من البلل، وعانى الرجال أنفسهم من شدة البرد والمناخ القاسي الذي لم يعتادوا عليه.

وفي ظل هذه المعاناة، وجدوا أن مخرجهم الوحيد كامن في غيرتهم وحماسهم لخدمة الرب، ولهذا رغبوا في انهاء حجهم، ففي ذلك راحتهم، ولتحقيق هذا الهدف والوصول إلى هذه الغاية، قدم كل واحد حصته من المؤن من أجل الحصار، واجتمعوا جميعاً مسرورين واستعدوا لكل شيء، حتى الذين كانوا مرضى في الفراش في يافا تم حملهم على المحفات، فقد كانت رغبتهم عارمة جداً لرؤية القدس، وتأثر عدد كبير جداً منهم بالرغبة لرؤية ضريح ربنا، وكان هذا أملهم الوحيد في ظل المعاناة الهائلة،لكن الترك لم يقيموا وزناً أو تقديراً للذين كانوا يرافقون المرضى، ووقفوا في مكامنهم ينتظرونهم وقتلوهم معا: الحامل والمحمول، فقد عدّوهم كلهم ونظروا إليهم على أنهم أعداء، ومن المؤكد أن هؤلاء سوف يعدّون شهداء، وهنا تتوفر الراحة والمواساة بالنسبة لهم، وصحيح أن الترك قتلوهم بنوايا شريرة، ومع ذلك لقد عانوا فقط للحظة واحدة،

ونالوا جزاء عبادة مديدة وخدمة طويلة.

وسر الجيش الآن سروراً عظيماً، اعتقاداً منه أنه سوف يلقي بالحال نظرة على ضريح مولانا، وبدأ الجميع يعملون على تلميع دروعهم وخوذهم وسيوفهم، حتى لاتبقى ولانقطة تفسد لمعانها، وباختصار كان الجميع متشوقاً لخوض غمار هذه المغامرة، وتبجحوا أن جميع قوى الاسلام أو الحملات المعادية للمسلمين لن تمنعهم من تنفيذ تعهدهم الصعب.

غير أن العقلاء بينهم لم يوافقوا على هذه الآراء ولم يرتضوها، وأقنع الداوية والاسبتارية والبلديون (البوليانز) الملك رتشارد بالاقلاع عن الزحف حاليا نحو القدس، ذلك أنهم امتلكوا بصيرة أمضى حول أوضاع البلاد ومستقبلها، وكانوا يخشون أن يتعرضوا وهم يحاصرون صلاح الدين لهجوم الجيش التركي الذي كان بين الجبال، فهذا الجيش قد يفاجيء رجالنا، وبذلك يصبحون بين قوتين: تقاتلهم شحنة القدس من الداخل والجيش التركي من الخارج، لابل أكثر من هذا حتى وإن استولوا على القدس، سيكون من الضروري شحنها بقوة من أشجع العساكر، وهذا سيكون من الصعب جداً تحقيقه، لأن الناس أصابهم الانهاك، وكانوا يعانون من قلة الميرة والعتاد، وكلهم متشوق لاكمال حجه والعودة إلى وطنه،ولهذه الاسباب نصحوا بتأجيل الحصار إلى وقت آخر، وإبقاء الجيش مجتمعاً، فهذا يتحقق طالما أن نذر عناصره لم يتم الوفاء بها، لأنه ما أن يقوموا بالوفاء بتعهداتهم حتى ينفرط عقد الجيش، لكن نصيحة الداوية لم يصغ إليها أيضاً.

وكانت الآن بداية السنة (سنة ١١٩٢) وكانت سنة كبيسة، وفي اليوم الثالث التي جاء بعد ختان ربنا، كان الجيش على نية التحرك، فهاجمه حشد من الترك كانوا قد أقاموا كمائن في الليلة السالفة قرب قلعة الجيب التحتاني، أقاموها بين الأحراش التي حاذت ذلك الطريق، وعلى الفور تمت إبادة مجموعتين من رجالنا كانتا في الطليعة، واطلع

الملك رتشارد على خبر الكمين، فزحف بكل سرعة في الصباح، آملاً أنه سيتمكن من انقاذ قوات المقدمة، لكن الترك، وكان عددهم حوالي المائة، وهم الذين شكلوا الطليعة (اليزك) لاحظوا راية الملك، فهربوا، وأصيب سبعة منهم: بعضهم قتل، وبعضهم الآخر وقع بأسر الملك وهو يقوم بالمطاردة.

وبعد عدة أيام من عيد الغطاس، اجتمع رجال المجلس الاستشاري للجيش ثانية، ومعهم بعضاً من أكثر البلديين حكمة، للبحث في مسألة الزحف إلى القدس، ومن جديد ألح الاسبتارية والداوية مع البلديين (البوليانز) كما فعلوا من قبل على وجوب إعادة بناء مدينة عسقلان، لقطع المواصلات والمراسلات بين القاهرة والقدس.

وعلى هذا وافقت أكثرية المجلس، وعندما غدا هذا معروفاً، كان الجيش منزعجاً جداً، حيث تصور أن آماله في رؤية ضريح الرب ستعاق كلية، واختفت الحماسة السالفة لعناصره، وخلفها اليأس وحل محلها، في حين صبوا لعناتهم على أصحاب هذا القرار على أساس أنهم دمروا أثمن أمانيهم وأغلاها.

ولو أنهم عرفوا ما كان يعاني منه الذين سكنوا القدس من مصاعب ومشاق لحصلوا على بعض السلوان والمواساة من اضطرابات العدو وآلامه، ذلك أن الترك في القدس كانوا يعانون كثيراً، ويواجهون أثقل المشاق من البَرَد والثلج، الذي كان يذوب في الجبال، مسبباً فيضانات من المياه كانت تنحدر نحو المدينة وتتدفق عليها، مسببة إما اغراق مواشيهم، أو قاتلة إياهم أنفسهم فيما بعد نتيجة للبرد، فلقد كان عناءهم من حالة المناخ قد بلغ حداً عظيماً، إلى حد لو أن الصليبيين عرفوا بذلك لكان من المؤكد تمكنهم من الاستيلاء على المدينة، مع انه كان مقدراً عدم استطاعتهم الاحتفاظ بها لوقت طويل، لأن الناس كانوا بعد وفائهم بنذرهم المتعلقة بالحج سيعودون إلى أوطانهم، وكانوا

لن يجدوا ما يكفي من القوات لشحنها بها والدفاع عنها.

واقترب موعد حلول عيد القديس هيلاري، وكان الأسف والانزعاج في الجيش كبيراً، دفع الكثيرين إلى التخلي عن حجهم، ولعنهم اليوم الذي ولدوا فيه حتى يعانوا من مثل هذا الاحباط، وكان بعضهم قد وصل حالة حد الإعياء بسبب الارهاق والانهاك والفقر، حتى أنهم كانوا بصعوبة بالغة يمكنهم التحمل والمقاومة، وتأثرت خيولهم وحيوانات الحمولة لديهم بالبرد والمطر،وباتت لاتستطيع المتابعة خلال الطين والأوحال، بل سقطت ونفقت جوعاً، ووقعت تحت أثقال حمولتها، وفي حرقة وآلام في النفس رفع سواقها أيديهم نحو السماء وتفوهوا بكلمات مقذعة وصلت حتى حد الكفر.

ومن غير الممكن تصور حالة العذاب والشقاء، حتى أسوأ الجرائم وأقساها، كانت أدنى مما عاناه رجالنا الآن، فلقد اختفت الآن شجاعتهم وأفاعيلهم الجريئة وبسالتهم في الحرب، وحل محلها الحزن واليأس والقنوط في الروح، وذلك بالإضافة إلى المعاناة الجسدية، وبينما كان الجميع في هذه الحالة، كان من الممكن أن يتعرض المرضى والضعفاء لخطر الهلاك لولا عناية الملك رتشارد بهم ورعايته لهم، فقد بعث بالرسل إلى جميع الجهات ليجمعهم مع بعضهم ولجلبهم إلى الرملة، حيث عاود الجيش اجتماعه هناك بكل سرعة، وحصل هذا بعد وقت قصير من مغادرتهم لها.

وحينما كان جيشنا باقيا في الرملة تخلى عدد كبير من أفراده عنه وهجروه، إما حتى يتجنبوا آلام الزحف، أو سخطاً منهم وعناداً، وهكذا نقص تعداده نقصاً هائلاً، وغادر جلّ الفرنسيون لشعورهم بالسخط، وذهب بعضهم للتمتع بالراحة في يافا، وتراجع بعضهم الآخر إلى عكا، حيث توفرت كميات كبيرة من المؤن، والتحق بعضهم بالمركيز في صور، حيث غالباً ما حثهم على فعل ذلك، وتحول آخرون مع دوق بيرغندي إلى

حصـن الجيب التحتـاني واعتزلـوا هنـاك، ومكثوا لمدة ثمانيـة أيام، وكـان الملك رتشارد غاضباً من هذه الحالة التي تجددت، فذهـب مع ابن أخته هنري كونـت أوف شامبين، والجيش الذي نقـص تعداده كثيراً، إلى يبنى، ووجـدوا هنـاك من الضروري التـوقـف، حتـى ينـال الجيش قسطاً مـن الـراحـة، لأن الطـريق كـان مـوحـلاً، وكـانـت تعاسـة عنـاصره العقليـة والجسمية هائلة إلى حـد أن ما من قلم يستطيع أن يكتب عنهـا ،وما من لسان يمكنه أن يعبر عنها.

وجـرى في فجـر النهار إرسـال رجـال مـع خيـم للتقدم نحـو الأمـام، وتبعتهم بقية الجيش، وكـان عذاب اليوم السالف وآلامه لاشيء بـالمقارنة مـع العـــذاب والألم الـذي تحملـــوه الآن مـن الانهاك، والبَرَد والأمطـــار والفيضان، وبـدا وكأن السموات كلهـا قد تـآمرت على تدميرنـا، وغدت الأرض موحلـة جداً، ونـاعمة تحت أقـدام العساكـر، إلى حد أن كـل من الرجـال والخيول وجـدوا صعوبة عظيمـة في تثبيت أقـدامهم ومنعهـا من الانزلاق، وغرق بعضهم في الأوحال ولم يقم مرة ثانية.

من الـذي يمكنه الحديث عـن مصائب ذلـك اليوم؟ وكانـت آلامهم عظيمة إلى حـد، وقاسية إلى درجة أن أشجـع الجند سكبوا دموعهـم مثل المطـر وكـانـــوا قلقين على وجـودهـم الـذاتي، وعنـــدمـا سقطـت دواب التحميل، تلفـت المؤن التي كانت تحملهـا بالأوحال، أو ذابـت وتبعثرت في المياه، إنـه في ظل هذه الأحـوال من التعاسـة، لعنوا اليوم الـذي ولدوا فيـه، وتـابعـوا ضرب صـدورهـم بـأيـديهم حتـى وصلـوا إلى عسقـلان، فوجـدوها مـدمرة من قبـل المسلمين إلى درجة وجـدوا فيها مـن الصعب جداً المرور من خلال الأبواب بسبب أكوام الحجارة.

وكان ذلـك اليوم هـو العشرين من كـانون الثـاني، وعسكر كـل انسان تلك الليلة وأمضاها حسبما استطاع وتدبر الأمر.

كيف أعادوا بناء عسقلان

عسقلان قائمة على الساحل ، ولو أنها امتلكت مرسى جيداً ،لكان من الصعب أن يكون لها نظير،لموقعهاولخصب المناطق المجاورة لها،وفي الحقيقة امتلكت ميناء، لكنه من الصعب الوصول إليه كثيراً ،حتى أنه بسبب الطقس العاصف الذي استمر لمدة ثمانية أيام،بعد وصول الجيش،لم تستطع سفينة الدخول إليه،ونتيجة لهذا ،كانت عساكرنا مع خيولها بحاجة ماسة للمؤن،لكنها لم تستطع الحصول على شيء لمدة ثمانية أيام،وذلك باستثناء ما جلبوه معهم، ولم يكن من الممكن البحث عن الأعلاف في المناطق المجاورة،بسبب وجود الأتراك.

وعندما تحسن الطقس أخيراً ،دخلت بعض السفن الى الميناء ،لكن العواصف جاءت ثانية، ومن جديد بدأ الجيش يعاني من الحاجة، وتم فقدان بعض البوارج والشواني المحملة بالميرة، وكان بعضها قد فقد مع ملاحيه كلهم أثناء الرحلة،وتعرضت عدة سفن للغرق،وكان بعضها من سفن الملك،ذلك أنها تحطمت بالعاصفة .

وعندما سمع صلاح الدين أن عساكرنا قد توزعت على الساحل، وبعضها قد تمزق وتعطل، أعطى دستوراً لعساكره بالعودة إلى مواطنها، وبذلك كان من الممكن لها الاشراف على أمورها الداخلية ومعالجتها، وأصدر أوامر لجنده بالتجمع ثانية في شهر أيار، وعاد الترك، الذين مضى على وجودهم يعملون بمشقة داخل جيش السلطان منذ أربع سنوات، مسرورين إلى زوجاتهم وأسرهم، وحكى مقدموهم وأمراؤهم من ذوي الشهرة باختصار أخبار مغامراتهم والحملات المأساوية التي رأوها، فلقد كانوا في الحروب المتقدمة هم المنتصرين، وحصلوا على وفرة من الأسلاب، لكنهم عانوا الآن من فقدان الممتلكات والمقتنيات، ومن

موت أقربائهم ومقتلهم في المعارك، وتأسوا بشكل خاص وحزنوا لموت الأمراء والمقدمين والآخرين الذين قتلهم الملك رتشارد قرب عكا، عندما أخفق صلاح الدين في تحقيق وعوده بانقاذهم، ولهذا السبب تملكوا مشاعر غضب عارمة ضد صلاح الدين.

وانتهى الآن شهر كانون الثاني، وباتت السماء مشرقة أكثر من ذي قبل، وغضب الملك لانتشار الجيش وتوزعه، فبعث برسائل لإقناع الفرنسيين بالعودة ومن ثم تقوية الجيش، وبذلك يكونوا في وضع أفضل للقيام بالمزيد من الأعمال المقررة، وقال:«من المرغوب فيه أن يكون الجيش مع بعضه مجتمعاً أثناء العمل، لأن التمزق سوف يضعفنا ويعرضنا لحملات أعدائنا» وبناء على هذه الحجج استدرج الفرنسيين للوعد أنهم سيلتحقون بالجيش حتى الفصح، على شرط، أنهم إذا مارغبوا وقتها بالمغادرة يمكنهم ذلك بكل أمان، وشعوراً من الملك بضرورة تحمل ذلك، وافق على هذه الشروط، وبذلك عاود الجيش لحمة اتحاده ثانية.

وكان هناك الآن اتفاق عام على اعادة بناء عسقلان، لكن الأمراء والنبلاء كانوا في حالة إعياء، ولذلك وجدوا أن امكاناتهم وماتوفر لهم لايكفي لذلك الغرض، ومع ذلك شرعوا بالعمل بقدر مااستطاعوا، ووزعوه فيما بينهم، وأخذوا يحفرون الأساسات لواحد من الأبواب الرئيسية حتى وصلوا إلى الصخر الأصم، وأزالوا جميع الردم والفضلات الموجودة في الأعلى، وتولى كل واحد تنفيذ حصته من العمل، وكان من الممكن رؤية الأمراء والنبلاء والفرسان والسادة، ورجال الحاشية، كل منهم ينقل حجرة من يد إلى يد، ولم يكن هناك من تمييز بين رجل دين وعلماني، ونبيل وانسان عادي، وأمراء وحواشيهم وخدمهم، فالكل عملوا مثل بعضهم، ودهشوا هم أنفسهم لنتيجة التقدم الذي حققوه، وعندما تم جلب الحجارة والبنائين، تقدم العمل بنشاط مزدوج، وارتفعت

الأسوار بسرعة.

وكان الملك، مثلما هو في بقية المسائل، قد ضرب المثل الأعلى في دفع العمل نحو الأمام، وذلك عن طريق المشاركة بيديه، وبتشجيع الرجال، وبتوزيع الحصص والواجبات على كل واحد منهم، وبذلك قدم خدمات عظيمة، وبناء على حثه وتشجيعه تولى كل واحد العمل في سبيل إكمال حصته المحددة له بوسائطه الخاصة، وإذا ماتمنع أحدهم بسبب الحاجة إلى المال، تولى الملك اعطاءه من جيبه الخاص، ذلك أنه كان أكبر قلباً مما أبداه من تكبر، وهكذا جاءت براهين التشجيع، وبراهين اليقظة، والانفاق، ولذلك قيل اكتمل اعادة بناء ثلاثة أرباع المدينة بهذه الوسائل.

وبالوقت نفسه رتب صلاح الدين لارسال اثني عشر ألفاً من أسرى المسيحيين الفرنسيين والبلديين من سكان الأراضي المقدسة إلى القاهرة، وجلبهم خدمه حتى دير البلح، وعندما كانوا يمضون الليل هناك مع نية الانطلاق في رحلتهم في اليوم التالي، حدث بقدر من السماء أن قام الملك رتشارد بانقاذهم.

فقد حدث في أحد الأيام أن كان الملك يقوم مع كتلة من نخبة عساكره بأعمال استطلاع لحصن دير البلح، ليدرس كيف يمكنه أن يستولي عليه، لأنه كان يسهل كثيراً مرور الأتراك وهم يجلبون المؤن من القاهرة إلى القدس، ولاحظ الترك الذين وصلوا إلى هناك قبل غياب الشمس قدوم الملك من رايته، فخافوا على حياتهم، واهتموا بسلامتهم، فاعتصموا بسرعة في برج الحصن وتركوا الأسرى في الخارج، وعندما رأى هؤلاء ذلك، التجأوا مسرعين جداً إلى احدى الكنائس المجاورة، ولدى وصول الملك، تولى اطلاق سراحهم دون أن يفقد دقيقة واحدة، وتركهم يذهبون دون أن يصابوا بأذى، وفي الوقت نفسه تولى مع رجاله قتل عدد من الترك صدفوهم على الطريق، واستولى الملك أيضاً على كثير من

الخيـول الثمينة، وأسر عشريـن من زعماء الأتـراك وهم أحيـاء. من الـذي يشكـك أن قدوم الملـك، الذي كـان مفيـداً جداً لهؤلاء الأسرى، لم يكـن مقدراً من الرب؟ فلـو أنه لم يقدم لانقاذهم لاشك أنهم كـانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالعبودية الدائمة.

وبعدمـا أنجز الملـك هذه الأعمال النـاجحة، بعـث برسـل إلى مركيـز مـونتفـرات، وذلـك مثلما فعـل كثيراً مـن قبـل، طـالبـاً منـه القـدوم إلى عسقلان، والالتحاق بالحملة لصالح المملكـة التي تشوق لقيامها، وطلب منه القيـام بذلـك بموجب اليمين الـذي أقسمه لملك فـرنسا، الـذي هو تعهد بـالتبعية الاقطـاعية لـه، لكن المركيـز المنحط أجـاب بتحفظ دنيء، وقال إنـه لن يتحرك مـالم يجتمع أولاً بالملـك رتشارد، ثم بعـد ذلك يجري عقد مؤتمر في مكان محدد هو حصن يحمور (قرب عكا) Ymbric.

وفيما الملك وجيشه منشغلين تماماً في أعمال اعـادة بناء أسوار عسقلان، نشـب خلاف بين الملـك رتشارد، ودوق بيرغنـدي، فقد كـانت المؤن قـد نفـدت واستهلكـت، وبـات كـل انسان لايمتلـك شيئـاً تقـريبـاً، وبـدأ الفرنسيـون يلحون على دوق بيرغندي من أجـل الدفع، أي أن يـدفع لهم ماهو مـدان به، وذكروا أنهم إذا لم يدفع لهم، لايمكنهم متـابعة الخدمة في المعسكر، ووجـد الدوق نفسه غير قادر على تلبيـة طلباتهم الملحة، لـذلك رأى أن من الأفضل أن يسأل الملك رتشـارد تزويده بمبلغ كبير من المال، وفي مناسبة مـاضية كان الملك قـد أقرض الفرنسيين، بناء على طلـب من الدوق، مبلغـاً كبيراً من المال، كان مـن المفترض تسديـده من مال فـدية الأسرى، وبما أن الأسرى لم يدفعـوا فديـة سوى رؤوسهـم، لذلـك ذهبت الوعـود سدى، ولـذلك رفض الملـك في هذه المناسبـة الاستجابـة لطلبه، ولهذا السبب ولأسبـاب أخرى من عـدم الاتفاق، غادر الـدوق عسقلان، مع بعض الفـرنسيين، الذين لم يستطع أن يـدفع لهم، لهذا بادروا مسرعين بالعودة معه إلى عكا.

ولدى وصولهم إلى هناك وجدوا نشوب صراع مرير بين البيازنة والجنويين، لأن البيازنة كانوا محظيين من قبل الملك غي، في حين وقف الجنويون إلى جانب المركيز، والسبب الرئيسي لذلك هو أنه كان مربوطاً بيمين ولاء للملك فرنسا، وتصاعد الخلاف وانتهى بسفك الدماء وقتال متبادل، وباتت المدينة كلها في حالة فوضى.

ومع اقتراب الفرنسيين من المدينة سمعوا أصوات صخب شديدة، وصراخ الناس يحثون بعضهم بعضاً على القتال، ونتيجة لهذا، أسرع دوق بيرغندي الذي كان مسلحاً تماماً، ليقدم مع رجاله الضمان للجنويين، وكانوا في وضع محرج تماماً عند وصولهم، ولهذا انزعج البيزيون عندما رأوهم قادمين، وخرجوا بجرأة للتصدي لهم، وانقضوا على دوق بيرغندي، الذي بدا أنه قائدهم، وطوقوه وعندما طعنوا فرسه بحربة، ألقوه أرضاً، ثم تراجعوا إلى المدينة، وأغلقوا الأبواب، وأقفلوها، كاحتراز احتياطي ضد أي حادث غير مرئي قد يقع، لأنهم سمعوا بأن الجنويين بعثوا إلى المركيز يطلبون منه القدوم بأقصى سرعة ممكنة حتى يستولي على عكا، وقد وعدوه بتسليمه إياها، ولهذا اتخذ البيزيزن كل الاحتياطات ضد هذا العمل، ولضمان سلامتهم وسلامة المدينة.

ولم يضع المركيز ولادقيقة واحدة، بل جاء مسرعاً إلى عكا في شوانيه مع عدد كبير من الرجال المسلحين، آملاً بالاستيلاء على المدينة على حين غفلة، ولدى وصولهم قاتلهم البيزيون برجولة بالعرادات والمجانيق، وبما أنهم كانوا واثقين من عدالة قضيتهم فقد قاتلوا بشجاعة، وقاوموا خصومهم لمدة ثلاثة أيام، وبعثوا برسالة إلى الملك رتشارد الذي كان آنذاك في قيسارية في طريقه لحضور المؤتمر، وأخبروه بصورة الأوضاع، وطلبوا منه القدوم بكل سرعة ممكنة.

وعندما سمع المركيز بأن الملك رتشارد بات قريباً منه، عاد مسرعاً إلى صور، وكأنه كان يشعر بقرارة نفسه أن قدوم الملك نذير سوء بالنسبة له،

لكن على الرغم مما بذله من سرعة وصل دوق بيرغندي مع الفرنسيين أولاً إلى صور، وعندما وصل الملك رتشارد إلى عكا، أخذ على عاتقه ترتيب كل شيء، فصالح البيزيين مع الجنويين، وجعلهم يتوحدون في وئام ووفاق، وأعاد إقامة تفاهمهم الجيد المسبق.

وبعدما أكمل الملك رتشارد تهدئة الأوضاع والناس وفق هذه الطريقة، أرسل رسولاً إلى المركيز يخبره في أن يعود إلى يحمور، ليرى إذا كان من الممكن التوصل إلى تفاهم تصالح وصداقة، وبناء عليه إلتقيا، وعقدا مؤتمراً طويلاً، لكن بلا محصلة، وتصوروا الآن أن دوق بيرغندي، والمركيز وكذلك الفرنسيين اختاروا التغيب عن الجيش، وأسف الملك رتشارد بقرارة نفسه أسفاً كبيراً على شروط السلام التي تم الاتفاق عليها، وتردد لوقت طويل حول ماهو الأفضل للقيام به، وتشاور مع القادة وأكثر الرجال حكمة وتجربة في الجيش، وقرروا أن المركيز قد خسر دعواه للملكية التي كان قد وعد بها، ونتيجة لسلوكه المريب، ينبغي حرمانه من جميع موارده، ونتيجة لهذا نشب خلاف كبير بين النبلاء الفرنسيين وبين الملك رتشارد، وبشكل خاص بينه وبين المركيز.

وفي يوم أحد السعف، قلد الملك رتشارد، وسط مظاهر أبهة عظيمة، حزام الفروسية إلى ابن سيف الدين الذي بعث إليه لهذا الغرض.

كيف تراجع الفرنسيون إلى عكا وكيف جرى اغتيال مركيز مونتفرات

في يوم الثلاثاء المتقدم وعلى عيد الفصح، عاد الملك رتشارد إلى الجيش في عسقلان، وكان حزيناً جداً، على درجة كبيرة من الانزعاج، وفي اليوم التالي طلب المتبقي من الفرنسيين من الملك أن يزودهم بحراسة وبجواز أمان، ووافق الملك، وعين لهم الداوية ليتولوا مرافقتهم في رحلتهم، وعين كذلك معهم الاسبتارية، كما ورافقهم الكونت هنري أوف شامبين ومعه عدد كبير آخر، ورافقهم وهو على طريقهم شخصياً (لحرصه على أن لايدع نقطة موائمة للعناية)، وفعل ذلك وهو يحاول أن يبقيهم مدة أطول، غير أنهم رفضوا رفضاً قاطعاً، لذلك تركهم يذهبون وعاد إلى عسقلان، ومن هناك بعث برسل مسرعين جداً إلى عكا، لتوجيه الأمر إلى الحامية هناك بعدم السماح للفرنسيين بدخول المدينة، وألا يتعرضوا لهم بأية اهانة أو ازعاج، يمكن أن يتخذ حجة عدوانية ويؤدي إلى الخلاف، وبناء عليه عندما وصل الفرنسيون مركزوا أنفسهم خارج المدينة.

وانخفضت معنويات الجيش كثيراً في يوم عشاء ربنا، بسبب مغادرة الفرنسيين، لأنه خسر بذلك جزءاً كبيراً من قوته، لقد فقد سبعمائة فارس (من الرجال المجربي الشجاعة وذوي الفعالية الكبيرة)، فلقد غادر هؤلاء، ونتيجة لهذا اضطرب الناس وانزعجوا كثيراً.

وسر الترك سروراً عظيماً لدى سماعهم بما حدث، وعندما أخبر صلاح الدين بذلك، بعث بالرسل إلى جميع الأمراء والناس في ممالكه يأمرهم بمرسوم صادر عنه أن يدعوا جانباً مشاغلهم وأن يقدموا إلى أراضي القدس بكل سرعة ممكنة، وقال لهم:«إن الفرنسيين، لسوء معاملتهم، غادروا، وتركوا البلاد تقريباً بلا مدافعين عنها، وتدنت كثيراً طاقة الحرب

لدى جيش الفرنجة وتداعت قدرته، ولهذا نأمل بكل ثقة أن نتمكن في وقت قصير من الاستيلاء على عكا وصور اللتان هما المدينتان الرئيسيتان في هذه البلاد»، وعاد الترك وانضموا تحت لواء السلطان، لكن باستعداد أقل، وبأعداد أدنى من قبل، لأنهم لم ينسوا الماضي، وبالمقارنة مع عددنا المتدني، لقد تفوقوا علينا كثيراً في قوتهم.

واحتفل الملك رتشارد في عسقلان بعيد الفصح، الذي جاء في الخامس من نيسان، بأبهة عظيمة، وزود الناس بكل ما احتاجوه مع كميات وافرة من اللحم والشراب، وأمر بنصب سرادقه على المروج خارج المدينة، وقدم إلى شعبه كثيراً من الضروريات التي احتاجوها للاحتفال بهذه المناسبة بأبهة وروعة.

وعاد يوم اثنين الفصح متيقظاً نشطاً لمتابعة العمل الذي كان قد بدأه وتابع بكل غيرة وحماسة إعادة بناء أسوار المدينة، وكما هي عادته حث الناس وحرضهم على إكمال ماتبقى، ونتيجة لحرصه وعنايته وتعاونه اكتمل كل شيء على حسابه الخاص وبدون مساهمة الفرنسيين وذهب الملك مع عدد قليل من أتباعه، يوم ثلاثاء الفصح، في عملية استكشافية نحو غزة، وانطلق في يوم الأربعاء ليقوم بتفحص قريب لدير البلح (الداروم)، محاولاً التأكد من النقطة الموائمة للهجوم عليها، لكن الترك اتخذوا موقف الدفاع في البلدة، ورموا بكثير من النشاب من القسي وأيضاً بجروخ كثيرة، مع شتائم وإهانات للملك ولرجاله، وكأن المكان لايرام، وعندما استكمل الملك تفحصه لها، عاد إلى عسقلان.

وبعدما غادر الفرنسيون، عاد الذين عهد إليهم من قبل الملك بمرافقتهم تأمين وصولهم حتى عكا، عادوا إلى المعسكر في عسقلان، وما أن وصل الفرنسيون إلى صور حتى أطلقوا لأنفسهم العنان للانغماس بكافة المسرات، الأمر الذي نرى من المفيد التوقف قليلاً لذكره.

لقد غادر الآن المعسكر، الرجال أنفسهم الذين يفترض أنهم جاءوا يوجههم تدينهم وغيرتهم لانقاذ الأرض المقدسة، وتخلوا عن هذا، وسلموا أنفسهم للغانيات وللأغاني المبهجة وللمتع الجنسية، لأنهم ابتهجوا (حسبما جاء على لسان الذين رأوهم) بالرقص مع النساء، وعبر مظهرهم الخارجي عن خلاعتهم وتبذلهم، فقد ربطت أكمام أثوابهم بسلاسل ذهبية، وأظهروا عن عمد أوساطهم، وحزموها بأحزمة مطرزة، وبقيت أرديتهم مكشوفة مع أذرعتهم وكانت مربوطة لتمنع رؤية طرف من أثوابهم، والذي افترض لتغطية ظهورهم، أرغم الآن على خدمة أجزاء أخرى من الجسد، لأن بطونهم، وليس ظهورهم غطيت بهم، ووضعوا حول أعناقهم أطواق كانت تشع بالجواهر، وعلى رؤوسهم قبعات نسجت بكل شكل من أشكال الورود، وحملوا في أيديهم الكؤوس والدنان وليس السيوف، وكانوا بعد أن يمضوا الليالي كلها في الشرب والعربدة، يذهبون إلى بيوت العاهرات، وإذا صدف وكن مشغولات، والأبواب مغلقة في وجوههم، كانوا يخلعونها، وهم يتلفظون بلغة وأيمان ترعب الذين يسمعونهم.

وبكلمة واحدة برهنت أحوالهم الخارجية على تردي أخلاقهم، والعار للفرنسيين لانغماسهم في مثل هذه التجاوزات، ولايمكننا أن نؤكد أنهم جميعاً كانوا مجرمين بهذا أو حمقى، لأنه كان هناك عدد كبير ممن كان مزعوجاً جداً تجاه هذا المسلك المتحلل، وآسفين لعدم توافقهم مع الملك رتشارد.

وبعد انقضاء عيد الفصح بعدما بات موسم الجواز البحري ممكناً، وصل رئيس رهبان دير هيرفورد Hereford ، وهو دير انكليزي، حاملاً رسالة إلى الملك رتشارد، جعلت الجيش كله يضطرب، لقد جلب رئيس رهبان الدير رسائل من وليم، أسقف ايلاي، الذي كان مستشار الملك، يخبره أنه والذين أنابهم الملك ليتولوا حكم البلاد أثناء غيابه، قد طردوا

بصفاقة وعدوانية من حصون المملكة، وقتل بعض رجالاتهم أثناء أعمال الصخب، وبوساطة نيابة أخيه للملك، أعني الايرل جون، جرى طرد المستشار من انكلترا، ولم يعد هناك المزيد من المال في الخزانة أو في أي مكان آخر، ماعدا القليل الذي أخفي بكل صعوبة في الكنائس.

وبالاضافة إلى هذا، قال رئيس رهبان الدير: «لقد طرد المستشار نفسه، والكاهن والأسقف مرغمين إلى نورماندي، وذلك بعد ازعاجات كثيرة وسوء معاملة، وأن الايرل جون استخرج بالعنف من الايرلات والنبلاء في البلاد يمين الولاء والطاعة، والتبعية من حفظة القلاع وشحنها، كما أنه صادر بدون حق الدخل السنوي للملك واستولى عليه، والمقصود بهذا الخزينة الملكية، وأضاف رئيس الدير يَقول:إذا لم تتخذ جلالتك قراراً سريعاً حول هذه المسائل، وتعود إلى الوطن بكل سرعة ممكنة، وتنتقم لما لحقنا من اعتداءات العصاة، ستزداد الأمور سوءاً، ولن تستطيع استرداد مملكتك بدون التعرض لمخاطر الحرب».

واستولت الدهشة تماماً على الملك لدى سماعه مانقل إليه، وقلب الأمور في ذهنه طويلاً ولم يقل إلا قليلاً، لأنه اعتقد أن الأمر لايصدق، وأن المسألة قطعة من الشرور تتجاوز المعقول.

ذلك أن الخلاف بين الأمراء نادراً مايمكن تجنبه واضعافه، لكن إذا ماأرغم الملك رتشارد على العودة إلى الوطن، ربما مامن انسان سوف يبقى في الأرض المقدسة، لأن هناك نزاعاً وصراعاً بين الناس في صور وبين شعب عسقلان، ومما لاشك فيه سوف يستولي الترك على البلاد كلها بشكل أبدي.

ودعا الملك في اليوم التالي إلى الاجتماع قادة الجيش، ووضع أمامهم كل ماسمعه، وشرح شرحاً وافياً كلمات رئيس الرهبان، وأعلن بالوقت نفسه أنه لابد بحكم الضرورة من عودته إلى الوطن مباشرة، لكن وعد

بتزويد الحملة في الأراضي المقدسة بثلاثمائة فارس وألفين من عساكر الرجالة المنتخبين، على حسابه، ثم سأل بعد هذا: من الذي سيعود معه، ومن الذي سيبقى بعده وأعلن أنه لن يجبر أحداً على هذا أو ذاك، بل ترك الخيار المطلق لكل واحد حسبما يريد.

وبعدما عرض هذه النقطة، أجابوه كما يلي: بما أن البلاد تعاني من التمزق وصراع بعض الفئات، ومادامت نتائج الأمور غير واضحة — لاسيما وأن الملك غي لم يصل إلى مبتغاه في استرداد المملكة — رأوا من الضروري جداً تعيين ملك جديد، يقدمون له جميعاً الولاء، وبحفظه يمكن أن تترك البلاد وبعنايته، ويمكن أن يقاتل معركة الشعب، وينبغي أن يكون رفيعاً، يتبعه الجيش ويطيعه، وإذا لم يقرر هذا بحل مناسب قبل مغادرة الملك، فإنهم جميعاً، فرادى وجماعات سوف يغادرون البلاد، لأنه لن يكون بإمكانهم القيام بحراستها ضد الأعداء.

وعندما سألهم الملك السؤال التالي: أي واحد من الاثنين تفضلون أن يكون الملك: الملك غي أو المركيز؟ جثا الجيش كله من صغير وكبير على الركب، والتمسوا وجوب ترقية المركيز إلى الملكية، لأنه أفضل قدرة بكثير في الدفاع عن البلاد من الآخر إذاما وقع الاختيار عليه، وأصغى الملك إلى التماسهم، وأنبهم بكلمات لطيفة على سذاجتهم وانخداعهم، لأنهم كما حدث في الغالب من قبل انحرفوا عن الأخلاق الحميدة والسمات الحسنة للمركيز.

وباعطاء الملك موافقته، صدر قرار بالاجماع يتعلق بانتخاب المركيز، وجرى ارسال بعض الرجال من ذوي المناصب العالية بالبحر ومعهم حاشية لنقل الأخبار الطيبة إلى المركيز في صور، وشرح له السفراء كيف أنه انتخب ملكاً بالاجماع من قبل الجيش كله، مع موافقة الملك رتشارد، وأن تاج المملكة قد منح له، إذا ما رغب بالقدوم مع الجيش، وممارسة واجباته هناك بنشاط وشجاعة ضد الترك، ومباشرة حكم مملكة القدس

بنفسه في جميع المسائل، كما لو أنها تخصه، ولقد قيل عندما سمع المركيز هذا الكلام، بسط ذراعيه، وهو في غاية السرور في قلبه، ومدهما نحو السماء، وشرع يدعو كما يلي: «مولاي الرب، يامن خلقتني، ووضعت الروح في جسدي، يامن أنت ملك عادل ورحيم، أدعوك ياموﻻي إذا كنت تراني أستحق حكم مملكتك، أعطني الفرصة لأرى نفسي متوجاً، لكن إذا حكمت بعكس ذلك، لاتوافق على ترقيتي».

وعندما بات معروفاً في أرجاء مدينة صور بأن المركيز سوف يتوج ملكاً، كان السرور عارماً بين الناس، وأخذوا يعدون كل ما توجب، واستخدموا كل طاقاتهم للإعداد من أجل الاحتفال بتتويجه، فاقترضوا المال لشراء الملابس والدروع، لأنهم رغبوا في ابداء أروع المظاهر الممكنة في خدمة مثل هذا الانسان الرائع، الذي رقيّ إلى أعلى مراتب المجد، وبات بالامكان رؤية الناس الآن وقد انشغلوا في تنظيف دروعهم وسوابغهم، وتلميع أسلحتهم، وشحذ سيوفهم، ومسح رماحهم، واشترك الجنود والأطفال في معارك صورية، وحافظوا تماما على مظهر صراع حقيقي ومبارزات جدية، ولقد تبجحوا في الوقت نفسه بأنهم في المستقبل سوف يدمرون الترك.

وفي أحد الأيام كان المركيز عائداً من استقبال أقامه له أسقف بوفياس Beauvais وكان به هو الضيف، وكان مسروراً جداً، ونفسه مشرقة مبتهجة، وعند وصوله إلى بيت التعشير، قفز عليه فجأة شابان بلا أردية — من الحشيشية — واندفعا نحوه، وبأيديهما خناجر كانت مخفية، وطعنوه حتى قلبه، ثم انعطفا هاربين بسرعة قصوى.

وسقط المركيز على الفور من على ظهر حصانه، وتقلب على الأرض وهو يموت، وتم على الفور قتل أحد القاتلين، لكن الآخر اختبأ في الكنيسة، وعلى الرغم من حرمة المكان، فقد ألقي القبض عليه، وحكم عليه بالسحل في أرجاء المدينة حتى يموت، وقبل تنفيذ العقوبة به، استجوب

بدقة لمعرفة الذي حرضه ولاكتشاف الأسباب الدافعة لذلك، ولماذا اقترفا هذه الفعلة، وقد اعترف بأنهما أرسلا منذ زمن طويل مضى، وأن ذلك كان بأمر رئيسهم، الذي توجبت طاعته.

وقد تبين أن هذا كان صحيحاً، لأن هذين الشابين كانا منذ أمد في خدمة المركيز، ينتظران الفرصة المناسبة لتنفيذ فعلتهما، فقد تقدم لشيخ الجبل، صاحب مصياف ارسالهما لاغتيال المركيز في مدة من الزمن محددة، هذا وكل واحد قضى شيخ الجبل أنه يستحق الموت، عمل على اغتياله بالطريقة نفسها.

وجلب شيخ الجبل صاحب مصياف، تبعاً لعادة متوارثة عدداً كبيراً من الأطفال النبلاء إلى قصره، وجعلهم يتعلمون كل نوع من أنواع المعرفة والتدريبات، ووجههم لتعلم كل نوع من أنواع اللغات إلى حد تمكنهم من الحديث بها بدون مساعدة مترجم في أي بلد من بلدان العالم المعروف، وتضمن ذلك أيضاً وحشية وقسوة إلى أعظم الدرجات وسرية عميقة جداً، وجرى تدريب الطلاب وتعويدهم على المتابعة والتمسك بذلك برغبة وعناية كبيرة، وكانوا عندما يصلون إلى سن البلوغ، يدعوهم الشيخ إليه، ويؤكد لهم براءتهم من كل ذنب في قتلهم لبعض أعيان الناس، الذين يذكرهم بالاسم، ولهذه الغاية كان يعطي كل واحد منهم خنجراً بطول مرعب وحاد جداً، وانطلاقا من طاعتهم الإيمانية، لم يعرفوا التردد قط في الانطلاق وتنفيذ ما أمروا به، وما كانوا يقفون حتى يصلوا الأمير أو الطاغية الذي عين لهم، ويبقون في خدمته حتى يجدوا الفرصة المناسبة لتنفيذ أغراضهم، معتقدين أنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الدخول في الجنة.

والآن فيما المركيز كان يتنفس أنفاسه الأخيرة، حمله مرافقوه الذين كانوا من حوله على أذرعتهم إلى القصر وهم يندبونه ويبكون عليه بتفجع، لاسيما لأن سرورهم قبل قليل كان عظيماً جداً، وأوصى زوجته بالاهتمام

بكل عناية بالحفاظ على مدينة صور، وألا تسلمها لأحد غير الملك رتشارد، أو إلى الشخص الذي تؤول إليه المملكة بحق الوراثة، وما لبث أن مات ودفن في مقر الاسبتارية وسط حزن عظيم وأسى كبير.

وفي وسط الفوضى التي سادت بين الناس، تهامس بعض من الفرنسيين (الذين ابتغوا تغطية شرورهم بنوع من الأكاذيب، وأدخلوا في عقول الناس جميعاً) بأن الملك سبب بشكل شرير مقتل المركيز، وأنه هو الذي استأجر هؤلاء الرجال من الحشيشية لهذا الغرض، ولم يقنعوا بهذه التهم التي ألصقوها بالملك رتشارد وأساءوا بها إلى سمعته في هذه المناطق، بل أرسلوا تحذيرات إلى ملك فرنسا حتى يحترز ضد مبعوثي شيخ الجبل صاحب مصياف، وقدموا له تفاصيل كيفية موت المركيز، وذكروا أن الملك رتشارد قد وجه أربعة من هؤلاء الرجال للقيام باغتيال الملك فيليب.

كيف جرى اختيار الكونت هنري ليكون ملكاً لصور

بعد دفن المركيز اجتمع الفرنسيون، الذي بلغ تعدادهم حوالي العشرة آلاف، وكانوا يعيشون في خيم خارج المدينة، والتقوا للتداول فيما بينهم، وبعد نقاش طويل بعثوا بأوامر إلى زوجة المركيز (*) يأمرونها أن تضع المدينة في عهدتهم بدون تأخير أو معارضة، من أجل خدمة ملك فرنسا، لكن الملكة أجابتهم: عندما يأتي الملك رتشارد ليراها سوف تعطيه المدينة، ولن تعطيها لأحد سواه، لأن هذه كانت أوامر المركيز المتوفى، ذلك أنه لايوجد أحد عمل مثله كثيراً لإنقاذ الأراضي المقدسة من الترك، وإعادتها إلى حريتها المتقدمة، وبناء عليه ينبغي اعطاء المملكة إلى أشجع الرجال، ليرتب أمورها كما يراه مناسباً.

وغضب الفرنسيون وسخطوا سخطاً عظيماً تجاه هذا الجواب، وفيما هم يبذلون الجهد لامتلاك المدينة، جاء الكونت هنري بشكل غير متوقع إلى المدينة، وذلك بعد ما اندهش لدى سماعه بما حدث. وعندما رآه الناس قائماً بينهم اختاروه على الفور أميراً لهم، وكأنه أرسل من قبل الرب، وبدأوا بمحاولة إقناعه ليتقبل تاج المملكة، بدون اعتذار أو

---

*— من المفيد مراجعة ما ورد في المجلد السالف مع ما جاء لدى صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري (الجزء الثامن). والملكة هنا هي ايزابيلا أخت سيبيلا (التي توفيت في سنة ١١٩٠، وبذلك غدت ايزابيلا وريثتها)، وعندما توفيت أختها الكبرى كانت ايزابيلا متزوجة من هنفري الرابع صاحب تيرون، الذي كان مكروهاً من قبل النبلاء، ولهذا أقنعوها لتتطلق منه، على أساس أنها خطبت إليه بدون موافقتها، ثم زوجوها المركيز كونراد أوف مونتفرات الذي كان أثيراً لديهم، وبذلك أعطوه حق المطالبة بعرش المملكة ضد غي أرمل سيبيلا، وتزوجت ايزابيلا مرتين أخرتين بعد مقتل المركيز، أولاهما من هنري أوف شامبين، ثم بعد موته من عموري الثاني صاحب قبرص.

تـردد، وأن يتزوج أرملـة المركيز، لأن المملكـة مملكتها بحـق الوراثـة، ورد على هذا كلـه أنه سوف يتصرف وفقاً لنصيحة خاله الملك رتشارد، محترما الحل الـذي يقرره الـرب لكل المسـائل ويـدعوه إليـه، وعلى الفور جـرى ارسال مبعوثين إلى الملـك رتشارد ليعلنوا له الانتخاب الذي جـرى باقرار الناس في تمليك الكونت هنري وليحدثوه عن الاغتيال الرهيب للمركيز.

وفي الوقت نفسه، قبل أن يصـل الرسل المرسلين إلى الملك رتشارد إلى غايتهـم، بدأ الفصل الدافىء بعـد أشهر برد الشتاء، وشرع الملـك رتشارد في مهاجمة الترك بهمـة لاتعرف التعب، مثلما كـان يفعل من قبـل، لأنه لم يكن هنـاك انسان مثلـه، ولا من خـافه الترك مثلما خـافوه، فما مـن واحد آذاهم من قبل مثلما فعـل، فقد كان ينقض، وهو فارغ اليديـن تقريباً، ثم يعود جالباً معـه رؤوس الأعداء، أحيانا عشرة في يوم واحد، وأحيـانا اثني عشر، أو عشرين أو ثلاثين، حسبما يحدث ويصدفهم في طريقه.

وبالإضـافة إلى هـذا كله كـان يجلب معـه إلى المعسكر كـل يوم عـدداً كبيراً من الأسرى، والحق يقال لم يوجد في عصور المسيحية رجلاً مثله دمر أعداداً كبيرة من المسلمين بيديه وحده.

وفي يوم الأربعاء الذي تقدم على عيد القديـس مرقص الرسول، انطلق الملك وجيشه نحو الجديدة لحمايـة المدينة، غير أنه لم يجد أحداً هناك، وفي طريـق العودة قاتـل الملك خنـزيراً بريـا متوحشاً، كـان قد سمـع صوت العساكر وهـم يمرون، فخرج ليقف على الطريـق، وتصاعد الزبـد من فم الحيوان الشريـر، لشدة غضبـه، ووقف شعـر جسده وكـذلك أذنـاه، وبدا وكأنه يستجمـع كل قواه وحنقه إمـا ليتلقى هجوما أو ليقـوم بالهجوم، ولم يتحرك من مكانـه عندما صرخ الملك، وعندما دار الملك حـوله، لدهشته استدار هو حول نفسه، وظل واقفاً في المكان نفسه.

واستخـدم الملـك الآن رمحه بمثابـة رمـح صيـد، وحـركه ليطعنـه بـه،

وانحرف الخنزير قليلاً إلى أحد الجوانب واستعد للقائه، وكان حجم الحيوان حجماً هائلاً، ومنظره مرعباً، وانقصف الرمح الذي خرق صدره العريض بكل جرأة إلى قسمين، وسبب انكساره أنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليتحمل ضعطهما وهما يقتربان من بعضهما، وصار الخنزير غاضباً الآن كثيراً بسبب جرحه، فاندفع بكل ما أوتيه من قوة نحو الملك، الذي لم يمتلك أية مسافة، أو وقتا للانعطاف أو الابتعاد، لذلك غمز فرسه وشدد عليه، فتمكن من القفز فوق الحيوان دون الاصابة بجراحه، علما بأن الخنزير قد مزق تجافيف حصانه، غير أن فعالية الحصان ونشاطه أعاقت الضربة، وحالت قطعة الرمح المغروسة في صدر الحيوان بينه وبين الاقتراب، ثم قام الخنزير سريعاً وكأنه يريد الاقتراب من الملك، لكن الملك كان قد استل سيفه، فطعنه به وهو عابر، وصعقه بالضربة، ثم استدار حول حصانه، وقطع عروق الخنزير، ثم عهد به إلى رجال صيده.

وبينما كان الملك يمضي الليلة التي حلت بعد يوم الرسول المبارك القديس فيليب والقديس جيمس، ومعه عدد قليل من الأتباع، في مجدل يابا Furbia، انقض الترك عليهم في الصباح الباكر، بشكل مفاجىء، وفي نيتهم إما أسرهم أو تدميرهم، غير أن الملك كان أول من قفز من فراشه، وأمسك فقط بترسه وسيفه، فأسر سبعة من الترك، وقتل أربعة، وهرب البقية من أمامه، ثم بعث إثر ذلك الداوية والتوركبلي حتى حصن دير البلح (الداروم) لاستكشاف المنطقة، فصدفوا عشرين مسلما كانوا قد خرجوا من الحصن، يحصدون شعيراً، وأسروا هؤلاء وأرسلوهم إلى عسقلان.

وفي هذه الأيام، عندما كان الملك رتشارد مشغولاً في سهول الرملة بأعمال مطاردة الترك، وصل الرسل الذين بعثوا من صور، ومثلوا أمامه وأخبروه بصورة أحوال الأوضاع هناك، وأن الكونت هنري لن يغامر بقبول المملكة إلا بموافقة الملك ونصيحته، ولدى سماع الملك بوفاة

المركيز، مكث وقتاً طويلاً صامتاً وقد اعترته الدهشة تجاه هذه النهاية العنيفة التي جاءت بغير وقتها، لكن لمعرفته أن شعبه خاصة رغب بذلك رغبة كبيرة، سرّ سروراً عظيماً وابتهج لانتخاب ابن أخته، ولذلك أضفيت عليه بوقار علامات التشريف الملكية.

obeikandl.com

كيف جرى اختيار هنري ملكاً لصور

وقال الملك: « وبناء عليه بما أن المركيز، توقف بحكم قرار موت الذي لايرد، عن الوجود، ليس من المفيد أن ننغمس بالأسى، فالبكاء لن يفيد شيئاً بالنسبة لروح الفقيد، إنني اقدم التهنئة إليكم لانتخابكم الكونت هنري، وإنني راغب تمام الرغبة— إذا شاء الرب — في أن يضفى عليه جميع أمور حكم المملكة في اللحظة التي يجري فيها امتلاك جميع الأراضي المقدسة، وفيما يتعلق بزواجه من أرملة المركيز، ليس لدي من رأي أقدمه، لأن المركيز استحوذ عليها بشكل غير قانوني، بينما كان زوجها مايزال حياً، واقترف الزنا بمضاجعته لها، دعوا الكونت هنري يستحوذ على مملكة مدينة عكا وكل متعلقاتها، وأعني بذلك صور ويافا، وجميع الأرض — إذا رغب الرب — بشكل أبدي، وأخبروه باسمي أيضاً أن يقلع بحملته بأقصى سرعة ممكنة، وأن يجلب الفرنسيين معه، لأنني أنوي الاستيلاء على دير البلح (الداروم) على الرغم من معارضة الترك».

وبعدما تلقى الرسل تعليمات الملك رتشارد عادوا إلى صور، إلى الكونت ، ملكهم المستقبلي، ونقلوا إليه الرسالة التي عهد بها إليهم، ثم عم السرور والفرح بين الجميع وانتعشوا مجدداً، وأقنع أعيان الرجال الكونت حتى يتزوج أرملة المركيز ووريثة المملكة، لكنه رفض خشية اغضاب الملك رتشارد، وبناء عليه، حثه الفرنسيون ونبلاء المملكة على القيام بذلك، لأن الولاء له مع مركزه سوف يقوى بهذا الاجراء، وبوساطة نفوذهم جاءت السيدة عن طواعية وقدمت له مفاتيح المدينة.

ولم يكن من المفترض أن يواجه الذين أقنعوا الكونت لاتخاذ هذه الخطوة كثيرا من المصاعب، لأنه كان من السهل اقناع رجل راغب، واحتفل بالكنيسة بالزواج بشكل مهيب وذلك بحضور رجال الدين

والعلمانيين، وسط أبهة ملكية، وابتهج الجميع لدى انجاز العمل، وكان الفرنسيون والنورمان بالقدر نفسه مسرورين، لأن الكونت كان بالوقت نفسه ابن أخت كل من ملكي فرنسا وانكلترا، وبهذا الاتحاد بات الأمل بأوقات سعيدة ستأتي، وأن يعود أولئك الذين اختلفوا إلى السلام والوئام.

ولدى اكمال الكونت الاحتفال بزواجه أرسل على الفور أشخاصاً ليباشروا الحكم في عكا باسمه، وكذلك في يافا والمدن الأخرى والحصون، وليستحوذوا على جميع الممتلكات التي توجب استملاكها في ظل سيادته وباسمه كمولى لهم، ثم أصدر مرسوماً، دعا فيه الجميع ليكونوا جاهزين للحملة ضد دير البلح.

وبعد ما ترك الكونت هنري أشخاصاً مناسبين لحماية مدينة صور وبقية البلاد، قام وبصحبته دوق بيرغندي بتحريك جيشه نحو عكا حتى يسرّع الحملة، وجلب أيضاً معه زوجته، لأنه كان لايصبر على البقاء بدونها.

وعندما عرف شعب عكا أنباء قدوم الكونت، خرجوا وهم يرقصون لاستقباله، وهتفوا بحياة السيد الجديد، واحتشدوا من حوله، ورافقوه في دخوله إلى المدينة، التي كانت مزينة من كل جانب مثل معبد من المعابد، فلقد زينت بالستائر والأقمشة الحريرية ، وملأت روائح البخور المحترق كل مكان، وانتقل شذى الروائح الطيبة من طريق إلى طريق، ومن شارع إلى آخر، وقامت النسوة بالرقص ببهجة ونشوة، وتقدم حشد هائل من الناس، بلغ تعداده ستين ألفاً، بكامل السلاح، نحو الأمام لاستقبال الكونت ، وللتعبير عن سرورهم وتقديرهم له. وقاده رجال الدين بيده إلى داخل الكنيسة، إلى أمام المذبح، ومنحوه الصليب المقدس، وآثاراً مقدسة أخرى، ليقبلها، وقدم الكونت نفسه، ومعه عدد كبير من الآخرين، هبات ثمينة هناك، واقتيد بعد هذا إلى القصر الملكي، حيث أمر باعداد وليمة، وبذل كل واحد — حسب رتبته وقدراته—

جهده لتقديم التشريفات للسيد الجديد.

وبما أن صعود رجل جديد كان معناه دوما سقوط آخر، وعليه إن خسارة واحد هي لصالح ومنفعة آخر، فالآن حرم الملك غي من المملكة التي قاتل في سبيلها عدداً كبيراً من المعارك، وأقام الآن هناك مثله مثل انسان عادي، ليس لأنه غير جدير (لأنه لم يكن هناك ملك آخر مثله بالعادات الملكية والطباع ولا أحسن منه)، بل لسبب واحد، هو أنه كان ساذجاً، ولايعرف حرفة التآمر السياسي، وعوضاً عن أن يقدر كثيراً لامتلاكه هذه الصفات — فهذا هو المتوجب — عد ضعيفاً لاتجوز طاعته.

ولقد كان عسكريا صاحب شجاعة كبيرة، وتولى ادارة حصار عكا، عندما كانت محتلة من قبل الترك، بنشاط عظيم وبتصميم ومثابرة، لكن نظراً لازدياد أعداد الأعداء على الجانب المصاقب للبحر، لم يستطع اقتحام المدينة، الأمر الذي سعى من أجله بعده ملكان وقد لاقيا صعوبات جمة حتى استوليا عليها، فهل يصح بعد هذا أن تؤذيه بساطة أخلاقه، وتحرمه من الحصول على حقوقه؟ هكذا هي متناقضات العصر، فالذي عرف بأنه أبعد الناس عن الانسانية في أخلاقه وأعماله عدّ أهلاً لعظيم الشرف والمجد، وهكذا بما أن المهارة هي الفضيلة المتحكمة في العصر الحالي، حصل الدهاء على الاحترام، في حين غرقت التقوى في عدم الاحترام.

وهكذا بات، آنئذ غي ملكاً بدون مملكة، حتى أشفق الملك رتشارد عليه، وهو المعروف بعطفه وشفقته، فأعطاه بدون شروط ملكية جزيرة قبرص، ومع أن الداوية كانوا قد اشتروا الجزيرة منه من قبل، وضعت شروط الشراء جانبا، وصار غي امبراطوراً لقبرص.

وفي الوقت الذي اغتيل فيه المركيز في صور، وصل عدد كبير من

الرسل من انكلترا يحثون الملك على العودة، وقال بعضهم إن كل شيء سليم، وقال آخرون إن انكلترا على وشك أن تؤخذ منه، وترجاه بعضهم للعودة إلى الوطن في حين بذل آخرون كل جهودهم لاقناعه لاكمال حجه، وهكذا شوشت تأكيداتهم المتباينة فكره، وجعلته لايهتدي إلى أي جانب سوف يميل، لكنه قدر نفسية الملك الفرنسي انطلاقاً من تجربته الماضية، لأنه كما يقول المثل :« الذي لديه جار سوء لاشك أنه سيجد في الصباح شيئاً ما سيئاً».

obeikandl.com

- ٩٤٩ -

كيف استولى الملك رتشارد على حصن دير البلح عنوة

في الوقت الذي كان فيه الكونت هنري مع الفرنسيين في عكا يسيرون نحو حصار حصن دير البلح، شرع الملك رتشارد الذي كان يكره التأخير مع رجاله بالانطلاق من عسقلان، وأرسل بوساطة البحر مجانيقه، التي وضعت قطعة قطعة على ظهر السفن، وخلّف رجالاً لحراسة المدينة، كما إكترى آخرين بأجور مغرية ليتولوا بالنهار مراقبة الحصون العدوة المجاورة، وليقيموا حراسة ليلية دقيقة ليمنعوا الأتراك من حمل الميرة— كما كانوا يفعلون من قبل— إلى دير البلح، حيث خططوا مراراً وتكراراً لإقامة كمائن ضد رجالنا، ثم انطلق الملك مع عساكره خاصة نحو حصن دير البلح، ووصل إلى هناك يوم الأحد، ونصب خيمته وخيام أتباعه على مسافة قصيرة منها.

وبالنظر لقلة عدد رجالنا كان هناك شكوك حول أي أجزاء الحصن ينبغي مهاجمته، بحكم أنهم كانوا غير قادرين على الاحاطة به بشكل كامل، فإذا ما جرى تفريق أعدادنا الصغيرة لن يكون بالامكان اقتحام البرج، أو الصمود في وجه حملة الأتراك، ولهذا تراجعوا كتلة واحدة نحو قرية كانت قائمة في السهل، وهناك شكلوا أنفسهم وعبأوا قواهم، ولدى رؤية الترك هذا الجيش الصغير خرجوا من الحصن وتقدموا نحو الأمام، وكأنهم يريدون اثارته وتحديه للدخول في معركة، ثم تراجعوا ثانية وأغلقوا الأبواب بإحكام وقوة، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم.

وإثر هذا مباشرة وصلت مجانيق الملك في سفنه، وكانت هذه المجانيق مفككة إلى قطع متعددة، وحمل الملك مع أمرائه ونبلائه قطع المجانيق على أكتافهم من الشاطىء (ليس بدون تصببهم بالعرق) إلى مسافة تقارب الميل، وأخيراً عندما جرى تركيب الآلات وتجميعها، واستعد

الـرجال للعمـل بها، تعهـد الملك بنفسـه القيـام بتشغيـل واحدة منهـن، واستهدف أن يهاجـم بها البرج الرئيسي في الحصـن، وتولى النـورمانـديون تشغيل الآلة الثانية، ورجال بواتو الآلـة الثالثة، ووضعت كل آلة وجهزت لتقوم بـأعمال التدمير، وجعـل الملك رتشـارد آلاته تعمـل ليل نهار، ولهذا السبب جهدوا في سبيل حماية أنفسهم برجولة، وهنا رأى الترك أن الدمار الكامل بات وشيكاً.

وامتلك حصـن دير البلح سبعـة عشر برجاً قويـاً ومتيناً، وكان أحـدها أعلى من البقية وأقوى، وكانت الأبـراج مع الأسوار محاطة بخندق عميق مغطى مـن أحد الجوانب بصفائح مـن الحجارة، بينما كان الجانـب الثاني بطبيعته من الصخور، واستولى الآن الرعب المخيف على المسلمين، خشية أن لايتمكنـوا من الـدفـاع عن أنفسهـم بشكـل فعـال، أو حتى النجـاة بأرواحهم، وأمر الملك النقابون في اليـوم التالي بالشروع في حفر أنفاق بكل عنـايـة تحت الأرض، مـن أجـل اقتلاع الأحجـار وفتـح ثلمـة في السـور، وتمكنت آلات الرمي بـوساطة العمل الجماعي والرمي المتـواصل من تدمير واحد مـن مجانيق العدو، الـذي أقيم على البرج الرئيسي، وأدخـل تحطيمه إلى قطع الرعب كثيراً إلى قلوب العدو.

وفي البـدايـة رد الترك رجالنـا إلى الخلـف بـالحجارة والنشـاب الـذي تساقط بكثافة مثل زخات المطر، مـن عراداتهم وأقواسهم، ووجه العاملون في عراداتنا رماياتهم نحو أي انسان شـاهدوه فوق الشرافات، وهكذا قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً منهـم، لذلك نادراً ما تجرأ العدو على التحـرك،وباتت أحوالهم الآن بعيـدة عن أن يحسدوا عليها، عنـدما انهار واحد مـن أبواب الحصـن، بسبب النيران، ثـم دمّر تـدميراً كامـلاً بـوساطـة رمايـات آلات الملـك، وارتعـب الترك كثيراً نتيجـة لما حـدث، وللـرمـايـات المتـواصلـة والحملات المستمرة، وباتوا غير قادريـن على الاستمرار بالدفاع، لأن عدداً كبيراً منهم قد قتل، وتمدد الآخرون جرحى على الأرض.

وبات الآن واضحاً أن الملك رتشارد كان دوماً من المتعذر قهره في كل عملية شرع بها، وأنه بات واثقاً من النجاح بفعل لغمه للأبراج واستمرار آلات رميه بالقذف، وبناء عليه خرج ثلاثة من المسلمين من الحصن وتقدموا نحو الملك رتشارد والتمسوا السلام، وعرضوا عليه تسليم الحصن وكل شيء عائد إليه شرط أن يسمح لهم بالمغادرة آمنين على حياتهم، لكن الملك رفض وأخبرهم أن يدافعوا عن أنفسهم بقدر ما يستطيعون.

ولهذا عادوا إلى الحصن، واستمرت آلات الملك تعمل بلا توقف، وبعد هذا مباشرة تهاوى أحد الأبراج بعدما أُلحق به الضعف نتيجة حفر نفق تحته من قبل النقابين التابعين للملك، وجاء انهياره إثر تلقيه رمايات متواصلة، وعندما انهار أحدث دوياً هائلاً، واختلط الترك أثناء محاولتهم النجاة من وسط الخرائب برجالنا، الذين لاحقوهم وهم يقتلونهم حتى قاموا بعقر خيولهم، وهو عمل مرعب فعلوه ليحولوا دون وقوعها بيد الفرنجة ومن ثم استخدامها، وإثر هذا التجأوا إلى البرج الرئيسي.

وهرب الترك الآن، واقترب رجالنا بجرأة من الحصن، وكان أول الداخلين إليه هو سيغوين بورت Seguin Borret ، ومعه حامل دروعه واسمه أوسبيارد Ospiard وكان الثالث بيتر أوف غسكوني، وتلاهم عدد كبير آخر، نُسيت أسماؤهم، وكانت راية ستيفن دي لونغشامب الأولى التي رفعت فوق الأسوار، وكانت الثانية راية ايرل أوف ليستر، وكانت الثالثة راية أندرودي كافني Chavigny ، وكانت الرابعة راية (بوهيموند الثالث) ابن الأمير ريموند (صاحب أنطاكية)، ثم رفع الجنويون والبيازنة أعلامهم على الأسوار، وكانت ذات أشكال متنوعة، وفي الوقت نفسه رميت أرضاً رايات الترك.

وكان من الممكن الآن رؤية الترك وهم يفرون نحو البرج أو يسقطون أرضاً بعد اصابتهم بضربات السيوف، أو ارتموا بلا حراك إثر اصابتهم

بـالنشاب، وذلـك قبل أن يتمكنـوا من الـوصـول إليه، وكـل من وجـده رجالنا مـا يزال صامداً في مكانه فـوق الشرافات، رموه إلى الأرض دونهم، ولقد تم قتل ستين من الترك في مختلف أجزاء الحصن.

وعنـدما رأى الـذين التجـأوا إلى البرج مقتـل عساكـرهم، وأن المكـان الـذي اعتصموا فيـه سـوف يجري تدميره (لأن رجـال الملـك كانـوا على الفور بنـاء على توجيه الملـك قد شرعوا بـالعمل لتدميره) أدركـوا أنهم لن يستطيعوا التمتـع بالأمان طـويلاً في التصـدي للملك، لذلـك استسلموا يـوم الجمعـة قبـل عيـد الحصاد، ووضعـوا أنفسهـم تحت الـرحمة الملكيـة ليكونـوا عبيداً دومـاً إلى الأبد، وتمتن هـذا القرار أكثر بـوساطـة حقيقة أن أميرهم القوي جداً، واسمه قيصر Caisac ، الذي كان معهوداً إليه أمر قيادتهم وحمايتهم، قد أخفق بوعـوده في تأمين الأمان لهم، وبعد الاستيلاء على حصن دير البلح، وجدوا فيه نحـواً من أربعين أسيراً فرنجياً، كانوا في الأغلال، وباتوا الآن يعيشون أحراراً.

وجعل الملك رتشارد رجـاله ليلة الجمعة التالية يقـومون بحراسة الترك الذين ظلوا على قيد الحياة، حتى الصباح، ومع أوائل الفجر طلب منهم النـزول، وقـد ربطت أيـديهم خلـف ظهـورهـم بحبـال، ولذلـك غـدت أطـرافهم متيبسـة، وكان تعـدادهم قـد وصـل إلى ثلاثمائة بـالإضافـة إلى الأطفال والنساء.

وهكذا تملـك الملك رتشارد حصن ديـر البلح، بفخر كبير، وذلـك بعد أربعة أيـام من هجـومه عليـه وكان رجـالنا راغبين تمامـاً في انجاز هـذا العمل بدون الفرنسيين، حتى ينالوا مجداً أعظم.

وهكذا جرى الاستيـلاء على دير البلح، وفي الوقت نفسه كـان الكونت هنري مـع الفرنسيين ودوق بيرغندي، قـادمين بسرعة كبيرة، حتى يكـونوا حضـوراً أثنـاء الاستيلاء على الحصـن، لكنهـم وصلـوا متأخـريـن كثيراً،

واستقبل الملك الكونت لدى وصوله بحفاوة خاصة وبسرور عارم، وأخذه معه إلى الحصن وأعطاه إياه بحضور الجميع، وذلك بمثابة القطاف الأول لملكيته، ولمملكته التي سيستحوذ عليها، وبقي الجميع في حصن دير البلح حيث أمضوا يوم عيد الحصاد العظيم، وفي يوم الاثنين التالي، وضعوا بعض رجال الكونت بمثابة حرس في الحصن، وانطلقوا نحو عسقلان، ومروا في وسط غزة حتى وصلوا إلى مجدل يابا، فهناك بقي الملك لمدة ثلاثة أيام، لكن البقية ذهبوا إلى عسقلان، حيث احتفل الفرنسيون بوقار بعيد الحصاد.

وعندما كان رتشارد في ذلك الموضع هناك وصل رسول من انكترا، وكان رجل دين اسمه جون دي ألنكون Alencon ، ليخبر الملك عن الأوضاع المضطربة في انكلترا، ومرد ذلك إلى تصرفات أخيه الإيرل جون، الذي كان يرفض الاصغاء إلى حجج أمه الملكة، أو إلى أي شخص آخر، بل اتبع هواه والدسائس المتوالية لملك فرنسا، وأكد جون دي ألنكون للملك أنه ما لم يوضع حد للخيانة غير المشهورة، وتوقف بوسيلة أو أخرى، انكلترا واقعة في خطر حرمان الملك رتشارد من ملكيتها.

وانزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار، وفكر مليا حول أي السبل عليه أن يتبع، واعترف أخيراً أن عليه العودة إلى الوطن، إذ لم يرغب في أن تنتزع منه بلاده ومملكة آبائه، وفي الوقت الذي لم يكن قد أعلن فيه عن نوايا الملك ومقاصده، قال بعض الناس إنه ذاهب، وقال بعضهم الآخر: إنه لن يدع تقارير غير مؤكدة تبعده عن إتمام واجبه الديني، فمثل هذا العمل لن يساعد على استرداد الأرض المقدسة، ولن يضاعف أمجاده.

وفيما الناس على خلاف بالرأي حول مغادرة الملك رتشارد، اجتمع معا جميع قادة الجيش وضباطه من: فرنسيين وانكليز، ونورمانديين، ورجال بواتو، ومين وأنجو، واتفقوا أنه سواء أعاد الملك رتشارد أم لم

يعد، سوف يزحفون لحصار القدس، وما من شيء ينبغي أن يمنعهم من القيام بذلك، وعندما بات هذا معروفاً بين صفوف الجيش امتلأ الناس بسرور عارم، وابتهج الجميع مع بعضهم بشكل علني من غني وفقير، وعالي ومنخفض، ولم يكن هناك رجلاً واحداً في الجيش إلا وشعر بالشيء نفسه، وبناء عليه أقاموا إضاءة هائلة، ورقصوا وغنوا طوال الليل تقريباً.

وكان الملك وحده الذي اضطرب لدى سماعه بذلك، وجلس يفكر واستغرق بالتفكير حتى قهره ثقل ذلك، فألقى بنفسه فوق فراشه، وهو غاضب جداً.

وكان الوقت الآن بداية حزيران، وانتعش الناس بالرغبة بالانطلاق نحو القدس، وانطلق الملك مع الجيش من تل الصافية، وتابعوا زحفهم خلال السهول إلى يبنى العائدة للاسبتارية، ثم إلى بيت جبرين فالخليل، قرب الوادي الذي قيل بأن حنة أم مريم العذارء قد ولدت فيه، وتوقفوا هناك حيث هاجمتهم حشود من الحشرات الصغيرة، التي طارت هناك مثل شرر النار، وأطلق عليها اسم « بعوض Cincenelles » ، وامتلأت المنطقة كلها من حولهم بهذه الحشرات، وقد أزعجت الحجاج بشكل مرعب بلسعاتها الحادة في الأيدي والرقبة، والعنق، والجبهة، والوجه، وفي كل مكان صدف وكان مجرداً، وكان يتبع اللسعات حرقة وتورم، وبدا الذين تعرضوا للسع مثل المصابين بالجذام، وبصعوبة استطاعوا تجنب الهجمات المزعجة بوساطة أغطية ألقيت فوق الوجه والرقبة، لكنهم كانوا جميعاً في معنويات عالية، واعتقدوا أن عليهم تحمل هذه المنغصات بصبر، لأنهم جميعاً أقسموا على الزحف من أجل حصار القدس.

ورأى في أحد الأيام شماس من بواتو، اسمه وليم، الملك، وهو جالس لوحده في الخيمة، وعيناه مثبتتان نحو الأرض، وهو في حالة تأمل، فشعر بالانزعاج من أجله، لأنه عرف أنه كان منزعجاً جداً وقلقاً بسبب الأخبار الواصلة من انكلترا، غير أنه لم يتجرأ على المغامرة على الدخول

على الملك ليخفف عنه وليلطف من ضيقه الذي أثقل كاهله، ونظر إليه نظرة احترام وانهمرت الدموع من عينيه، دون التفوه بكلمة واحدة.

وعندما رآه الملك أنه راغب في مخاطبته استدعاه وأدناه منه وقال له ما يلي: « أيها السيد الشماس، أرجوك أن تخبرني، بحق الولاء الذي تدين به إليّ، ما هو السبب الذي جعلك تبكي، وهل لمناسبة انزعاجك وأساك أية علاقة بي؟».

ورد عليه الشماس بصوت متواضع قائلاً: « إنني لن أتكلم قبل أن أعلم أن معاليك لن تغضب من الذي سوف أقوله» : وأقسم له الملك أنه سيعطيه الحرية في أن يقول ما يشاء، وبناء عليه بدأ الشماس يقول:

« مولاي الملك، إنني أبكي بسبب الوضع الحرج الذي أراك فيه قائماً مع الجيش، ذلك أنك تنوي العودة إلى الوطن، لعل الرب يمنعك عن الابتعاد عن استرداد هذه الأرض المسكينة بسبب أخبار مشكوك فيها، أو غير مؤكدة، لأننا نعتقد أن تخليك سيسبب عاراً أبدياً لك، فالجميع هنا على اتفاق أنك الأب، والبطل، والمدافع عن المسيحية، وإذا ما هجرتهم كأني بك وقد ألقيت بهم للدمار بوساطة العدو».

وأصغى الملك إلى كلمات الشماس، وتفكر بها في قرارة نفسه بصمت لبعض الوقت، وتبدل موقفه وتغيرت نواياه بهذا الخطاب، وتأكدت عزيمته حول السبيل الذي سوف يتبعه، ولهذا رجع مع جيشه في اليوم التالي إلى عسقلان، وتوقف في البساتين الموجودة خارج المدينة، وافترض كل واحد أنه بات على نية العودة إلى الوطن، وأنه يسرّع عودته، لكن بما ألهمه الرب إياه من خلال الشماس، أخذ الملك يغير نيته، وأخبر الكونت هنري ودوق بيرغندي وبقية النبلاءأنه لن يترك الأراضي المقدسة قبل الفصح، بسبب تلقية أية رسالة أو أي تقرير أو شكاية مهما كان نوعها.

وبناء عليه، استدعى في الرابع من حزيران، في اسبوع الثالوث

المقدس، فيليب، مناديه وأمره أن يعلن في جميع صفوف الجيش إن على الجميع إعداد أنفسهم وفقاً لامكانياتهم، والاستعداد لحصار القدس، وعندما سمع الجيش كلمات المنادي ابتهج مثل طير عند حلول الفجر، وعلى الفور أعد الجميع أنفسهم وقالوا: « أيها الرب، إننا نعبدك ونشكرك لأنك سوف تجعلنا عما قريب نرى مدينة القدس، التي استقر بها الترك مدة طويلة وأكثر مما ينبغي، أيها الرب بارك توقعاتنا بعد هذا التأخر الطويل، فلم عانينا وتعذبنا وتألم كل منا، إن شوقنا الطويل لرؤية مدينتك سوف يعوضنا عن كل شيء»، وهذا الدعاء ومثله قدمه كل واحد، وبات همهم الوحيد وشغلهم الشاغل الآن هو الشروع بهذا الزحف، زد على هذا كانت حشود الناس من الطبقات الدنيا متشوقة جداً للزحف نحو القدس، وباتوا نشيطين جداً بأملهم، حتى أنهم حملوا حقائب المؤن على أكتافهم، وأكدوا أنهم قادرون تماماً، أن يحملوا ميرة شهر، فلا شيء لايمكن التغلب عليه في ذهن انسان ملك الإرادة، فقط إذا امتلك الرغبة والحماسة في خدمة الرب، فهذا يخفف من شقاء تعبه ويلطفه.

وفيما كل واحد كان مشغولاً بالاستعداد للحملة، بدا أن كل شيء قد حدث متوائم مع نواياهم، وبعد ما استعد الملك والجيش تمام الاستعداد من أجل الزحف، انطلقوا من عسقلان في فجر يوم الأحد، الذي وافق اليوم الثامن بعد عيد الثالوث المقدس، وساروا يريدون القدس، وكان الذين تقدموا في الأمام نخبة الناس، وقد اصطفوا بشكل رائع، وزحفوا ببطيء بسبب الحرارة، وزود الذين انتموا إلى الطبقات العليا الذين انتموا إلى الطبقات الدنيا بما أرادوه بكرم، وكان هؤلاء فقراء الحجاج الذين ساروا على أقدامهم، ولقد زودهم الأغنياء بجميع وسائل التسهيلات من خيول وكل نوع من دواب الحمولة لحملهم، وفي الوقت نفسه سار في الخلف الذين حملوا أسلحة خفيفة، والجنود الشباب

الأقوياء.

وكان بإمكانك وقتها أن ترى عدداً من الأعلام والعذبات من مختلف الأشكال وهي تخفق في الهواء، وكذلك أناساً من مختلف الأمم، وأسلحة متنوعة الأوصاف، وخوذاً لها أعراف وكانت تلمع بالجواهر، ودروع مشرقة، وترسة مزينة بصور أسود أو تنينات طائرة وكلها من الذهب، وبغال وخيول متشوقة للتحرك بسرعة كاملة، ويتحرقون سخطاً لأنهم أعيقوا ببعض المعيقات، وكانت هناك رماح كثيرة بأسنة حادة ذات لمعان، وكان الجو مليئاً بأشعة السيوف المتلألئة، كما وكان هناك عدد كبير من الجنود، من خيرة الرجال، رجال صدق وجودة.

وتقدموا مسرعين وبنجاح، وبعد عبورهم لنهر عذب الماء وصلوا الى تل الصافية، ونصبوا خيامهم بالسهل بالخارج، وأمضوا الليل هناك، وفي أثناء الليل مات عسكري مع حامل سلاحه لأنهما لدغا من ثعبانين في منطقة صغيرة هناك، أرجو أن يمنحهما الرب الذي كانا يعملان في خدمته الغفران لروحهما، ومكث الجيش في ذلك المكان لمدة يومين.

ووصل الجيش في اليوم الثالث، وهو التاسع من حزيران، الى النطرون، وذلك بدون عوائق أو منغصات، وأسر رجالنا الليلة أربعة عشر بدوياً هبطوا من الجبال للنهب، وفي اليوم التالي تحرك الجيش بعد الغداء نحو الأمام، وسار الملك في الطليعة ومعه خاصة جنده حتى قلعة قلونية، حيث أمر بنصب خيمته على الجانب الأيمن، والأعلى من القلعة، ووصل الفرنسيون في اليوم التالي، وانطلق الجيش كله الى بيت نوبة حيث مكث بعض الوقت يتوقع وصول الكونت هنري، الذي بعثه الملك رتشارد الى عكا لجلب بعض الناس الذين كانوا يعيشون هناك باسترخاء وكسل، ولذلك كان من الضروري بالنسبة للجيش أن يبقى هناك الشهر كله أو أكثر، وأن يقيم عند سفح الجبل الذي توجب على الحجاج عبوره لدى ذهابهم الى المدينة المقدسة والعودة عنها.

لماذا لم يزحفوا الى القدس

وفيما نحن في الوادي ، رأينا أشياء كثيرة تحدث ، الأمر الذي نعتقد أننا لا يجوز أن نمرّ به صامتين ، ففي اليوم الذي أعقب عيد القديس برنابا ، وكان يوم جمعة ، أخبر جاسوس الملك أن الترك موجودين فوق الجبل ، في كمين للذين توجب عليهم الجواز ، ولهذا انطلق في الصباح الباكر عند الفجر للبحث عنهم ، وفاجأهم على حين غرة عند نبع عمواس ، فقتل عشرين منهم ، وجعل البقية يفرون ، وأسر منادي صلاح الدين ، الذي اعتاد أن يعلن مراسيمه ، وكان هذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي أبقاه الملك رتشارد حياً، واستولى أيضا على ثلاثة جمال ، وخيول وبغال ، وثلاثة أكاديش وبغلين محملين بأغطية حريرية ثمينة وأنواع مختلفة من توابل الصبر، وأشياء أخرى ، وطارد بقية المسلمين عبر الجبال ، ملحقاً بهم الهزيمة ومقتلاً لهم ، حتى وصل الى وادي ، فهناك بعدما طعن واحداً من الأعداء ورماه أرضاً يموت ، نظر نحو الأعلى فرأى عن بعد مدينة القدس .

وعندما وصلت أخبار اقتراب الملك رتشارد الى الترك الذين يسكنون في القدس ، بوساطة الفارين ، أصيب هؤلاء بالهلع ، وليس هناك من شك لو أن الملك ورجال جيشه تقدموا نحو الأمام في تلك اللحظة من رعبهم ، لتخلي الترك عن القدس ، ولتركوا الفرنجة يستولون عليها بدون منازع ، فقد هرب المسلمون منها أفراداً و جماعات ، ولم يغامر أحد على البقاء بالمدينة ، وما من أحد ارتدع بتهديدات السلطان ، أو انجذب بأمل الحصول على جائزة ، ولهذا كان كل ما طلبه السلطان نفسه هو تزويده بأسرع فرس لديه حتى يمكنه الفرار من وجه الملك رتشارد الذي لم يتجرأ على الانتظار حتى وصوله .

وفي اليوم السابع عشر من حزيران ، وهو يوم عيد القديس بوتولف Boitolph، كانت قافلتنا في طريقها من يافا إلى الجيش مع الميرة وبقية الأشياء الضرورية ، وسارت غالبية طلائع رجالنا بسرعة نحو الأمام ، لكن الذين كانوا في الساقة تبعوهم ببطء وبخطا متثاقلة، وعندما كانوا غير بعيدين عن الرملة، انبعث خيالة ترك من كمين، واندفعوا نحو الذين في الساقة، وحاولوا أن يغدوا أمامهم، حيث مروا مباشرة من خلال ساقة القافلة، وأسقط هناك بلدوين دي كارون Carron من على ظهر فرسه، غير أنه امتشق حسامه وأخذ يضرب به في جميع الاتجاهات، فبرهن أن متمنع على العدو، ويتعذر عليهم الوصول إليه.

وألقي أثناء ذلك القتال برتشارد توركي Torquesوثيودورك من على ظهري فرسيهما ، لكن بلدوين قاتل حتى جلب له رجاله فرساً آخر ، وساعدوه على امتطائه ، وكان هناك صراع حاد ومشرف لكلا الجانبين ، وكانت السيوف تسطع ، وجانب يهاجم والآخرون يدافعون عن نفوسهم بشجاعة قصوى ، وكانت هناك خيول تجول تائهة بدون ركاب ، وكان الترك يحملون ورجالنا يقاتلون بثبات.

وكان ما أن يوقع الترك بعض رجالنا الى الأرض ، كما حدث مراراً ، كان رجالنا يصطفون من حوله بإحكام ، ويقيمونه ، ويساعدونه على امتطاء فرسه ، فقد كان كل واحد يساعد الآخر ، لكن رجالنا قاتلوا في وضع محرج جداً ، فقد كانوا قلة قليلة ، فقد كان كل واحد يصارع عدوه وهو مغطى ـ كما حدث فعلاً ـ بحشد من أعدائه عندما كان أي واحد من رجالنا يحرم من حصانه ، كان مصيره الغلبة من قبل الأعداء ، وقد عقرت الخيول ، وأضعفت كثيراً بزخات النشاب التي رميت عليها .

وألقي بلدوين أرضاً للمرة الثانية وما أن رمي من على ظهر حصانه حتى بادر على الفور فأمر واحداً من رجاله المسلحين بأن يترجل ، وركب

هو عوضاً عنه ، وبعد قليل قطع رأس هذا الرجل الذي تصرف ببسالة .

واتخذ رجالنا الآن موقف الدفاع ، وجرى أسر فيليب رفيق بلدوين ، ومعه أسر الترك رجلاً آخر من الأتباع المسلحين ، وكان شجاعاً جداً ، كما قتل آخر رتشارد توركوي ، وللمرة الثالثة حرم بلدوين من حصانه ، وضرب بالهراوات حتى أصبح بلا حراك وكاد أن يموت ، وتدفق الدم مثل النهر من أنفه ومن أذنيه ، بينما انثلم سيفه من كثرة الاستعمال وانكسر رأسه ، وبات غير صالح للاستعمال ، ثم جرى تطويق بلدوين بمجموعة كثيفة من الترك ، وهنا صرخ لـ « مانسييردي ليسلي» nan-nassier de lisle ، وكان فارساً عظيم القوة ، سحق كل من واجهه ، وقال : « مانسيير هل تخليت إذن عني » ؟

وبناء عليه امتطى مانسيير فرسه وبادر بكل سرعة لانقاذه ، لكن العدو كان كثيراً جداً ، وشجاعاً ويقاتل بعزيمة وثبات ، لهذا لم يستطع هذان الرجلان فعل شيء ضد رجال العدو ، فقد حرم مانسيير من فرسه ، وعندما بات على الأرض ضربوه بوحشية بأعمدة حديدية ، ذوات رؤوس خشنة ولها أسنان ، وكان واقفاً على الأرض ، فأنهكوه حتى سقط لما به وكسروا ساقيه وعظامه ، وكل ما في جسده هتكوه ، وهكذا تم تدمير كل من بلدوين ومانسيير من قبل العدو ، بينما لم يعلم رجالهما شيئاً عن مصيرهما .

وأرسل الرب في هذه اللحظة ايرل سالسبري الشجاع لانقاذهما وحمايتهما ، واندفع الايرل نحو العدو وألقى بأول رجل اصطدم به من على ظهر حصانه ، فعجل بناء عليه أو سكون Auscun ، وكان رفيقاً لستيفن دي لونغشامب ، فقطع رأسه ، ورماه إلى مسافة بعيدة ، وتصرف ستيفن أيضاً برجوله ، وازداد رجالنا بالعدد ، وانزلت الهزيمة بالعدو ، وهرب بسرعة الى الجبال ، اللهم باستثناء الذين ألقى رجالنا القبض عليهم ، أما الذين جرحوا من رجالنا فوضعوا بعناية على

ظهور الخيول وحملوا الى الجيش .

وجلب رجل سرياني ، هو أسقف القديس جورج (اللد) قطعة من صليب الصلبوت الى الملك هنري ، وكان هذا الأسقف شخصياً مع رعيته ممن يدفع الجزية لصلاح الدين ، منذ أن دخل المسلمون القدس للمرة الأولى ، وكان عندما جاء ، جاء مصحوباً بعدد كبير من الرجال والنساء ممن ينتمون الى شعبه ، وأعطى الملك قطعة الصليب .

وحدث أيضاً ، في اليوم الثالث ، قبل عيد القديس يوحنا المعمدان ، بينما كان الجيش في بيت نوبة ، أنه قلق كثيراً تجاه أخبار جلبت الى الملك ، جلبها رجل تقي هو راعي دير القديس إيليا ، الذي عبر مظهره الخارجي ، ولحيته الطويلة ، والرأس الأبيض ، عن القداسة ، وأخبر الملك أنه منذ زمن بعيد مضى خبأ قطعة من صليب الصلبوت ، احتفظ بها لتبقى حتى يتم انقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وما أن سمع الملك بهذا حتى بعث على الفور مع الراعي عدداً كبيراً من الناس الى المكان الذي تحدث عنه الراعي ، وبعدما حملوا قطعة صليب الصلبوت بتذلل وتبجيل ، عادوا معاً الى الجيش ، وقبلوا مع الناس قطعة الصليب بكثير من التقوى والاستغفار .

وبعدما تعبد الجيش الصليب لوقت طويل بسرور عظيم زائد ، تشكى الناس من الطبقة الأدنى ومن العامة وقالوا : « أيها الرب ، ماالذي سنفعله ؟ هل سنتابع الزحف الى القدس ؟ ثم بماذا سنقوم أيضاً ؟ هل سنستطيع الصبر حتى ننجز حجنا » ؟ هكذا تعالت التمتمات والشكاوى بين الناس .

وبناء عليه اجتمع الملك مع قادة الجيش للبحث هل من المفيد المتابعة حتى حصار القدس أم لا ، ووافق الفرنسيون على الزحف بحرارة ، لا بل حثوا الملك على متابعة الزحف والحصار ، وقد رد عليهم

بأن هذا لا يمكن القيام به ، وقال الملك :« إنكم لن تروني أعمل بمثابة دليل وقائد للناس في هذه المسألة ، لأن من الممكن أن نكسب بذلك العار ، لأنه من غير المعقول كثيراً أن نمضي في هذه المغامرة ، وإذا كان يرضيكم متابعة الزحف الى القدس ، لن أتخلى عنكم ، غير أنني سأكون رفيقكم ولن أكون قائدكم ، وإنني سأتبعكم ، لكن لن أقودكم .»

«ألا يعلم صلاح الدين كل ما يجري في معسكرنا ، وهل تظنون أن أوضاعنا الضعيفة غابت عن ملاحظته؟.

إنه يعرف تماماً كم هي قوانا،وأننا بعيدين عن شاطىء البحر، وعندها سينحدر العدو بقواته من الجبال الى سهول الرملة ليراقب الطرقات،وليقطع الممرات على الذين يجلبون لنا المؤن، وهنا ستكون المحصلة مأساوية جداً بالنسبة للمُحاصِرين،وعندها سنندم ولات حين مندم،وسندفع عقوبة مغامرتنا الحمقاء ،وثمن عنادنا» .

«زد على هذا إن أسوار القدس التي نقترح حصارها،هي كما سمعنا-عظيمة جداً باستدارتها،وأن نقوم بمضايقتها بقواتنا-التي هي قليلة كما ترون الآن-إن عددها لن يكون كافياً لمتابعة الحصار ،أو القيام به، أو حماية الذين يجلبون الميرة،من الحملات التي سيشنها الترك،ومن المؤكد أنهم سوف يتعرضون للدمار أفراداً أو جماعات،إذا لم يكن هناك من يتولى انقاذهم».

«وإذا ماقمت بهذه المغامرة الخطيرة ،ونزلت نازلة سوء وأنا المتولي للقيادة (لاسمح الرب) إنني وحدي الذي ينبغي أن يلام لعدم تبصري ،وسأكون وحدي المسؤول عن المخاطر،وليس هناك من شك ،وأنا على يقين من ذلك،أن هناك أشخاص هنا في الوقت الحاضر،كما هناك أشخاص في فرنسا،قد رغبوا منذ وقت طويل، ويتمنون كثيراً أن أبذل غاية جهدي في هذا الصدد،من دون اتخاذ احتياط موائم،وتيقظ مناسب،وأن علي انجاز أعمال

جريئة ،ستكون بحق موضع تساؤل وستجلب العار لاسمي النقي حتى الآن من أية شائبة، وبناء عليه إنها عملية خطيرة جداً ،ولها نتائج مشكوك بها وغير محققة على الاطلاق، وأرى إنه خطأ أن نبادرفنندفع نحو الأمام بدون احتياطات عظيمة»

«زيادة على ماتقدم،نحن ،وشعبنا نجهل طبيعة هذه المنطقة،ولانعرف الطرقات ولاالتشعبات والعقبات،ولو أننا كنا أفضل معرفة بهم،لأمكننا الزحف بسلامة أكبر،ومع هذا أرى إن أفضل سبيل نتبعه هو أن نسأل السكان المحليين من أبناء الأرض،ونطلب نصيحتهم،وهم مشتاقون الى استعادة أراضيهم والعودة الى أوضاعهم الماضية، وينبغي أن نجهد لنتأكد منهم ماالذي يرونه الأفضل للقيام به، وأرى أيضا إنه ينبغي علينا استشارة الداوية والاسبتارية، ونقف على حكمهم وموقفهم حول :هل علينا الزحف أولاً لحصار القاهرة،أو لحصار بيروت،أو لحصار دمشق،وبهذه الصورة لن يستطيع جيشنا الاستمرار،كما هو الآن، في أن يتوزع الى فئات بسبب الآراء المتباينة».

وبناء عليه،تم الاتفاق ،استناداً لتوصية الجميع وموافقتهم،وجوب اختيار عشرين رجلاً موثوقاً بهم،وأن يقسم هؤلاء على اتخاذ قرار حول ماهم بصدده، وأن على الجميع الأخذ بقرارهم دون مزيد من المعارضة،وبالفعل جرى اختيار خمسة من الداوية،وخمسة من النبلاءالفرنسيين، وخمسة من الاسبتارية، وخمسة من البلديين السوريين، واجتمع هؤلاء العشرين مع بعضهم،وبعد التداول لبعض الوقت،حول المسألةالمطروحة من قبل،عرضوا موقفهم المقرر وهو إن أفضل خطة على الاطلاق هي الزحف مباشرة لحصار القاهرة،ولدى سماع هذا عارضه الفرنسيون بكل شدة، واحتجوا وقالوا إنهم سوف لن يزحفوا الى أي مكان إلا الى حصار القدس.وعندما سمع الملك بعناد الفرنسيين وتخليهم عن موافقاتهم بالالتزام،اضطرب وانزعج وعلق قائلاً :«إذا كان

الفرنسيون ليسوا على استعداد للالتزام بخطتنا، ولن يوافقوا على الزحف لحصار القاهرة، تماشياً مع ما أقسموا على طاعته،إنني سوف أعطيهم اسطولي الراسي في عكا،وهو مجهز تماماً ،وذلك لكي يحمل مؤنهم وما يحتاجون إليه،ووقتها يمكن للجيش أن يزحف على طول الساحل وهومطمئن،كما أنني سأبعث الى هناك معهم،على حسابي الخاص، سبعمائة فارس، وألفين من أتباعهم، وذلك باسم الرب، وإذا كان أي واحد يحتاج الى المساعدة من مالي أوما هو متوفر لدي،ليكن متأكدا أنه سوف يزود بكل مايطلبه، وإذا كان أي واحد يشك في أنني سأفعل ذلك،فأنا سوف أزحف مع جنودي فقط، وبدون عون الآخرين».

ثم أمر بالتقصي والبحث في داخل خيم الاسبتارية التي كانت مجاورة لخيامه، ومعرفة ماالذي يمكن تزويدهم به من أجل القيام بالحصار ،وكم عدد الرجال الذين يمكنهم تقديمهم وتسليحهم ،وجاء المقدمون أيضاً الى هناك،ووافقوا على تقديم وفرة من الاسهامات فيما يتعلق بنفقات الحصار،مع أنهم كانوا يمتلكون القليل جداً في جيوبهم،لكن في تلك اللحظة الحرجة والحاسمة ظهروا وهم متشوقين جداً للقيام بتلك المخاطرة المريبة النتائج كثيرا ،حتى باحتياطات أقل مما تصوروها لدى الشروع بالتفكير بحصار القدس، التي حللتهم الأيمان من القيام به.

- ٩٦٥ -

الاستيلاء على القافلة الكبيرة

وبناء عليه،بينما كان الاسبتارية يبحثون بقلق ماالذي ينبغي أن يقدمه واحد تجاه نفقات الحصار،وصل برنارد،وهو جاسوس للملك رتشارد،ومعه اثنين آخرين جاء كل واحد منهما من جوار تخوم مصر،وكانا من السكان المحليين للمنطقة،وقد لبسا ملابس تركية ولم يختلفا في شيء عن المسلمين، وكانت وظيفتهما أن يرويا للملك رتشارد تقارير عن أوضاع العدو ومامن أحد تكلم اللغة التركية بيسر أكثر منهما،وأعطى الملك رتشارد لكل واحد منهما ثلاثمائةمارك فضي مقابل خدماته.

وبينا للملك أن عليه أن يستعد مع رجاله بكل سرعة ممكنة، لاعتراض طريق قافلة كانت قادمة من مصر،ووعداه أن يقوداه نحوها،وابتهج الملك لدى سماعه ماحكياه وطلب من دوق بيرغندي أن ينضم اليه على الفورللقيام بهذه المغامرة،وليجلب الفرنسيين للمساعدة،ووافق الفرنسيون على القيام بهذا شرط أن يتسلموا ثلث الغنائم،ووافق الملك على هذا المطلب،وهكذا حضر من الفرنسيين على الفور خمسمائة جندي مسلحين بشكل جيد جاهزين للانطلاق ،وأخذ الملك معه ألف رجل ممن كان يخدمه بالأجرة.

وشرعوا بالزحف عند المساء،وتقدم الملك أمامهم،وساروا طوال الليل في ظل ضوء القمر الرائع،ووصلوا الى تل الصافية،واستراحوا هناك قليلاً، وبعثوا الى عسقلان من يجلب اليهم المؤن، وأعدوا بالوقت نفسه بكل عناية أسلحتهم حتى وصول الخدم الذين أرسلوهم لجلب المؤن.

لكن ماأن زحفت قواتنا للهجوم على القافلة حتى أخبر جاسوس صلاح الدين في القدس بأنه رأى الملك رتشارد ينطلق مع حشد كبير من شعبه لاعتراض القوافل،وبذلك انكشف سر حملتنا،فأرسل صلاح

الدين مسرعاً خمسمائة من خيرة الترك،الذين شكلوا عندما التحقوا بالذين كان موكلاً إليهم حراسة القوافل، قوة مكونة من ألفي فارس ،وذلك بالاضافة الى جماعة كبيرةمن الرجالة.

وعندما كان الملك رتشارد وأتباعه يرتاحون في تل الصافية،أخبر جاسوس الملك بأن واحد ة من القوافل المتقدمة الذكرتعبر بالقرب من صهريج مستدير(الخويلفة)، وأشار عليه بالمضي مباشرة والاستيلاء عليها،وأوصاه بإبقاء قواته في الخلف،وقال:«لأن من سيستولي على القافلة، سوف يحصل على غنائم هائلة»لكن بما أن الجاسوس كان من أبناء المنطقة ،لم ير الملك وجوب الوثوق به تماماً،والاعتماد على تأكيداته لوحده، ولهذا بادر الملك الى ارسال بدوي مع اثنين من الخدم التيركوبلية اليقظين،للتأكد من صحة المسألة،بعد البحث والتقصي حولها،وجعلهم يلبسون لباس البدو،حتى يظهروا مثلهم مثل المسلمين.

وانطلق الرجال الثلاثة ليلاً عبر الهضاب ،التي كانت مغطاة بأبراج مراقبة، وانعطفوا نازلين الى الوادي، وساروا حتى رأوا بعض المسلمين فوق بقعة مرتفعة،وكان هؤلاء أنفسهم جالسين ينتظرون الذين يمكن أن يعبروا الجبال،وعندما اقترب بدوينا منهم لاكتشافهم بخطوات خفية، سألهم المسلمون من هم، ومن أين جاءوا،والى أين وجهتهم ،وطلب البدوي من الآخرين التزام الصمت،خشية أن يكتشفهم المسلمون من كلامهم،وأجابهم بأنهم كانوا عائدين من المنطقة المجاورة لعسقلان،الى حيث ذهبوا للنهب،لكن واحداً من المسلمين قال له:«لقد قدمت للبحث عنا،وأنت من أتباع ملك انكلترا»وأجابه البدوي بأنه يكذب ،ثم تجاوزه وتقدم مسرعاً باتجاه القافلة ، ولحق به بعض المسلمين لبعض الوقت ، وهم يحملون قسيهم ورماحهم ، وظلوا يفعلون ذلك حتى توقفوا عن المطاردة بسبب تعبهم » .

والآن وقد تأكد جواسيسنا من حقيقة القافلة ، عادوا بأقصى سرعة

الى الملك وأخبروه أن بإمكانه الاستيلاء بسهولة على القافلة إذا ما بادر مسرعاً ، وعندما سمع الملك بهذا ، وبعدما كان قد أراح خيوله وعلف عليها ، انطلق مع رجاله ، وساروا طوال الليلة التالية حتى وصلوا الى المكان حيث كانت القافلة ، فأعدوا أسلحتهم ، وعبأوا أنفسهم ، وسار الملك في الصف الأول ، ومشى الفرنسيون في الساقة ، وحظر الملك بصوت المنادي على أي واحد الالتفات نحو النهب ، وأمرهم أن يبذلوا ما في وسعهم لخرق الصفوف التركية وتدميرها .

ومع اقتراب الصباح ، وعندما كانوا مشغولين في تنظيم صفوفهم ، وصل جاسوس آخر مسرع جداً ، وأخبر الملك بأن القافلة كانت تستعد مسرعة للتحرك منذ الفجر لأن نية الملك بمهاجمتها باتت معروفة من قبل حراسها ، ولدى سماع الملك بذلك ، تقدم نحو الأمام مع نبالته ورماة الزنبورك ، ، ليعطل القافلة وحراسها ، ولإثارة الحراس للدخول في معركة أبقاهم تحت رقابته حتى يتمكن هو وعساكره من الانقضاض عليهم ، وبهذه الطريقة شعر الترك بالخطر وتأخروا ، في حين اقترب منهم جنودنا مصطفين في أرتال قتالية جاهزة لانشاب المعركة .

وما أن رآهم الترك حتى شرعوا على الفور بالصعود الى أحد الجبال ، من أجل أن المنطقة المرتفعة يمكن أن تمنحهم وضعاً أثبت ، ودلل مظهرهم العام على أنهم أقل ثقة بأنفسهم من المعتاد ، ثم أقلع الترك بحملة حادة ، وأرسلوا بجروخهم ونشابهم مثل زخات البرد على صفوفنا ، في حين بقيت القافلة واقفة دونما حراك .

وكان الملك رتشارد قد قسم جيشه الى قسمين ، وبناء عليه هاجم الترك بشكل مفاجىء وتمكن مع أتباعه من خرق صفوفهم الأولى وهزموها ، وكانت حملته من الشدة بمكان جعلتهم يسقطون الى الأرض من دون ضربة تقريباً ، وضغط هو بحدة وشدة على المنهزمين ، إلى حد أنه لم يبق هناك من لديه مقاومة ، باستثناء عدد من الذين

فروا ، وكانوا يلتفتون نحو الخلف ، ويرمون بالنشاب خلفهم ، وهكذا هرب الجميع ، مثل الأرانب البرية أمام كلاب الصيد ، وطوردوا في كل اتجاه ،في حين وقفت القافلة تحت رحمة المطُاردين الذين قتلوا كل من اصطدموا به ، وهكذا تكومت جثث قتلى العدو فوق الرمل ، فالذين حرموا من خيولهم بوساطة فرساننا ، أجهز عليهم سيرجنديتنا ، وكان من الممكن أن تشاهد هناك خيول وقد انقلبت سرجها ، فالذين هزموا تمّ تدميرهم بشكل تعيس ، وقاتل رجال الملك ببسالة ، وقاتل الفرنسيون أيضاً بمعنويات عالية ، مثلهم مثل رجال اعتادوا على القتال.

وكان الملك متفوقاً على البقية بتفوقه الملكي عليهم جميعاً ، فقد أمتطى فرساً طويلاً ، وانقض على العدو بمفرده ، وفي أثناء القتال انقصفت قناة رمحه ، بسبب الطعن به مراراً ، وباتت قطعاً متناثرة ، فامتشق سيفه على الفور ، وأخذ يضرب به ، فضغط بشدة على الفارين وكومهم على الأرض ، وأزال الذين كانوا بالخلف من الوجود ، وأخضع الذين كانوا أمام الجميع ، ولقد كان مثل الصاعقة ، قطع ومزق كل من صدفه ، فما من درع كان يمكنه الصمود أمام ضرباته، فبحد سيفه قطع الرؤوس من الأعلى حتى الأسنان ، وبضربه بسيفه يمنه ويسرة أرعب الترك وجعلهم يفرون مثل الشياه لدى مطاردتها من قبل الذئب .

وفيما الملك يتولى على هذه الصورة الفارين ، قام بعض هؤلاء وهم في حالة يأس ، فتخلوا عن طريقهم ، وعادوا نحو مخيمنا الذي كان شبه مهجور، آملين بعمل شيء ما ضد الحرس في أثناء غياب الملك ، فعندما كانوا أمامه تخلت شجاعتهم عنهم ولم يكن هذا بلا سبب لأن حياة الأعداء أو موتهم كانت دوماً بين يديه .

وبناء عليه جاء حوالي الثلاثين من الفارين عبر طريق دائري ، وانقضوا على رجالنا ، وقاموا بحملة عنيفة على روجردي توني Toony، الذي قتلوا حصانه من تحته ، وكاد أن يقع في أسرهم عندما جرى

انقاذه من بين أيديهم بوساطة واحد من رفاقه .

وجاء في الوقت نفسه رجالنا المسلحين مع ايرل ليستر، وهاجموهم من على اليمين واليسار، ثم تجددت المذبحة ، ولمعت السيوف بالهواء ، وتغطت الأرض بالدماء ، وتلاقت الأذرعة واصطدمت مع بعضها ، ومزقت الأجساد ، وقطعت الأطراف ، والرؤوس والأذرعة والأقدام ، والأيدي ، والأطراف الأخرى كانت موزعة هنا وهناك ، واعترض طريق رجالنا أثناء سيرهم أجساد الأعداء التي كانت ملقاة على أرض المعركة بأعداد كبيرة ، وجعلتهم يتعثرون في كل خطوة ، وكانت مقتلة الترك أعظم مما رآه أجدادنا قط ، وكان اضطرابهم وهلعهم أثناء القتال قد بلغ حدا ، أن طفلاً واحداً كان بإمكانه أن يقتل عشرة منهم أو بالحقيقة ، أكبر عدد منهم بقدر من كان يصطدم بهم .

وبهذه الهزيمة ألقي بكبرياء الترك الى الرغام تماماً ، ومحقت شجاعتهم بالفعل كلية ، في حين غدت القافلة ، بكل ما فيها من ثروات غنيمة للمنتصر، فقد سلم حراسها بأنفسهم الى رجالنا الأثقال ، وخيول النقل ، ومدوا أيديهم نحو الأمام استسلاماً ، والتمسوا الرحمة ، على شرط واحد هو أن تصان حياتهم .

وقادوا حيوانات الجر والجمال ، بشكالها ، وسلموها الى رجالنا ، وجلبوا البغال وهي محملة بالتوابل من مختلف الأنواع ، والأثمان العالية ، مع الذهب والفضة ، وأردية الحرير الأرجوانية، والثياب الحمراء ، والملابس المطرزة بأشكال متنوعة ، بالاضافة الى الدروع والأسلحة من جميع الأشكال ، والسوابغ ، والأرائك الثمينة ، والسرادقات والخيم ، والبقسماط، والخبز ، والشعير والقمح ،والأطعمة وكميات هائلة من الأطعمة المحفوظة والأدوية ، والطشوت والقرب والصناديق ، والصحون الفضية ، وحوامل الشموع ، والفلفل والقرفة ، والسكر ، والشمع ، وأشياء أخرى ثمينة مختارة من مختلف الأنواع ، وكمية هائلة

من المال ، وكميات لا يمكن عدها من البضائع ، لم يؤخذ مثلها من قبل في وقت واحد في أي مما تقدم من معارك .

وبعدما توقفت مقتلة المسلمين ، وتمّ الاستيلاء على القافلة ، تعرض جيشنا الى أمر مزعج ومتعب تمثل في جمع الجمال والنوق ، التي كانت تسبب الفوضى والاضطراب للجيش كله ، لأنهم تجنبوا مطاردتهم من قبل خيولنا بقدرة عظيمة بحيث أنه ليس هناك نوع آخر من الحيوانات يمكن أن تكون مثلهم بالفعالية والسرعة الطبيعية ، فكانوا يبدون متماهلين وبطيئين حتى يغدوا المطارد على مسافة ضئيلة منهم ، وعندها يتحركون بسرعة كاملة .

وتم أخيراً بوسيلة أو أخرى جمع أربعة آلاف وسبعمائة جمل وناقة مع بعضها بعضًا، علماً بأن هذا الرقم ليس مؤكداً ، وأخذوا كثيراً من البغال من الجنسين ، وحمير تحميل من غير الممكن عدها لكثرتها ، لأنها بدت أكثرعدداً مما كان من الممكن أن يتطلبه تعداد الرجال ، فضلاً عن هذا كله تجاوز عدد الفرسان الأتراك الذين قتلوا في ذلك اليوم الألف وسبعمائة، الى جانب عدد كبير من الجنود الرجالة الذين ديسوا أثناء المعمعة حتى الموت .

- ٩٧١ -

كيف عاد الجيش الى عكا

وعندما أكمل الملك جميع هذه الأشياء ، وأعدّ أثقاله للعودة ، انطلق عائداً مع جيشه مثقلاً بالأسلاب ، وسار الجميع بخطا وئيدة ، حتى وصلوا الى بيت عفة التي ابتعدت مسافة أربعة أميال عن يافا، فهناك توزعوا الغنائم فيما بينهم ، ثم تابعوا سيرهم في اليوم التالي الى الرملة .

والى هناك جاء الكونت هنري مع العساكر والناس الذين جلبهم معه من عكا ، ومن هناك توجهوا جميعاً إلى بيت نوبة ، وهو المكان الذي كانوا انطلقوا منه ، وتجددت هنا الأفراح العامة، وتقاطر الجميع واجتمعوا مندهشين تجاه عدد حيوانات التحميل التي سيرافقها الجيش .

ولدى الوصول ، وزع الملك النبيل الجمال ،التي كانت أكبر حجماً من أي نوع رؤي هناك من قبل ، وأعطاها إلى الجنود الذين مكثوا لحماية المعسكر ، والى الذين انضموا الى الحملة على شكل حصص متساوية، وحذا في هذا المقام حذو ذلك المحارب الشهير، وأعني به الملك داود الذي أعطى حصصاً متساوية من الأسلاب الى الجنود الذين ذهبوا الى المعركة والى الذين مكثوا في المعسكر، ووزع أيضاً الحمير بين الرجال الذين يخدمونه ، وزود الجيش بهذه الوسيلة بعدد كبير جداً من الجمال وحيوانات الحمولة الأخرى ، ولقد كان من الصعب جداً حفظها مع بعضها ، وحشوا لحوم الجمال الشابة بشحوم الخنازير وشووها للأكل ، فوجدوها بيضاء كثيراً ، وسائغة طيبة المذاق.

وبعد وقت قصير من توزيع الأسلاب ، شرع الناس يتشكون من أن حيوانات التحميل قد أكلت كثيراً من الشعير والأعلاف ، ولهذا ارتفعت أسعار الحبوب كثيراً ، وبالاضافة الى هذا توفر المزيد من الشكوى

والأسف بين الناس،لأنه ارتؤي أنه من غير المناسب الزحف نحو حصار القدس، حسبما رغبوا، وذلك بسبب معارضة العشرين مستشاراً.

فلقد رأوا أنها مغامرة صعبة ،لابل مستحيلة،بسبب الحاجة الى الماء، الذي لن يستطيع الناس والمواشي العيش من دونه،لاسيما وأن عيد القديس يوحنا بات على الأبواب ،وهو زمان تزداد به حرارة الصيف،وبسببها يغدو كل شيء جافا بشكل طبيعي،خاصة حول القدس، القائمة في الجبال،زد على هذا أغلق الترك جميع صهاريج الماء،لذلك بات من غير الممكن ايجاد نقطة من الماء الصالح للشرب على طول مسافة ميلين من المدينة، ومن غير المأمون الذهاب للبحث عن الماءالى مسافات بعيدة ،عندما يكون الحصار قد بدأ، ولن يكون نبع سلوان الصغير الذي يجري عند سفح جبل الزيتون كافياً للجيش.

ولقد كانت هذه هي الأسباب التي جعلت المستشارين يقنعون الملك رتشارد بالاقلاع عن حصار القدس في ذلك الوقت،وعندما بات معروفاً في أوساط الجيش أنهم لن يذهبوا الى هناك،بل كانوا على وشك الابتعاد عن تلك المدينة،لعنوا ذلك التأخير وأكدوا أنهم يرغبون فقط بالبقاء أحياء حتى تغدوالقدس والأراضي المقدسة والصليب مرة أخرى في حوذة المسيحيين وحدهم.

وعلينا أن لا نعجب أن الحجاج الذين تعذبوا هكذا بدون الوصول الى نتيجة طيبة، أسفوا وحزنوا لاخفاق رغباتهم،في حين تطور الخلاف فيما بينهم الى انشقاق،ولما ظهرت هنا سمات التردد لدى الفرنسيين،التي ميزتهم عن بقية الشعوب،حدث في إحدى الأمسيات عندما كان الجيش يتقدم في زحفه، قام الفرنسيون بعزل أنفسهم عن البقية واتخذوا موقفاً متميزاً،وكأنهم يزدرون الجماعة،ولم يكتفوا بالرضا بالانفصال فقط بل انخرطوا بالشجار فيما بينهم أنفسهم،وتلفظوا بألفاظ قاسية بشعة،ولغة قبيحة، وتبجح كل منهم ببسالته،وبعدم الاكتراث أو التقدير

لـلآخـرين،وفـوق الجسيـع نظـم هنـري دوق بيرغندي أغنيـة ،نشرهـا بين الناس، وهـي أغنية (لو امتلك أدنـى إحساس بالخجل)لما سمـح بنشرها، ولم يغنها الرجال فقـط بل النساء غير الوضيعات أيضاً ،مظهـرين أخلاق هؤلاء الذين تورطوا في مثل هذه الحماقة القذرة.

وعنـدما انتشرت الأغنيـة بين الجنـود وتـداولها الناس،غضـب رتشـارد غضباً عظيماً ،وارتأى أن القيام بعمل مماثـل سيكون وسيلة للانتقام لنفسه من النـاظم، وكانـت هنالك وفـرة بالمادة،ولـذلك لم يجد صعوبـة في نظم أغنية معـاكسة،وهاجمه منـافسه، الذي لم يكـن موازيـاً له، بشتائم قـاسية وقبيحة بلا مسوغ.

وبقي الجيش على هذه الشاكلة لعدة أيـام بعد الاستيلاء على القافلة،وكان أفراده حـزينين جداً ويـائسين نتيجة الحظـر الذي وضـع على متابعـة الجيش زحفه حتـى يزور الضريـح المقدس في القـدس ،الذي كـانوا على مسـافة أربعـة أميال منـه،ولم يكـن الشعـور بالاحبـاط الـذي سببتـه عودتهم لـه مايوازيه مطلقاً لدى أناس شجعان مثلهم.

وعنـــدمـا تحرك رجـــالنـا تعـــرضـــوا للهجـوم مـــن قبـل الترك مـــن الجبال،وصدهم فـرساننا الأقوياء ولكن بعض أتبـاع معسكرنا قتلوا لأنهم لم يمتلكـواخيولاً جيـدة،ووصـل الجيش بعـد هـذا الى مكان قـام فيما بين القديس جرجـس والرملة،وهناك أمضى الليلة،وقـد عسكر الفرنسيون على الجهة اليسرى،وعسكر الملك ورجاله على الجهة اليمنى.

وساروا في اليـوم التالي وتـابعوا زحفهـم في أقسام منفصلـة،ووصلوا الى قلعة قـامت في منتصف الطـريق،وكـان هذا في اليوم السـادس من تموز، وتخلى هنـا بعضهم عـن الجيش وهجـروه وهـم في حالـة اشمئزاز،بسبب حالة الانهاك والإرهاق التي تعرضوا لها أثناء الحملة،وذهبوا الى يافا.

وعنـدما علـم صـلاح الـدين بحـالـة الصليبيين ونـواياهـم،انتعشـت

آمـاله،وكـان سروره بـلا حدود،وبعـث على الفور بـرسـل يحملون رسـائل مختومة بخاتمه الى الأمراء والمقدمين،والقـادة والحكام في ممالكه يخبرهم فيها بـالتمـزق الـداخلي الـذي تفجـر داخــل جيـش الفـرنجـة،وأرغمـه على التراجع،وأن كـل من يريـد أن يدخل في خدمتـه مأجور عليـه القدوم الى القـدس ،وكان الحشـد الذي تـدفق الى هنـاك عظيماً ، ونتيجة لهذا بـات عـدد الخيالـة يقـدر بعشريـن ألفاً مـن الأشـداء،الى جـانب جموع لاتعـد ولاتحصى من الجنود الـرجالة .وأدرك بالوقت نفسه الملـك عجزه عن منع الناس، وايقـافهم عن التخلي عـن الجيش ، بسبـب تباين المواقـف التي سادت ،فرأى أن خير خط سياسي يمكنه اتخاذه هـو مراسلة صلاح الدين في هـذه الساعـة،والموافقة على الهدنـة(التي عـرضت مـن قبل في سهـول الرملة)لمدة محدودة،مـن أجل أن يمتلك الوقت حتى يستطيـع العودة من بلاده،غير أن صلاح الـدين الذي عرف تمام المعرفة أوضـاع جيشنا، وأنه كان يـزداد ضعفاً كل يـوم،رفض رفضاً قاطعـاً، ما لم يتم تـدمير عسقلان وإنزالها إلى الأرض واجتثاثهـا، وما أن علم الملك بجواب صـلاح الدين، لم يظهر أبداً الانـزعاج،بل أمر على الفور الـداوية والاسبتارية مـع آخرين، وصل عـددهم الى الثلاثمائة، أن يمتطـوا خيولهم، ويسيروا لتـدمير حصن دير البلح وبعث برجال لحراسة ومراقبة حصن عسقلان بالشدة الممكنة.

وبادر هؤلاء لتنفيذ أوامـر الملك، فدمروا دير البلح وسـووها بالأرض،ثم عاد الجيـش في حالة اشمئزاز وقنـوط حتى يافـا،حيث بقي هناك العـديد بسبب سـوء الصحة والضعف، وفي الوقـت نفسه سار الملك مسرعـاً كلياً الى عكا.

كيف هاجم صلاح الدين يافا

وعندما سمع صلاح الدين أن رجال يافا كانوا محرومين من وجود رتشارد لحمايتهم، أمر جيشه بالزحف الى هناك، وهو يأمل بالاستيلاء على المدينة بسهولة خلال غياب الملك ، وأخذ معه عشرين ألف فارس، وأمير البيرة(؟)Bulaلقوي، وابن(مقدم)الحشيشية،مع مائة وستة أمراء،وحشد هائل من الرجالة من الجبال،الذين غطوا وجه الأرض مثل الجراد،وغادر الجيش القدس،ونزل الى سهول الرملة،واندفع الجند على شكل أرتال وفرق،كلهم كان متحمساً ومتشوقاً لتدمير الفرنجة تدميراً كاملاً.

وكان يوم الأحد الذي أعقب أحد الزحف هو عيد القديس بطرس في الأغلال [٢٦-تموز](وهو الموافق لليوم الذي جاء فيه الملك رتشارد مع جيشه الى عكا) ففي هذا اليوم زحف صلاح الدين مع عساكره للهجوم على يافا، وشرعوا في يوم الاثنين التالي بمهاجمة القلعة،لكن سكان المدينةخرجوا الى الأرباض، وقاوموهم طوال النهار،ومنعوهم من الاقتراب من المدينة، ومر يوما الثلاثاء والاربعاء على الشاكلة نفسها،ولم يكن حتى يوم الخميس حين شعر الترك بالخجل بأنهم صدوا من قبل عدد بهذه الضآلة،فقاموا بجهد عظيم وطوقوا المدينة على الفور،وبأمر من صلاح الدين أقيم أربعة منجنيقات قوية مع منجنيقين بكفاءة عظيمة في زمي المقذوفات.

وكان عدد المحاصرين داخل يافا حوالي خمسة آلاف، وبدأواالآن يتأثرون بسوء أحوالهم،ولذلك شرعوا يدعون للرب لانقاذهم، وحولوا أنظارهم نحو ملك انكلترا، وتمنوا لو أنه لم يذهب الى عكا،تاركاً إياهم هناك عرضة للدمار،وشدد الترك في الوقت نفسه الحصار، وكان الوضع

المتردي لسكان المدينة يبكي أي انسان يرى ذلك،ومع ذلك قاوموا بشجاعة كبيرة،علماً بأنهم أنهكوا بوضع ألف رجل على الفور للدفاع عن مدينتهم،في حين لم تتوقف العرادات والمجانيق عن القذف.

وتم أخيراً بفضل حملات الترك وضغطهم تدمير البوابة التي تقود إلى القدس، وفتحت يوم الجمعة نتيجة الضربات المتوالية للمنجنيق،كما أن السور القائم على جهة اليمين انشطر بمقدارعمودين بالعرض،وكان الالتحام وقتها حاداً جداً ،وبينما قاوم المحاصرون دخول الترك،تلقى هؤلاء نجدات، لذلك دفعوا بأعدادهم الفرنجة الى الخلف حتى أوصلوهم الى قلعة المدينة ، ولكم كانت المذبحة التي وقعت مرعبة، وبطش الترك بأعدائهم وقتلوهم بدون رحمة، وفتكوا بكل من وجدوهم في البيوت مرضى ومستلقين بفرشهم، وهرب بعض رجالنا ونزلوا نحو شاطىء البحر ونجوا،في حين انشغل العدو في نهب كل شيء، وكسروا رؤوس جميع دنان الخمرة التي وجدوها في البيوت، وجعلوا الخمور تجري في الشوارع ، وهاجم بعضهم البرج الرئيسي في القلعة،وطارد آخرون الذين انحدروا فارين نحو شاطىء البحر ،وتم تمزيق عدد من المتخلفين، وهرب ألبيرك Alberic أوف رايمز ،وكانت وظيفته حماية البلدة،لقد نجا على ظهر سفينة خشية أن يتعرض للقتل،لكن أتباعه ورفاقه انتقدوه لجبنه، ودعوه لأن يشعر بواجبه وأرغموه بالقوة على الدخول إلي أحد الأبراج، وحين لم ير هناك سوى المخاطر التى تحيط به من كل جانب،تمتم قائلاً:«هنا سوف نكرس حياتنا لخدمة الرب»لأن ذلك الشيء الوحيد الذي بقي له ليصنعه .

وهاجم الترك الآن البرج ، وحجبت زخات نشابهم نور الشمس ، ولم يعرف المحاصرون أي جانب عليهم الدفاع عنه أولاً ، واستمر القتال طوال النهار ، وكان من المؤكد أن يلجأ الفرنجة أخيراً إلى الاستسلام أمام عنف القتال ، لولا بفضل الرب كان البطريرك المنتخب حديثاً موجوداً،

فقد برهـن في تلك الساعة أنه كان رجـلاً لا يخاف الموت ، وما من شيء كان يرعبه.

واضطـر هذا الـرجل بحكـم الضرورات أن يقترح على صـلاح الديـن وأخيه منحهم بـرهة من الوقت يتـوقف خلالها القتال حتـى اليوم التالي ، بشرط إذا لم يتسلموا مساعدة حتـى ماقبل الساعة الثالثـة، على كل رجل داخل القلعة أن يدفـع إلى صلاح الدين عشر قطع ذهبية، وعـن كل امرأة خمس قطع ،وعن الطفل ثلاث قطع مقابـل الهدنة التي منحهم إياها،وأن البطريرك مـع النبلاء الآخرين سوف يسلمون أنفسهـم رهائن الى صلاح الدين، وأن يبقوا في الأغلال حتى حلول الساعة المتفق عليها.

ووافق صـلاح الديـن، وعندما اكتملـت الضمانات مـن أجل مـراعاة شروط الهدنـــة،جـرى تقـــديـم الـــرهـــائن التـــاليـــة الى صـــلاح الديـن:البطريـرك،ألبيرك أوف رايمز، وثيـوبولـد أوف تريـف، وأوغسطين أوف لنـدن، وأوسبيرت والـدنosbertwaldin ،وهنـري دي سينـــت جـون،الى جانـب آخريـن،لانتذكـر أسماءهم،فهـم جميعاً حملـوا أسرى الى دمشق.

وفي الـوقـت نفسـه كـان الملك رتشـارد مشغـولاً جـداً في الاستعـداد لمغادرة عكـا عائداً الى بـلاده،وكانت سفنـه كلها جاهـزة تماماً،وكـان قد حصل أيضاً على مـوافقة من الداوية والاسبتـارية ومباركة، وبعـث أمامه بسبع من شوانيه مشحونة بـالقوات لاخراج العدو من بيروت ،التي سيمر بها،ونجحت هذه الحملة ،وفر العدو مرعوباً.

وكان الملك في خيمته يتحدث مع ضباطه حول اقلاعهم في الغد نحو أوطانهم،عندما وصـل رسل من يافا،ودخلوا ممزقـة ثيابهم ، فأخبروا الملك كيف أن العـدو استولى على يافـا كلها، باستثنـاء القلعة التي مكـث فيها البقية تحت الحصار ،ومالم يقدم لهم المساعـدة بكل سرعة سيواجه الجميع

مصيراً واحداً ،واستمع الملك لأخبار المخاطر التي كان المحاصرون يتعرضون لها، فأثار وضعهم عاطفته،فقاطع الرسل قائلاً:«مادام الرب حياً،سأكون معهم،وسأقدم لهم المساعدة بقدر ما أملك من قوة» .

وما أن أكمل تلفظ كلماته حتى كانت الأوامر قد أعلنت بوجوب استعداد الجيش ،غير أن الفرنسيين ماكانوا ليوافقوا على الاستجابة حتى اكراماً للملك، وتبجحوا معلنين أنهم لن يزحفوا مطلقاً مرة ثانية تحت لوائه، وبالفعل هم في هذا المجال لم يخفقوا،لأنهم هلكوا في مدة وجيزة بشكل تعيس،ولم يزحفوا ثانية تحت لواء أي انسان.

وفي الوقت نفسه تهيأ للانطلاق مع الملك، الجنود من مختلف الأمم،الذين لامس الرب شغاف قلوبهم،والذين أثارتهم معاناة أ بناء جلدتهم،واستدرت عواطفهم، وأعني بهؤلاء: الداويةوالاسبتارية ،وفرسان شجعان آخرين ،زحفوا جميعاً براً الى قيسارية،لكن الملك النبيل الذي عهد بسلامته إلى شجاعته،ركب ظهر احدى شواني اسطوله الذي اصطحبه معه،وكانت شوانيه مجهزة بكل شيء يمكن أن يكون ضرورياً ، وكان معه ايرل أوف ليستر، وأندرودي شافني chavigny ،وروجردي سيثيا Satheya، وجوردان دي هومز Humez ، ورالف دي موليون Mauleon ،وآخوس دي في Achus de Fay ،وفرسان بريتل Pratells،ومرافقي الملك مع آخرين كثر من ذوي الأسماء اللامعة،الى جانب الجنويين والبيازنة.

وتوقف الذين ذهبوا الى قيسارية هناك لبعض الوقت خشية الوقوع في كمين ،حيث سمعوا أن صلاح الدين قد نصب واحداً ضد كل من يحاول المرور في هذا الطريق ،ولم يكن هناك طريقاً أفضل ، لأن ابن مقدم الحشيشية تولى حراسة المنطقة الساحلية القائمة مابين قيسارية وأرسوف.

يضاف الى هذا ،ثارت ريح مضادة،حجزت شواني الملك لمدة ثلاثة أيام في حيفا ،حيث توجب عليهم التسليم بذلك ،واشتعل الملك غضباً تجاه هذا التأخير، فرفع صوته بالشكاية عالياً وهو يقول:«مولاي،يارب لماذا حبستنا هنا؟ أرجوك، المسألة مستعجلة جداً ،والتقوى هي رغبتنا». ومأأن أكمل دعاءه هذا ،حتى سبب الرب هبوب ريح مواتيه ،نقلت هذا الاسطول ووضعته داخل ميناء يافا في منتصف ليلة الجمعة التي تقدمت مباشرة على يوم السبت الذي اتفقوا على الاستسلام فيه،عندما كانوا جميعا على وشك الحمل نحو التدمير.

أسفي من كفر ذلك العرق الشرير ،ففي الصباح الباكر لذلك النهار (يوم القديس بطرس في الأغلال) تعجل الترك فطالبوا المحاصرين بتنفيذ شروط الهدنة، وبناء عليه بدأوا في الساعة التاسعة بدفع جزء من القطع الذهبية التي وعدوا بها،ووقتها تصرف الترك الأشرار بوحشية أكبر من الحيوانات، ولم تتوفر نحوهم أدنى مشاعر انسانية ،حيث قطعوا رؤوس الذين دفعوا المال،وهكذا هلك سبعة منهم، ورموا برؤوسهم الى الخندق.

ولدى اكتشاف الذين كانوا على قيد الحياة في البلدة لهذه الخيانة ، أصيبوا بالرعب، وبدأوا يرسلون صرخات الندب والأسى،فقد رأوا الموت واقفاً أمامهم،لهذا ركع كل واحد منهم أمام الآخر،واعترف كل منهم بذنوبه للآخر،وماعادوا يفكرون بحياتهم،بل بأرواحهم،ولكي يؤجلوا موتهم لبعض اللحظات — ذلك من هو الذي كان هناك ولم يخش الموت؟— هربوا صعوداً نحوالقلعة،بقدر ماستطاعوا من سرعة ،وانتظروا هناك ضربة الشهادة،وكانوا يريقون الدموع،ويستمدون الرحمة من المولى القدير،الذي رضي أخيراً،وقرر الاصغاء لالتماساتهم،فقد وصل منقذهم،وكان اسطوله يسير في المرفأ،وجنوده متشوقين للنزول الى اليابسة لانقاذهم.

واكتشف الترك وصول اسطول الملك،فانحدروا مسرعين نحو شاطىء

البحر يحملون سيوفهم وترستهم،وأرسلوا أمامهم زخات من النشاب،وكان الشاطىء قد امتلا بشكل كثيف بحشودهم حتى بات من الصعب إيجاد موطىء قدم على الأرض،ولم يقتصر عملهم على الدفاع،بل همز فرسانهم خيولهم لخوض البحر ولمنع رجال الملك من النزول الى اليابسة،وعندما كان الملك يجمع سفن اسطوله مع بعضها ،تشاور مع ضباطه حول أفضل خطوة يمكن اتخاذها.

وقال:«هل سنندفع ضد حشود الرعاع هذه التي احتلت الشاطىء،أو هل سنقدر قيمة حياتنا أكثر من حياةأولئك المساكين المعرضين للدمار والمحتاجين لمساعدتنا»؟

وأجابه بعضهم بأن محاولات أخرى سوف تكون عقيمة، لأنه ليس هناك مايؤكد أن أيامنهم حياً لانقاذهم،ثم كيف يمكنهم النزول الى اليابسة في وجه مثل هذا الحشد الهائل؟.

ونظر الملك من حوله مدققاً، ورأى في تلك اللحظة كاهنا يغطس في الماء ويسبح نحو الشيني الملكي، وعندما استقبله على ظهر السفينة خاطب الملك بقلب متلهف وبروح كادت تتلاشى منه وقال: « أيها الملك الأعظم نبلاً، المتبقي من شعبنا ينتظرون وصولك، وهم معرضون للذبح مثل الشياه، ما لم تجلبك النعمة الإلهية لانقاذهم».

وسأله الملك قائلاً: « إذاً، هل ما يزال أحد منهم حياً، وإذا كذلك، أين هم؟» وقال الراهب:« مازال هناك بعضهم حياً في الطرف الأقصى لهذا البرج المقابل»، ورد عليه الملك قائلاً:« من فضلك يارب، يامن جئنا بتوجيهه وقيادته، سوف نموت مع أخوتنا الشجعان بالسلاح، ولتنصب اللعنة على الذي يتردد».

ولم يكد يفرغ من كلامه، حتى كانت الشواني قد دفعت نحو طرف اليابسه، واندفع الملك نحو الأمام وسط الأمواج، وأطرافه غير مغطاة

بسابغته، وخاض بالماء حتى وسطه، وبسرعة حصل على موطىء قدم ثابت فوق الشريط الجاف، وجاء خلفه يتبعه غيوفري دي بويز Bois ، وبيتر دي بريتل Pratelles وجاء في المؤخرة جميع الآخرين مندفعين وسط الأمواج.

ووقف الترك للدفاع عن الشاطىء، الذي غطته أعداد هائلة من العساكر، واستطاع الملك بوساطة القوس العقار الذي حمله أن يردهم إلى الخلف يمنة ويسرة، وضغط رفاقه على العدو المتراجع، الذي تلاشت شجاعته عندما رأى أفراده أن الذي يهاجمهم هو الملك، ولم يعودوا يتجرأون على مقابلته، وامتشق الملك سيفه الحاد، الذي لم يعطهم فرصة للمقاومة، فتقهقروا أمام الضربات المميتة الصادرة عنه، وانزاحوا بشكل فوضوي بوساطة رجال الملك حتى بات الشاطىء نظيفاً منهم.

ثم جلب الفرنجة بعض جذوع الأشجار والأعمدة وقطع الخشب من سفن قديمة وشواني، لإقامة حاجز، ومركز هناك بعض الفرسان والخدم والعرادات للحراسة ولطرد الترك واقتلاعهم، وعندما رأى هؤلاء أنهم لن يستطيعوا متابعة التصدي لعساكرنا، فرقوا أنفسهم على الشاطىء بوساطة الصراخ، والعويل، وهم منهزمون جميعاً، ثم انعطف الملك وسار بشكل مستقيم، ولاحظ أن بيت الداوية هو المدخل إلى البلدة، حيث وجد ما يزيد على ثلاثة آلاف من الترك ينهبون كل شيء وجدوه في البيوت، ويحملونه معهم بمثابة أسلاب.

وما لبث الملك الشجاع أن دخل البلدة، وما أن فعل ذلك حتى أمر بهز رايته من فوق مكان مرتفع حتى يمكن رؤيتها من قبل المسيحيين الذين كانوا في القلعة، وقد تشجع هؤلاء لدى رؤيتهم لها، واندفعوا وهم يحملون أسلحتهم من داخل القلعة لمقابلة الملك، ولدى انتشار خبر ذلك اضطرب وضع الترك في البلدة، ودبت الفوضى بين صفوفهم،

وفي الوقت نفسه طارد الملك أفراد العدو، وقتل الذين انحصروا فيما بين الكتلتين المسيحيتين وملأ الطرقات بجثث قتلاهم، فهل أحتاج إلى قول المزيد؟ لقد قتلوا جميعا، باستثناء الذين امتلكوا الفرصة ففروا بالوقت المناسب، وهكذا حدث أن الذين كانوا منتصرين من قبل، باتوا الآن منهزمين وتلقوا عقوبة استحقوها، لأن الملك لم يظهر أدنى رحمة نحو أعداء صليب المسيح، الذين وضعهم الرب بين يديه، لأنه لايوجد على وجه الأرض انسان مثله مقت الجبن.

وإذا ما تفحصنا أعمال القدماء، وجميع المدونات التي تركها لنا المؤرخون المتقدمون، سنجد أنه لم يكن هناك مطلقاً رجلاً ميز نفسه في المعركة مثلما فعل الملك رتشارد هذا اليوم، وعندما كان الترك يغادرون البلدة رأوا أعلامه تخفق في الهواء، وارتفعت صرخة عالية من على اليمين واليسار عندما انقض عليهم، ولم تكن عاصفة من البرد أو المطر الشديد بالكثافة تساوي النشاب الذي تطاير من الترك فغطى وجه السماء وحجب ضوء الشمس.

وأحدث الترك الذين فوجئوا بيافا مذبحة هائلة بين الذين كانوا ضعفاء جداً وغير قادرين على المقاومة، وقتلوا عدداً كبيراً من الخنازير، وفي الحقيقة لقد قتلوا كل ما وجدوه منها، لأنهم عدّوها نجسه، وكان محرم أكلها في شريعة المسلمين، ولإزعاج الفرنجة جمعوا في كتلة واحدة أجساد الخنازير مع أجساد الفرنجة الذين قتلوهم، وجرى الآن دفن أجساد الفرنجة بسلام، في حين ألقيت أجساد الترك لتتعفن مع أجساد تلك الخنازير.

وسمع صلاح الدين بوصول الملك وبحربه الرائعة مع الترك، فاستولى عليه لهذا خوف مفاجيء، وكان مثله مثل الأرنب، الحيوان الجبان، غمز حصانه وفرّ من أمام وجهه، وتابع الملك مع رجاله أعمال المطاردة: يقتلون ويحطمون، بينما أحدث قوسه العقار فوضى عظيمة بين الخيول:

حتى أن آثار فرارهم كان يمكن رؤيتها لمسافة ميلين، ونصب الآن خيمته في المكان نفسه الذي كانت فيه خيم صلاح الدين منصوبة، وهكذا كان بفضل الرب استطاعت فئة صغيرة من الرجال الحاق الهزيمة بهذا الجيش التركي العظيم.

واستدعى صلاح الدين أمراءه إليه وخاطبهم قائلاً:« هل هزمنا جميعا؟ هل عاد جيش الفرنجة من عكا ليقتلنا وليهزمنا على هذه الصورة؟ بأي وسيلة متفوقة أمكنهم انجاز هذا؟ فمن المقرر أن جيشنا كان متفوقاً برجالته وكذلك بفرسانه»!.

ورد على هذه الكلمات واحد من المُوَبخين، كان موجوداً، وكان مدركاً لأوضاع جيشنا قائلاً:« مولاي ليس الأمر كما تظن، ليس لدى الفرنجة خيول ولاحيوانات تحميل من أي نوع، باستثناء ثلاثة خيول فقط، كان ملكهم الرائع قد وجدهم في يافا، وعلى كل حال أعتقد أن الملك نفسه يمكن مفاجأته بسهولة، لأنه مستلق لوحده في خيمته، ومنهك تماماً بسبب تعبه، ومن يلقي القبض عليه سوف يضع على الفور حداً لمتاعبنا، وللحملة كلها».

ثم راج بعد هذا في أوساط الترك ما وجه إليهم من لوم، وتوبيخ دائم وعار مستمر، حيث أن جيشاً بمثل هذا الحجم، ومثل هذه الآلاف المؤلفة من الترك، يُهزم من قبل جيش صغير جداً، وأن يافا قد استردت منهم بقوة السلاح، وبهذه الطريقة تمتم كل واحد منهم إلى الآخر، فاضطربوا اضطراباً عظيماً.

كيف حاول الغلمان والأكراد مفاجأة الملك رتشارد في خيمته

وكان اليوم التالي هو يوم أحد، انطلق فيه الملك بنشاط في العمل على ترميم أسوار يافا، وتابع جهوده في يومي الاثنين والثلاثاء، حتى يمكن تأمين بعض الوقاية لهم، ولهذا تمت أعمال الترميم بدون استخدام للكلس أو الملاط، وكانت هناك مجموعة فاسدة من الرجال بين المسلمين اسمها غلمان Menelones حلب، وأكراد Cordivi ، وهم عرق فعال، وقد التقى هؤلاء مع بعضهم للتشاور حول ما ينبغي عمله في حالة الأوضاع القائمة، وتحدثوا عن العار الذي لحقهم حيث تمكن جيش صغير جداً من طردهم من يافا، ولاموا أنفسهم بتهمة الجبن، وبالتقاعس المخجل، وتبجحوا في اقامة حلف فيما بينهم، من أنهم سوف يلقون القبض على الملك رتشارد وهو في خيمته، ويجلبونه إلى أمام صلاح الدين، حيث سيتسلمون منه جائزة فخمة جداً.

ووصل في الوقت نفسه الكونت هنري مع أتباعه من قيسارية على ظهر شيني، فهناك كان المتبقي من جيشنا معوقاً بسبب كمائن الترك على جميع الطرق،والجسور، والآبار، وبناء عليه لم يكن بإمكان الملك في هذا الوضع الاضطراري حشد أكثر من خمسة وخمسين فارساً من جيشه كله، وكتلة قوية من الرجّالة، ورماة الزنبورك، والحاشية مع ألفين من الجنويين والبيازنة وسواهم، ولم يكن لديه من الخيول أكثر من خمسة عشر رأساً، سواء من النوع الجيد أو الردىء.

وعندما أعدّ الغلمان والأكراد أنفسهم في منتصف الليل لمفاجأة الملك، تقدموا نحو الأمام بوساطة ضوء القمر، يتحدث أحدهم مع الآخر حول الهدف الذين هم بصدد الوصول إليه، لقد عزم هؤلاء الجنس المكروه من غير المؤمنين، وكانوا متشوقين لأسر جندي المسيح المقدام، فيما

هو نائم بدون سلاح ولايشعر بوجود أي خطر.

وعندما باتوا غير بعيدين عن خيمته، وأخذوا يستعدون لإلقاء القبض عليه، عندها تدخلت رحمة الرب، فأرسلت روح الخلاف إلى صفوفهم، حيث قال الأكراد:« عليكم المضي على أقدامكم لأسر الملك وأتباعه، في حين سوف نبقى نحن على ظهور خيولنا لنحول دون نجاتهم إلى القلعة»، لكن الغلمان ردوا عليهم قائلين:« لا، إن واجبكم يقضي عليكم المضي على الأقدام، لأن مرتبتنا أعلى من مرتبتكم، ونحن نرتضي فقط بالقيام بالخدمات التي هي وظيفتنا، وإن وظيفة الخدمة على الأقدام هي وظيفتكم وليست وظيفتنا».

وفيما هذين الفريقين يتجادلان حول من منهما الأعلى والأعظم، سبب خلافهما كثيراً من التأخير، وعندما توصلا أخيراً حول كيف يمكن تنفيذ المحاولة الشريرة وتحقيق الغاية منها، كان الفجر قد اقترب، ففي تلك اللحظة دفعت ارادة سماوية واحداً من الجنويين للخروج مبكراً نحو الحقول، حيث ارتعب لسماعه أصوات الرجال والخيول المتقدمة، فعاد مسرعاً نحو المعسكر، ورأى في الوقت المناسب الخوذ وهي تعكس الضوء الذي نزل عليها، ودخل مندفعاً إلى المعسكر، وهو يصرخ « إلى السلاح، إلى السلاح».

واستيقظ الملك بفعل الصوت والضجة، وقفز مندهشاً من فراشه، فلبس لأمته، واستدعى رجاله للانقاذ.

بحق فضائل الرب كلها، هل هناك انسان حي ما كان ليرتجف بمثل هذا الانذار المفاجيء؟ واندفع العدو بدون مبالاة، فرجال مسلحون انقضوا على غير مسلحين، وأكثرية أخذت تقاتل أقلية، لأن رجالنا لم يكن لديهم الوقت الكافي للتسلح، أو حتى لارتداء الملابس،وبناء عليه تقدم الملك مع كثيرين آخرين — بحكم طوارىء تلك اللحظة —

بدون دروعهم وواقيات أطرافهم، تقدموا للقتال، وكان بعضهم حتى بدون كزاغنداتهم.

وبينما تمكن رجالنا من تسليح أنفسهم مسرعين، وبأفضل ما استطاعوه وقتها، ازداد اقتراب الترك، وكان الملك قد امتطى فرسه، مع عشرة فرسان آخرين فقط هم: الكونت هنري ايرل أوف ليستر، وبار ثلميو دي مورتمير، ورالف دي موليون، وأندرو دي ثشافين، وجير الد دي فينفال، وروجر دي ساسي، ووليم دي لى ايتانغ de L' ETang ، وهيوج دي فيلينوف Villeneuve وكانوا مرافقين شجعان، ومعهم هنري لى تايوس Tyois ، حامل راية الملك، فهؤلاء وحدهم الذين كان لديهم خيول، وكان حتى بعض هؤلاء منحطين وضعفاء، وغير معتادين على استخدام السلاح.

وببراعة اصطف الناس العاديون في صفوف وأرتال كل منهم مع قائد يقودهم، وتمركز الفرسان على مقربة من البحر، وكانت كنيسة القديس نيقولا على يسارهم، لأن الترك وجهوا حملتهم الرئيسية في هذا الاتجاه، ووقف الجنويون والبيازنة خلف حدائق الربض، وقد اختلطت بعض العساكر بهم.

من الذي يمكنه أن يصف حملات الكفار المخيفة؟ فقد انقض الترك أولاً وهم يزعقون زعقات مرعبة، ويرمون بحرابهم، ويطلقون سهامهم، وأعدّ رجالنا أنفسهم بأفضل ما استطاعوا لتلقي حملتهم الشديدة، فقد كان كل واحد منهم قد ثبت ركبته اليمنى على الأرض، فبذلك كان يمكنهم التماسك والصمود معا بشكل أفضل، والحفاظ على أوضاعهم، وحنوا أرجلهم اليسرى، وحملت أيديهم اليسرى ترستهم أودرقهم، ومدوها أمامهم، وأمسكوا بأيديهم اليمنى رماحهم حيث ثبتوا أزجتها في الأرض، وسلطوا أسنتها الحديدية نحو العدو، مهددة له، ووضع الملك الخبير بشؤون الحرب، بين كل رجلين، كانا مغطيين بترسيهما، رامي زنبورك،

وخلفه واحد آخر ليشد الزنبورك بـأقصى سرعة ممكنة، فما أن يطلق الرجل الواقـف في الأمام رميته حتـى يكون الآخـر قد هيأ رميـة أخرى، وتبين أن هذا فيه فائدة عظمى لرجالنا، وسبب ضرراً بالغاً للأعداء.

وهكـذا جرى إعـداد كل شيء بشكـل جيد وبقـدر ما سمـح الوقـت الضيـق بـه، واصطـف جيشنـا الصغير بصـورة نظـاميـة، وسـار الملـك واستعرض جميع الصفوف، وحث كل رجـل ليكون صامداً، وأن لايتزلزل، وقال: « الشجـاعة، يارجـالي البواسل، ولاتتركـوا حملة الأعداء تـزعجكم، تحملوا تقلبـات الحظ، ولسوف تنتصرون عليهم، كـل شيء يمكن للـرجل الشجـاع تحمله، المصـاعب تلقـي الضوء على فضـائل بني البشر، ومثـل ذلك مـن المؤكد أن اليسر يلقي الظلال عليهـا، ليس هناك مكـان للفرار إليه، لأن العـدو محيط بنـا، وفي كل محاولـة للفرار استـدعاء لموت مـؤكد، وبناء عليه كونوا شجعاناً، ودعوا حـالة الطوارىء هذه تشحذ شجاعتكم وتشد من عزيمتكم، أيها الرجـال الشجعان عليكم إما الانتصار بنبل، أو الموت بمجد، الشهادة منحة علينا استقبالها طائعين راغبين، لكن قبل أن نموت، دعونا مادمنا على قيد الحيـاة، أن نفعل ما يمكن أن يكون انتقاماً لموتنـا، وأن نقدم الشكـر للرب في أن كـان نصيبنـا الموت شهداء، هكـذا ستكون خاتمة تعبنا ونهاية حياتنا، وآخر معاركنا».

ومـا كـاد يكمـل التفوه بهذه الكلمات حتـى انقـض الجيـش المعـادي عليهم بحدة وشدة، وكان مقسماً إلى سبعة أفـواج في كل منها حوالي ألف فـارس، واستقبل رجـالنـا حملتهم وأقـدامهم اليمنـى مغـروسة بثبـات في الرمل، وظلوا لايمكن زلزلتهم، وشكلـت رماحهم سوراً ضد العدو، وكان مـن المؤكد أنـه سيخرق الصفـوف ويمر بين رجـالنا، لـو أنهم تخلوا عـن مواقفهم درجة واحدة.

وأدرك رجال الصف الأول مـن الترك، وهم يتقدمون، أن رجـالنا وقفوا صامـدين، لذلـك تراجعوا قليلاً، ذلـك أن رماتنا أمطـروهم بزخـات من

النشاب، قتلت عدداً كبيراً من الناس، وعقرت خيولاً كثيرة، وتقدم على الفور صف آخر من الترك، وفق الطريقة نفسها، ومرة جديدة جرى صده، ورده إلى الخلف، وجاء الترك على هذه الشاكلة يشبهون الصاعقة، مرة تلو أخرى، متظاهرين بالحملة حتى يضغطوا على رجالنا للتزحزح والتراجع، لكن عندما باتوا على مقربة منهم، وعلى وشك الالتحام بهم، عطفوا أعنة خيولهم وابتعدوا في اتجاه آخر.

ولدى ادراك الملك وفرسانه الذين معه لهذا الحال، غمزوا خيولهم وحملوا على وسط الأعداء، وفرقوهم يمنة ويسرة، وطعنوا برماحهم أجساد عدد كبير منهم، ثم أخيراً شدوا خيولهم وأوقفوها لأنهم وجدوا أنفسهم توغلوا كثيراً خلال صفوف الترك، والتفت الملك من حوله، فرأى ايرل ليستر النبيل قد سقط من على ظهر حصانه، وهو يقاتل بشجاعة على قدميه، وما أن رأى هذا حتى اندفع لانقاذه، وانتزعه من أيدي الأعداء، ووضعه مكانه على حصانه.

ونشبت إثر هذا معركة مخيفة، وزحفت حشود الترك، واستخدمت كل جهد لتدمير جيشنا الصغير، وأثار نجاحنا حفيظتهم، فاندفعوا نحو الراية الملكية الحاملة لصورة الأسد، ذلك أنهم كانوا يؤثرون قتل الملك على قتل ألف رجل آخر، وفي وسط المعمعة رأى الملك رالف دي موليون، وقد أمسكه الترك وجروه أسيراً، فغمز حصانه نحوهم وخلصه من بين أيديهم في لحظة واحدة، وأعاده إلى الجيش، وكان الملك عملاقاً كبيراً أثناء القتال، وكان موجوداً في كل مكان على أرض المعركة، الآن هنا، والآن هناك، حيثما احتدم القتال مع الترك أكثر، ولقد قاتل بشجاعة بلغت حداً، أن ما من انسان مهما كان شجاعاً، إلاّ كان سيرضخ له عن جدارة، ويعترف بتقدمه وتفوقه.

فقد قام في ذلك اليوم بأعظم الأفاعيل الشجاعة، ضد جيش الترك المخيف، وقتل بسيفه عدداً منهم، وكان سيفه يلمع مثل البرق، فقد فلق

بعضهم إلى قسمين من خوذهم إلى أسنانهم، بينما فقد بعضهم الآخر رؤوسهم، وأذرعتهم، وأطرافهم، التي بترت بضربة واحدة.

وفيما الملك يعمل هكذا بنشاط لايصدق في القتال، زحف تركي نحوه، وكان يمتطي مهراً كميتاً، وقد بعثه سيف الدين صاحب « الكرك Archadia » ، وكان رجلاً واسع الكرم، لولا أنه رفض تبني الايمان المسيحي، وبعث هذا الرجل الآن إلى الملك، هدية منه تشريفاً له، عبارة عن فرسين أصيلين، ورجاه بحرارة قبولها وأن يستخدمهما، وإذا ما عاد سالماً ومعافى من تلك المعركة يتذكر الهدية ويعوض عنها وفق الطريقة التي يراها، وتسلم الملك الهدية، وبعد ذلك عوض بنبل المهدي، فهكذا هي الشجاعة يصدر تقديرها حتى عن عدو، حيث جاء هذا الاكرام من تركي هو أشد أعدائنا، اعترافا منه بشجاعة الملك وتقديراً لبسالته المتميزة، وكان الملك في تلك اللحظة بحاجة ماسة لهذه الهدية ، ومع ذلك اعتذر عن قبولها وقال إنه لن يأخذ أي عدد من الخيول مثلها بالجودة من أي انسان، فكيف من عدو مثل سيف الدين، مع أنه بحاجة ماسة إليها في تلك اللحظة.

واستعر القتال الآن واحتدم، لأن عدداً كبيراً هاجم عدداً صغيراً جداً، وغطت وجه الأرض كميات هائلة من الحراب والنشاب التي أطلقها المسلمون، فقد رموا كمية متنوعة في وقت واحد ضد رجالنا، الذين جرح كثير منهم، وبذلك ازداد ثقل القتال أكثر من ذي قبل، وانسحب رجال الشواني في الشواني التي جلبتهم، وهكذا في قلقهم على سلامتهم ضحوا بسمات شجاعتهم، وتعالى بالوقت نفسه الصراخ بين الترك، وهم يناضلون في سبيل من سيحتل البلدة أولاً، آملين بقتل الذين سيجدونهم من رجالنا في داخلها.

وسمع الملك الصراخ، فاصطحب معه فارسين فقط، واثنين من حملة الأقواس العقارة، وتصدى هناك للترك، وتمركز بنبل في واحد من الشوارع

الرئيسية، وانقض بشجاعة عليهم، فقتل الخيالة وفق طريقته الملكية، وغنم فرسين، وأرغم بقية الترك الذين وجدوا في البلدة على الفرار على الرغم من مقاومتهم، وتفرقوا في اتجاهات مختلفة، واستهدفوا أن تكون نجاتهم عبر طرق فرعية وليس عبر الطرق العادية، وأمر الملك أيضاً باصلاح الجزء الذي تهدم من الأسوار وإحسان الإفادة منه، ووضع خفراء للمراقبة والحراسة خشية أن تتعرض البلدة مرة ثانية للهجوم.

وما أن انتهت هذه الأمور بالحل المناسب حتى نزل الملك باتجاه الشاطيء، حيث التجأ عدد كبير من رجالنا إلى ظهور السفن، وحث الملك هؤلاء بأدلة مقنعة على العودة إلى القتال والمشاركة مع البقية في كل ما قد ينزل عليهم، وترك خمسة رجال على ظهر كل شيني للحراسة، وقاد البقية لمساعدة جيشه المضغوط عليه بشدة، وما أن وصل حتى انقض بكل عنف على أكثف صفوف العدو، ورد الأعداء إلى الخلف وهزمهم، حتى الذين كانوا بعيدين ولم يلمسهم غلبتهم حشود الجنود وهم يتراجعون.

ولم تكن هناك حملة قط مثل هذه الحملة قام بها فرد لوحده، حيث خرق صفوف العدو وتوغل إلى وسط الجيش المعادي، وقام بأعمال مقاتل شجاع ومتميز، وطوقه الترك على الفور وحاولوا التغلب عليه،وكان في الوقت نفسه أن فقد رجالنا الملك ولم يعودوا يروه، وخافوا أن يكون قد قتل، وعندما اقترح واحد منهم وجوب التقدم نحو الأمام للعثور عليه، بات من الصعب ضبط صفوفنا والحفاظ عليها، ولوحدث واختل نظام عساكرنا، لتعرضوا بدون شك إلى الدمار.

غير أن الملك رتشارد الذي اعتاد على القتال منذ نعومة أظفاره، والذي لايمكن عدّ رولاند الشهير مساوياً له، بقي غير مرئي حتى في وسط الأعداء، وكان جسده، كأنه صنع من نحاس أصفر، لايمكن التأثير عليه بأي نوع من أنواع السلاح، وكان حاملاً بيده اليمنى سيفه

يقارع به، فقد حمل حملة سريعة حطم بها الصفوف على الجانبين، فهكذا كانت أفاعيله وسط حشد الترك، لم يكن يخشى شيئاً، بل دمر كل الذين كانوا من حوله، يجرف الرجال أمامه بسيفه، وكأنه حصّاد يحصد القمح بمنجله.

من الذي يستطيع أن يصف هذه الأفاعيل؟ فكل من تلقى ضربة واحدة منه لم يحتج إلى ضربة ثانية، وهكذا كانت فعالية شجاعته التي لاشك أنها ابتهجت لأنها وجدت فرصة للتعبير عن نفسها، وقطع السيف الذي ضرب به الرجال والخيول سواء، وفلقهم إلى منتصفهم، وكان كلما وجد نفسه قد ابتعد أكثر عن رجاله، كلما استهدف الأعداء التغلب عليه، وهناك كانت شجاعته تزداد اشراقاً ووضوحاً.

فبين الأعمال الشجاعة التي قام بها في تلك المناسبة، أنه قتل بضربة واحدة رائعة واحداً من أشهر أمراء الأعداء وأعلاهم مكانة وأكثرهم ثراء، وبدا هذا الرجل من خلال حركاته وكأنه يقول: إنه ذاهب ليفعل شيئاً رائعاً، وبينما كان يوبخ البقية لجبنهم، غمز حصانه، وحمل حملة عنيفة على الملك، الذي لوح بسيفه عندما رآه قادماً، وبضربة واحدة لم يقطع رأسه فقط بل كتفه وذراعه الأيمن، واصطك الترك بالرعب أمام هذا المشهد وأفسحوا الطريق على جميع الجوانب، ولم يتجرأوا برميه بسهامهم حتى من مسافة بعيدة، وعاد الملك الآن سالما دون أن يصاب بأذى، عاد إلى رفاقه وشجعهم أكثر من ذي قبل وأعطاهم الأمل بالنصر.

وكان شخص الملك مغروساً كله بالنشاب، مثل غزال طعن من قبل الصيادين، وكانت تجافيف فرسه مغطاة بالسهام بكثافة، وعاد من الصراع كرجل شجاع، وكان صراعاً مريراً، لأنه امتد من الصباح حتى غياب الشمس.

وبفضل الرب نجا رجالنا من الدمار، وعاد الجيش التركي إلى صلاح

الدين الـذي هزأ برجالـه سائلاً باستخفاف: «أيـن الملك رتشاردRic »؟ ذلك أنهم وعدوه بحملـه إليه أسيراً، وتابع يقول: « مـن منكم الذي أسره أولاً، وأيـن هـو، لماذا لم تجلبـوه وتحضروه أمـامـي»؟ ورد عليـه واحـد مـن الأتراك الذي جـاء من أقصى بقاع الأرض بقوله: « في الحقيقـة يامولاي، إن الملك رتشارد الذي تسـأل عنه ليس موجوداً هنا، فنحـن لم نسمع قط منـذ بدايـة الخلـق أنـه وجد فـارس قـط مثلـه، في شجاعتـه وخبرتـه في السلاح، فهو المتفـوق بأفاعيله، وهو لانظير لـه، فهو الأول زحفاً، والأخير تراجعاً، لقد بـذلنا غاية جهودنا لأسره، لكن عبثاً كـان، لأن ما من واحد يمكنه أن ينجـو من سيفـه، فقتاله مميـت، وأن تشتبك معـه معناه الموت، فأفاعيله فوق طبيعة البشر».

كيف أقام الملك رتشارد هدنة مع صلاح الدين

ومن جراء التعب والجهد الكبير الذي بذل في المعركة، سقط الملك رتشارد مريضاً ومثله سقط عدد آخر ممن أنهكوا أنفسهم في القتال، ولم يكن هذا بسبب القتال فقط، لكن من الروائح التي انبعثت من أجساد الموتى التي تفسخت، فأفسدت المناطق المجاورة، وكادت أن تسبب الموت للأحياء.

وبعد تقليب طويل للأمور، وكان وقتها الملك قلقاً حول صحته، بعث إلى قريبه الكونت هنري مع الداوية والاسبتارية، وإلى هؤلاء وصف حالة الضعف التي حلت بجسده، واشتكى أنه في ظل الأجواء الفاسدة، والوضع السيء للدفاعات، لابدله من مغادرة المكان بالحال ودونما تأخير، ثم عين بعضهم للذهاب ولتسلم المسؤولية عن عسقلان، في حين يبقى بعضهم لحراسة يافا، لأنه هو نفسه سوف يذهب إلى عكا ليشفى، فهذا ضروري جد الآن، واعترض الجميع على هذه الشكوى بقلب واحد وصوت واحد، قائلين إنهم لن يستطيعوا حماية يافا أو أي حصن آخر بعدما يذهب، ولدى اصراراه على الرفض، اعتزلوه ولم يعودوا يعملون بالتوافق مع الملك.

وغضب الملك رتشارد وتضايق من هذا المسلك، وتألم بحرقة أن ما من واحد تعاطف مع نواياه أو رغباته، وعندها بدأ يبحث عما ينبغي أن يفعله، غير أنه وصل من خلال مناقشاته كلها إلى المحصلة نفسها، وهي أنه ليس هناك واحداً بينهم متعاطف مع سوء حظه، وعندما رأى أن الجميع تخلى عنه، وأن ما من واحد بات يهتم أدنى اهتمام بالقضية العامة، أمر أن يعلن أن على الذين يودون تسلم العطاء من الملك القدوم إليه، جميعا لتقديم عونهم له، وجاء على الفور ألفين من الرجالة، وخمسين

من الفرسان، لكن صحة الملك بدأت تزاداد سوءاً حتى أنه قنط من التعافي، وبناء عليه، وهو قلق على كل من الآخرين وعلى نفسه، رأى أن أفضل (الخطط التي اقترحت عليه) هي أن يطلب عقد هدنة، ولا أن يترك البلاد فريسة للفوضى المدمرة، مثلما فعل آخرون كثر بالابحار عائدين إلى بلادهم.

واحتار الملك، وتردد حول أفضل ما يمكنه القيام به، فطلب سيف الدين، أخي صلاح الدين ليتوسط بينهما للحصول على أحسن شروط هدنة في إمكانه الحصول عليها، وكان سيف الدين رجلاً كريماً جداً، قدم في كثير من المناسبات احتراما كبيرا وتشريفاً للملك لما تمتع به من فضائل شخصية، وقام الآن بحماس عظيم بالعمل للحصول على أفضل هدنة للملك رتشارد، وفق الشروط التالية: بالنسبة لعسقلان، التي كانت دوماً سبباً لازعاج حكومة صلاح الدين، ينبغي هدمها، وأن لاتعاد عمارتها خلال ثلاث سنوات، تبدأ من عيد الفصح المقبل، لكن عند انتهاء هذه المدة، يمكن لمن يستحوذ عليها أن يعيد تحصينها، وأن يسمح للفرنجة بسكنى يافا بدون مقابل أو ازعاج مع جميع المنطقة الملاصقة لها على شاطىء البحر وفي الجبال، وينبغي مراعاة السلام بدقة بين الفرنجة والمسلمين، وكل واحد من الفريقين يمتلك الحرية في الذهاب والمجيء إلى حيث يريد؛ وأن ينال الحجاج حرية الوصول إلى الضريح المقدس بدون أي دفع أو تحصيل أي مال منهم مهما كان نوعه؛ وأن يسمح بحمل التجارات للبيع في جميع أنحاء البلاد، وبممارسة التجارة ومتابعتها بدون اعتراض.

وعرضت هذه المعاهدة وهي مكتوبة على الملك رتشارد، الذي أعطى موافقته عليها، ذلك أنه رأى أنه في وضعه الضعيف، مع القليل من العساكر من حوله(وأيضاً على بعد ميلين عن العدو) ليس في قدرته تأمين شروط موائمة أفضل.

وعندما أقر الملك الأمور وفق ما وصفت، بعث برسل إلى صلاح الدين، ليعلموه بحضور عدد كبير من المقدمين لديه، أنه طلب الهدنة لمدة ثلاث سنوات، بقصد العودة لزيارة بلاده وجمع المزيد من الرجال والمال، ليعود بعد ذلك لانقاذ جميع أراضي القدس وانتزاعها من دولته، إذا امتلك وقتها صلاح الدين الشجاعة لمواجهته على أرض المعركة، وعلى هذا رد صلاح الدين قائلاً لتشهد عليّ شريعتي المقدسة، والله القادر، أنه يكبر هذا الموقف العظيم من الملك رتشارد، وأنه يقدّر نبله، وجودته بشكل عام، حتى أنه افترض دوما لو أنه أرغم على فقدان ممالكه كلها، لآثر أن يفقدها لصالحه وليس لصالح أي ملك آخر رآه قط.

وبعدما كتبت شروط الهدنة وتأكدت بالأيمان من على الجانبين،ذهب الملك إلى حيفا، وهو في أحسن حال حيث كان يمكنه تناول الدواء حتى يبرأ.

وفي الوقت نفسه، شرع الفرنسيون الذين كانوا يتمتعون بالراحة منذ زمن طويل في عكا، بالاستعداد للعودة إلى وطنهم، لكن مع أنهم عارضوا الهدنة بمرارة، رغبوا الآن قبل مغادرة البلاد إكمال حجهم بزيارة ضريح ربنا.

وتذكر الملك تقاعسهم عن تقديم المساعدة له في يافا، وفي مناسبات كثيرة أخرى، فبعث برسل يطلبون أن لايسمح صلاح الدين أو سيف الدين لأي واحد بزيارة الضريح المقدس إذا لم يجلب جواز سفر منه شخصياً أو من الكونت هنري، وغضب الفرنسيون لهذا غضباً عظيماً، وأخفقوا في تحقيق هدفهم، ومالبثوا أن عادوا إثر هذا إلى بلادهم، لايحملون شيئاً معهم غير الملامة والعار.

وعندما رأى الملك أن الشطر الأعظم من الفرنسيين، الذين بذلوا غاية جهدهم للتشهير به، قد عادوا إلى وطنهم، وأن أفواه شتائمه ونقده قد

أغلقت، أمر أن يعلن أن كل من يرغب يمكنه زيارة ضريح ربنا، وأن يجلب تقدماته للمساعدة على ترميم أسوار يافا.

وانتظم الناس الآن في ثلاث مجموعات لزيارة القدس، ووضعت كل مجموعة تحت قيادة قائد منفصل، وقاد المجموعة الأولى أندرو دي كافني، وقاد الثانية رالف تيسن Teissun وقاد هيوبرت أسقف سالسبري المجموعة الثالثة، وتقدمت المجموعة الأولى نحو القدس تحمل رسائل من الملك، لكن نظراً لذنوبهم، لقد وقعوا في مكيدة وهم في طريقهم، لأنهم عندما وصلوا إلى سهل الرملة، بعثوا برسل ليخبروا صلاح الدين حتى يعطيهم الأمان في ذهابهم وإيابهم، وأنهم يحملون رسائل من الملك رتشارد، وكان الرسل رجالاً نبلاء، ويتسمون بالنشاط، لكن في هذه المناسبة، كانوا متقاعسين، وأهملوا القيام بواجبهم، وكانت أسماء هؤلاء: وليم دي روك Roches ، وجيرارد دي تورنفال Tour-neval ، وبيتر دي براتل Pratelles .

وعندما وصلوا إلى «برج الجنود»، توقفوا هناك للحصول على التصريح من سيف الدين من أجل متابعة سيرهم والتقدم نحو الأمام، غير أنهم ناموا، وظلوا نائمين حتى غياب الشمس، ووجدوا عندما أفاقوا أن جميع الحجاج، الذين جاءوا لصالحهم، قد مروا، وجازوا أمامهم.

وعندما اجتاز أفراد الجمع كله السهول وكانوا يقتربون من الهضاب، نظر أندرو دي كافني والبقية إلى الخلف، فرأوا رسلهم قادمين بعدهم بأقصى سرعة ممكنة لهم، وعندما رأوا هذا توقفوا وهم مضطربين، مقدرين أنهم كانوا في خطر عظيم، وأنهم عرضة للقتل، لأن جيش الترك لم يكن قد غادر بعد، ورسلهم الذين توجب عليهم جلب الأمان لهم من عند المسلمين كانوا الآن خلفهم، ولهذا عندما وصل هؤلاء، لامهم الآخرون لإهمالهم، وطلبوا منهم الاسراع بالسير أمامهم، وقد فعلوا حسبما أمروا.

وذهب الرسل بسرعة كبيرة نحو القدس، ووجدوا حوالي الألفين من الترك معسكرين خارج المدينة، وسألوا عن سيف الدين وبحثوا عنه، وعندما وجدوه شرحوا له ما حدث، وقد وبخهم بلطف، وقال لهم: من الواضح أنهم لم يقدروا قيمة حياتهم حماقة منهم، لأنهم جاءوا إلى وسط جيش معادي بدون جواز سفر أو أمان من أي نوع.

وكان الوقت وقت مغيب الشمس، ووصل بقية الحجاج، دون أن يعرفوا ما ينبغي فعله، ولم يكن لديهم سلاح لحماية أنفسهم، وكشر الترك وقطبوا نحوهم وهم يمرون، وكان واضحاً من نظراتهم كمية الحقد المخزنة في قلوبهم نحوهم، لأن الوجه يعكس دوماً ما في العقل، وشعر رجالنا في تلك اللحظة بالقلق والاضطراب، وودوا أنفسهم لو عادوا ثانية إلى صور أو حتى إلى عكا، التي تركوها للتو، وهكذا أمضوا الليل قرب أحد الجبال في حالة رعب عظيم.

ومثل في اليوم التالي بعض الترك أمام صلاح الدين، وسألوه بالحاح أن يسمح لهم بالانتقام من الفرنجة (لمقتل رفاقهم، وآبائهم، واخوانهم، وأولادهم، وأقربائهم الذين قتلوا قرب عكا وفي أماكن أخرى) الذين هم الآن في متناول أيديهم، وقالوا إنهم لن يجدوا مرة أخرى فرصة أحسن من هذه.

وبعث صلاح الدين وراء مقدمي الترك للتشاور معهم حول هذا الطلب، وعلى الفور كان المشطوب وسيف الدين وبدرالدين دلدرم في حضرته، وعندما عرض الموضوع عليهم، كان رأيهم بالإجماع وجوب ترك الفرنجة يأتون ويذهبون من دون أذى أو اعاقة ، وقالوا لصلاح الدين : « ستكون وصمة عار كبيرة لسمعتنا، إذا ما تدخلنا في المعاهدة التي أبرمت فيما بينك وبين ملك انكلترا، أو خرقناها، فوقتها ستظل مصداقية المسلمين محط شك وتساؤل» .

ونتيجة لسماع هذه الآراء والملاحظات، أعطى صلاح الدين الأوامر على الفور بوجوب العناية بالفرنجة ومرافقتهم في الذهاب إلى المدينة ولدى عودتهم دونما ازعاج أو مضايقة، وبناء على طلب من سيف الدين، أوكل إليه القيام بهذه المهمة، وامتلك الحجاج تحت حمايته حرية الوصول إلى الضريح المقدس، وعوملوا بكرم زائد، وعادوا بعد هذا مبتهجين إلى عكا.

obeikandl.com

كيف رأى الحجاج القدس وكيف عاد الملك رتشارد إلى وطنه

ولدى عودتهم كانت المجموعة الثانية متوقفة فيما بين قلعة النطرون والرملة، فانطلقت يقودها رالف تيسون، وكان الآن صلاح الدين كما ذكرنا من قبل ، قد مركز رجاله ليحرسوا الطرقات بيقظة، وللانتباه إلى أن الحجاج هم في طريقهم إلى القدس ، ونتيجة لهذه التدبيرات ارتحلنا بكل حرية ودون التعرض للمضايقة، وعبرنا المناطق الهضبية ووصلنا إلى جبل صموئيل، فمن هناك رأينا مدينة القدس عن بعد، فجثينا على ركبنا وقدمنا الشكر للرب، كما هي عادة الحجاج، ورأينا من البقعة نفسها جبل الزيتون.

وتقدمنا بعد هذا ونحن مبتهجين، والذين امتلكوا خيولاً تقدموا أمامنا مسرعين حتى يمكنهم تحقيق رغبتهم بالتسليم على الضريح المقدس، زيادة على هذا، أخبرنا هؤلاء الخيالة الذين تقدموا أمامنا، بأن صلاح الدين سمح لهم برؤية صليب الصلبوت الحقيقي وبتقبيله، وهو الذي كان قد حمل من قبل إلى المعركة.

لكن نحن الذين كنا على الأقدام، ووصلنا بالأخير، رأينا ما استطعنا رؤيته، وكان أول ما رأيناه مكان قيامة ربنا، حيث تقدم منح الغفران، لكن بما أن المسلمين كانوا يأخذون هذه التقدمات، لم نقدم إلاّ القليل، وأعطينا شطراً إلى الأرقاء الفرنجة والسريان، الذين رأيناهم في عبوديتهم يقومون بتنفيذ الواجبات المعينة لهم، وتابعنا من هناك إلى جبل أكرا Cal-vary (الجمجمة) حيث صلب ربنا ، وحيث يوجد هناك حجرة أثبت بوساطتها ربنا في الجلجلة.

وبعدما قبلنا هذا بتبجيل، تابعنا نحو الكنيسة المبنية على جبل صهيون، فعلى الجانب الأيسر كان المكان الذي انتقلت فيه مريم، الأم المقدسة للرب، من هذا العالم إلى الرب، وحيينا هذا المكان بدموع منهمرة على خدودنا، ثم سارعنا لنرى المائدة المقدسة التي تنازل المسيح فوقف ليأكل خبزاً، وقبلنا هذه أيضاً بحرقة، ثم غادرنا معا مستعجلين، لأنه لم يكن آمنا بالنسبة لنا الذهاب إلى أي مكان، فيما عدا على شكل كتلة واحدة، خشية من غدر غير المؤمنين لأن الترك خنقوا بشكل سري ثلاثة رجال أو أربعة في الممرات الملتوية.

وبادرنا من هناك مسرعين إلى ضريح مريم المباركة — أم الرب— في وسط وادي يهو شافاط، قرب سلوان، وقبلناه بتعبد، وقلب خافق، ودخلنا بعد هذا، بفكر ليس متحرراً من الاضطراب، إلى غرفة القبو التي سجن فيها ربنا ومخلصنا في الليلة التي كان سيصلب في صباحها، وحيينا هذه الغرفة بتضرع، بينما انهمرت دموعنا على خدودنا، ثم غادرنا مسرعين، في الوقت الذي لم يبتعد فيه الترك ولو قليلاً، وحزنا للقذارة التي تلوثت بها الأماكن المقدسة بوساطة خيول غير المؤمنين الذين استخدموا هذه الأماكن كاصطبلات، وودعنا القدس الآن، وعدنا إلى عكا.

ولم تكن المجموعة الثالثة التي قادها أسقف سالسبري، بعيدة الآن عن القدس، وأرسل صلاح الدين شعبه لاستقبال الأسقف بحفاوة، وأخذه إلى حيثما شاء وإلى أي مكان أراد أن يزوره من الأماكن المقدسة، زد على هذا، تقديرا منه لحكمته، ولأخلاقه الحميدة، ولفضائله الأخرى (التي كانت معروفة منذ زمن طويل من قبل صلاح الدين) طُلب منه الإقامة في قصر السلطان، واستضيف وأنفق عليه من قبله، ورفض الأسقف أن يقول:« بدون أي كلفة، لأننا فقط حجاج»، ووجه صلاح الدين خدامه نحو اظهار كل عناية بالأسقف وبرجاله، وأرسل إليه بهدايا

كثيرة، وسمح له بعد هذا برؤية صليب الصلبوت، ودعاه إلى لقاء معه، حتى يمكنه أن يعبر عن نفسه قبل المغادرة، وقد جلسا وتحادثا معا لوقت طويل.

وسأله صلاح الدين عن ملك انكلترا، وعن الذي يقوله الفرنجة عن مسلميه، وأجابه الأسقف: « صدقاً، فيما يتعلق بمولاي الملك سأقول ما تتطلبه العدالة: إنه لانظير له بين جميع فرسان العالم سواء بالنسبة للشجاعة أو كرم الاعطاء،ذلك أنه متميز في كل شيء فيما يتعلق بكل صفة رفيعة، وبإيجاز، إن مولاي، برأيي المتواضع، لو أراد أي إنسان — وأنا لا أرى لديك ذنوب — أن يقرن ما بين سجاياك وسجايا الملك رتشارد، ويمزج فيما بينهما، لن يجد رجلين آخرين في العالم يمكن مقارنتهما بكما».

وأصغى صلاح الدين بأناة إلى الأسقف ورد عليه بقوله:« إنني أعرف منذ زمن طويل أن ملككم رجل له مكانة عالية، وشجاع، لكنه غير حكيم، إن لم نقل أحمق، في رميه نفسه مراراً في المخاطر، وإظهاره عدم اهتمام كبير بحياته، وبالنسبة لي ، مهما كانت ممتلكاتي واسعة، أوثر أن يكون لدي ثروات واسعة، وحكمة، ومرونة، بدلاً من أن أظهر شجاعة متطرفة، وتهوراً».

ثم تحول الحديث نحو أمور عادية بينهما، وأخبر صلاح الدين الأسقف أن بامكانه أن يطلب أي شيء يوده، فذلك سيعطى له، ورد عليه الأسقف بأن سأله إذا كان بإمكانه الحصول على مهلة حتى اليوم التالي لكي يرى ما ينبغي أن يسأله، وأجيب إلى طلبه هذا، ثم سأل إذا كان من الممكن استبدال الطريقة البدائية للقداسات التي يقدمها السريان، وهي لاتعدو أنصاف قداسات تنفذ أمام ضريح ربنا، وذلك في أن يتم وضع اثنين من الكهنة اللاتين مع شماسين أيضاً لاتين (يعيشون من تقدمات المؤمنين) وأن يسمح لهؤلاء بتقديم القداسات بالتعاون

المتساوي مع السريان، وطلب أيضاً أن يكون هناك عدداً متساوياً في بيت لحم وفي الناصرة، وكان هذا الالتماس عظيم الأهمية، ومرضياً للرب كما نعتقد، ووافق السلطان على الطلب، وعين الأسقف اثنين من الكهنة في الأماكن السالفة الذكر مع اثنين من الشمامسة، يقدمون القداسات للرب، حيث لم يكن هناك من أحد قبلهم، وإثر هذا حصل الحجاج على إذن المغادرة من السلطان، وعادوا من القدس إلى عكا.

أما وقد أكمل الناس الآن حجهم الذي نذروا أنفسهم له، وقد أكملوا اعداد اسطولهم للعودة إلى الوطن، نشروا أشرعتهم للريح، وعهدوا بأنفسهم إلى سفنهم، وأقلعت السفن مسرعة، وتفرقت السفن باتجاهات مختلفة وفقاً لتنوع الرياح.

وتقاذفتهم الأمواج لوقت طويل، ووصل بعضهم إلى موانىء مختلفة سالمين، وساقت بعضهم إلى المخاطر فتحطمت سفنهم، ومرة ثانية مات آخرون أثناء سفرهم، ووجدوا قبورهم في أعماق المحيط، وأصيب بعضهم الآخر بأمراض غير قابلة للشفاء ولم يبرأوا ولم يعودا إلى أوطانهم، زد على هذا ، تحمل آخرون بسلام حتى النهاية، وعانوا من خلال فقدان آبائهم، وأخوانهم وأقربائهم، وأصدقائهم، الذين هلكوا من المرض أو من السيف، وذاقوا نكهة الشهادة، وخرقت آلام متنوعة صدورهم كما لو أن ذلك جاء بفعل السيف.

لقد عانى كل واحد بطريقته الخاصة من نوع من أنواع الشهادة، وباختصار عرض كل واحد حمل قلباً ساذجاً ونفسا مؤمنة نفسه لهذا الحج الطويل حباً بالرب، واعتاد بعضهم ممن يحبون الهذر وكثرة الكلام على الشكوى أن الحجاج قدموا قليلاً من المنفعة لأراضي القدس، لأنهم لم يحرروا المدينة لكنهم لم يكونوا يعرفون مايقولون، لأنهم كانوا يبحثون في أشياء ليس لديهم معرفة شخصية بها ولاخبرة، وعلى كل حال، نحن الذين عرفنا كل شيء ورأيناه بأم أعيننا، ينبغي أن نمنح الثقة والتصديق

لرواياتنا حول المتاعب والشقاء الذي تحمله هؤلاء الرجال.

ونصرح بثقة، على مسمع من الذين كانوا أيضاً حضوراً، أن مائة ألف من الفرنجة قد هلكوا في ذلك الحج، وذلك لسبب واحد ومقصد هو الأمل بالحصول على الثواب الرباني، فلهذا السبب فصلوا أنفسهم عن النساء، ورأوا أن من الشرور التضحية بطهارتهم للحصول على الصحة البدنية، ونعلم بشكل أكيد أنه نتيجة لاجتماع الأمراض والمجاعة مات أكثر من ثلاثمائة ألف اثناء حصار عكا وبعد ذلك، ومن ذا الذي يشك — على كل حال — في خلاص أرواح مثل هؤلاء الرجال النبلاء والرائعين، الذين سمعوا يوميا القداسات من شفاه قساوستهم، ومن المؤكد أن نفترض أن هؤلاء قد ذهبوا إلى الجنة.

وغدت سفينة الملك رتشارد جاهزة، وقد زودت بكل الضروريات من سلاح ومؤن، وأعدّ ذلك من أجل الرحلة، ثم قام الملك بدافع من كرمه الخالص،وبرأي من عقله النبيل لوحده، أقدم على تخليص وليم دي بريتل (الذي عرض نفسه للأسر حتى ينقذ الملك) بمبادلته بأكثر من عشرة من النبلاء الترك، مع أن هؤلاء كانوا على استعداد لأن يدفعوا وهم مسرورين مبلغاً كبيراً من المال لفداء أنفسهم، لكن كرم الملك ما كان ليتوقف بأي حال أمام أي معيق.

وبات الآن كل شيء جاهزاً، والملك على وشك الاقلاع، هنا (قرر قبل أن يذهب أن لا يترك أي شيء خلفه يمكن أن يؤثر على سمعته) أمر بأن يعلن للجميع أن كل من له ادعاء نحوه ينبغي أن يتقدم به، وأن جميع ديونه سوف تدفع بالكامل، لابل أكثر من الكامل، لتجنب أي معيق أو شكوى فيما بعد.

ولكم كانت التنهدات والدموع كثيرة هناك عندما رفع الاسطول الملكي مراسيه، ودعي للملك بكثيرمن التبريكات لأعماله المثيرة النافعة،

ولفضائله الظاهرة، ولكرمه الكبير، وللمحاسن الكثيرة التي اجتمعت في شخص واحد، وارتفعت أصوات العويل، وردد الجميع وهم يبكون:« ياقدس، حرمت الآن من كل أمان، كيف فقدت المحامي عنك، من الذي سوف يحميك لو أن الهدنة خرقت، طالما أن الملك رتشارد قد غادر»؟ هذه كانت كلمات كل واحد، عندما صعد الملك ظهر السفينة وأقلع، ذلك أن صحته لم تكن عادت كما ينبغي، لذلك كان موضوع قلقهم جميعاً.

وسارت السفينة طوال الليل مهتدية بنور النجوم، وعندما جاء فجر النهار، نظر الملك نحو الخلف، بأعين نحو البلاد التي غادرها، وبعد تأمل طويل وتفكير عميق، رفع صوته بالدعاء وسمعه عدد من الناس يقول:« أدعك أيتها الأرض المقدسة للرب، وإذا ما منحتني العناية السماوية الحياة، لعلي أتمكن برضا الرب أن أقدم لك العون، وأن أكون في أحد الأيام ، كما أنوي، المدافع عنك والمحامي».

وبمثل هذه الكلمات حث الملاحين على نشر أشرعتهم للريح، جاهلاً لما هو بانتظاره من مشاق وأحزان، وغير عارف بالمآسي التي سيعاني منها بسبب الخيانة، التي حيكت لإلقائه بالسجن من قبل ليوبولد صاحب النمسا(*)، فقد استولى أخوه الايرل جون على ميراثه، وجرى بظلم اغتصاب قلاعه في نورماندي، واعتدى خصومه بوحشية على حقوقه، ولم ينج من أسره إلا بدفع فدية.

(*) — بالاضافة إلى ما تقدمت روايته عن أسباب اعتقال ليوبولد صاحب النمسا لرتشارد، في المجلد المتقدم، وكذلك في المجلد الثامن الحاوي لذيل ناريخ وليم الصوري، يقال إن قرابة قامت ما بين اسحق صاحب قبرص وزوجته من جهة وليوبولد من جهة أخرى، وذلك بالاضافة الى مشكلة اغتيال كونرادمركيز صور، وكانت سفينة رتشارد قد أعاقتها العواصف، لذلك حاول إكمال سفره متخفيا براً، لكنه كشف وألقي القبض عليه في فينا، حسبما تقدم بالتفصيل.

واسترد أخيراً أراضيه ومملكة آبائه، وأعادها إلى الهدوء والاستقرار، ثم عبر إلى نورماندي لينتقم لنفسه من اعتداءات ملك فرنسا، الذي كان خصمه، وبعد ما هزمه مراراً، استرد بالقوة والسيف والرمح حقوقه المسلوبة، لابل زادها.

انتهى هنا كتاب حملة الملك رتشارد إلى الأراضي المقدسة التابعة للقدس.

obeikandl.com